

الجامعة المصرية



تاريخ الأمم الإسلامية



مجموع المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية

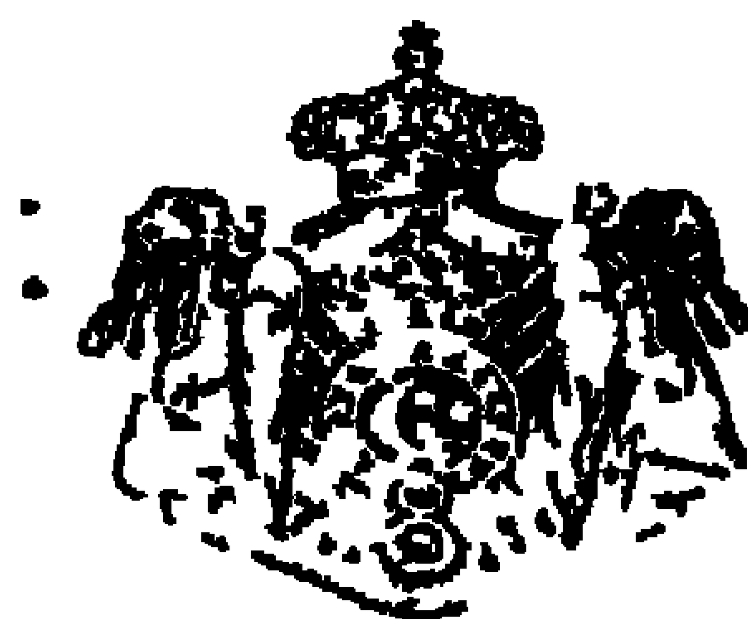
الشيخ محمد خضري

استاذ علم التاريخ الاسلامى بالجامعة المصرية

والمدرس بمدرسة القضاء الشرعي



الجزء الأول



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ اما في روض واما في واد وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الأحسا. والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة ان يغيض ومنع الرمل السمائم ان تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل اصيب الماء

ولما كانت مياه هذه الاودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليهم . وصا ان كثيرا من مياهها يغيض في باطن الارض فلا يمكنهم الانتفاع به الا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها الا ما كان من بلاد اليمن التي امكنها فيما مضى ان تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها الى جهة ثم تبني سدا محكما يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب الى رمال الصحراء ويغيض في الارض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعدة لأن يزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الاشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

اما ما عداها فان شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد اهله على العيون الضئيلة التي لا تروي الا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ في بعض سهولهم القريبة من الوديان — وأما نجد والعروض نفيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الاودية ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من مائه يغيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال عن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وانما يتتبعون مواقع القطر أنى كان لتربع انعامهم وتنفرج كربتهم

وحاجة العرب الدائمة الى الرحيل كسبتهم النشاط والخفة الى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان بحكم الضرورة عدم الاعتماد على ما تنبته الارض من المزروعات الدورية التي تصلح للانسان كان جلّ اعتماد أهل البادية على أنعامهم خصوصاً الأبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحارى المقفرة الى ما يرومون من الجهات

اما بلاد اليمن فانها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها اكثر من أي جهة اخرى في الجزيرة لأن تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جوّ البلاد

ما كان من الجزيرة تهاميا يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحرّ في الجبال اذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للاودية ومسايل المياه فان الهواء يكون به معتدلاً وما بعد عنها حرّه اكثر

وجوّ اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف اما الربيع ففيه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أُدَد بن زيد قبيلة لخم بن عدي الذين منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة واول من اتّخذها منهم منزلاً عمرو بن عدي بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضّاح

ومنهم طيء ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقها وادي الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة
اذا استحقبتها العيس تُنضى من البعد
أيوعدني والرمل بيني وبينه
تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولي رعان كأنها
قبائل خيل من كُميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة اقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الاراضي العربية من الشمال والغرب

وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكِندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم الملوك والاقيال

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه — معيشة العرب من بدو
ومن حضر — حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

اما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة فان عدنان باجماع كلمة المؤرخين من العرب ينتهي نسبه الى اسمعيل بن ابراهيم الذي جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم . والكتاب ينسب اليه والى أبيه بناء البيت الحرام (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) ولم تزل ابناء اسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده مَعدّ ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ويقال لبطون هذا الشعب المعَدّية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه اياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة ومنهم كان اكثر الخوارج في الاسلام

ومن ربيعة عبد القيس بن أفصى ومنها بكر وتغلِب ابنا وائل ومن بكر حنيفة وعِجل ابنا لُجيم

وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر وبطون الياس بن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة فمنهم بنو سُليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنيّ بن أعصر

وافترقت اولاد الياس فمنهم بطون تميم بن مر وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى من أشهرها جُمح وسهم ابني هصيص بن كعب وعَدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزّى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم وبيت هاشم هو الذي كان منهُ سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا ان البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس من ربيعة وبطون من بكر بن وائل الى

البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان امير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء الاسلام وذلك الامير هو المنذر بن ساوى من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر الى اليمامة فنزلوا بحَجْر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هَوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعشى

من يرَ هوذة يسجد غير متئب ... اذا تعمم فوق التاج او وضعا
له أكاليل بالياقوت فصلها ... صواغها لا ترى عيبا ولا طبعا

وكان ابو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوّج معدّي قط وانما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال انما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الارض من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة الى البحر فاطراف سواد العراق فالأُبلّة فهيت

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكرا وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سُليم بالقرب من المدينة من وادي القرى الى خيبر الى شرقي المدينة الى حد الجبلين الى ما ينتهي الى الحرّة فتلك ديارهم لا يخالطهم الا بعض الأنصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس وهي على الجادّة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بُحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة ونواحيها بطون قريش الا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب فجمعهم وكوّن لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب بالنسبة الى مساكنهم الى حضر وهم سكان المدن وبدو وهم الذين يقيمون في البادية انما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم الا في ذلك الجوّ الفسيح لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور . وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب وهو ما ستتبعه ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعُنجُهية

أما الحضر فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون انها أقدم مدينة على وجه الارض وفيها زبيد وعدن وصعدة ونخا وشبام وغير ذلك وفي شمال اليمن مكة وهي تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر وفي نجد حائل وفي العروض حجر قصبة اليمامة والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم في صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجتهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه من

نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها الى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الاعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وما تحتاجهُ العرب . وكان لقريش رحلتان تجاريتان احداهما للشام في زمن الصيف والاخرى لليمن في زمن الشتاء . وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافئ تجارية كبيرة ولم يعرف للأُمة العربية نقود كان بها التعامل وانما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الأُمم عنها حتى ان البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة واذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لا نجده اكثر من ان أحد آباء الفرزدق كان محترفا بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح له من النعال وغيرها وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل وكانوا يرجعون في صناعة البناء الى عمال من الروم او الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان . وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

﴿ أحوال العرب ﴾

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الاحوال الاجتماعية والأدبيــة والسياسية والدينيــة ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبني عمه د نيا ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالادبية ما كان لهم من الاخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ونعني بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم او التبعية لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجال في أهله ونريد بالأهل خصوص الزوج

يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفــاف او أهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعلومات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل اذا أراد ان يتمدح بما له في نظر العرب نقامه السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في كثير اوقاته الا المرأة التي ان رب في نظرها فقد رضي النــاس كلهم عنه وترى ذلك واضحا جليا في اشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان ثم انظر الى اي شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثا امرأة من قومه بانه المدافع عن حريمه الحامي للحقيقة

تراه اذا عذلته على السرف واشارت عليه بالقصد يجيبهــا بأرق ما يجيب به عذاله في الرأي

ألم تعلمي يا عمركِ اللهَ انني　　كريم على حين الكرام قليل

أولا ترى ان جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم لا يذهبون الى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون ان شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة

ونراهم حينما يخاطبونهـا وهي ذات زوج يلقبونهـا بخير الالقاب فيقول احدهم

يا ربة البيت قومي غير صاغرة　　ضمي اليكِ رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سموّ الدرجة وما احلى احتراسه في قوله غير صاغرة　ويقول الآخر لزوجهِ

سلي الطارق المعترّ يا أم مالك　　اذا ما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي وهو اول القرى　　وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها الا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وبالجملة فان المتتبع لأشعار العرب لا يشتمّ منها رائحة الصغار والاهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم الى امهاتهم كما يفخرون بنسبهم الى آبائهم وكانت المرأة فيهم اذا أرادت فرقت وان شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها للسلام سعت اليهِ ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر أشعلت النار بين الاحياء

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان في ابان الحرب بين عبس وذبيان أتراني أخطب الى أحد فيردني قال نعم أوس بن حارثة بن لأم الطائي فقـال الحارث لغلامه هيئ لي مركبًا ثم ركب هو وغلامه

ومهما خارجة حتى أتيا أوسا فوجداه في داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه فقال جئتك خاطبا فقال أوس لستَ هناك فانصرف ولم يكلمهُ ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من رجلٌ وقف عليك فلم تطل ولم تكلمهُ قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فما لك لم تستنزله قال انهُ استحمق جاءني خاطبا قالت أفتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقهُ وقل له انك لقيتني مغضبا بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب الا ما سمعت فانصرف ولك عندي كل ما احببت فانهُ سيفعل ففعل ذلك أوس وورد حارثة فلما وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالبا خاطبا وقد أردت ان أزوجك منه فقالت لا تفعل لاني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابن عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليَّ في ذلك ما فيه قال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليَّ في ذلك ما تعلم ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهنَّ فلما عرض عليها قالت انت وذاك فاخبرها باباء اختيها فقالت لكني والله الجميلة وجها الصناع يدا الرفيعة خلقا الحسيبة أبا فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت اليه في بيت ابيها فلما خلا بها واراد ان يمد يده اليها قالت مَه أعند ابي واخوتي هذا والله ما لا يكون فارتحل بها

حتى اذا كان ببعض الطريق واراد قِربانها فقالت أ كما يفعل بالأمة الجلبية او السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي فرحل حتى اذا وصلَ ديار قومه أعد لها ما يعدّ لمثلها فلما اراد قربانها قالت له أتفرُغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك فان يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع امورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويقف عند ارادتها ولا يمكننا ان ندعي ان هذا كان امراً عاما عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة لأن وجود افراد هذه معاملتهم لا يحتمل ان يكون برهانا على ان هذا خلق عامتهم كيف ونحن في بيئة لا نعدم فيها من يرفع زوجه الى اعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم ان احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها

ولكن الذي يمكننا ان نقوله ان ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعاً من العمل بل كان شيئاً لا تنفر منه طباعهم . يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ولكن لا يجسر ان يخالف التقاليد العامة يوماً فيكتب في احدى الجرائد قلت لامرأتي واستشرت امرأتي في زواج بنتي فكان مني ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس

بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

ومن ذلك يمكننا ان نقول ان علاقة الرجل العربي باهله كانت على درجة من الرقي اكثر مما يخيل الينا وكان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة في الاسلام وهي مما يزيدنا تأكدا من هذا الرأي الا ان الرجل كان يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها

وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء اوليائها ولم يكن من حقها ان تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوي الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان او مكان لم يكونوا يطلقون عليها الأ السفاح واتخاذ الاخدان ولم يكن ذلك أمرا مستحسنا عند جمهورهم اذ المعروف عن العربي من غيرته على اهله ومحافظته على شرفه يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك ان يقال ان الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه الانواع تلك المسافحات

وكانوا يعددون بين الزوجات الا أنه لم يكن هناك حد معروف اليه ينتهي الأمر في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح ان غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل الا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج ان تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان اذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها

حلف تقاتلا فاذا قهر صاحب الظعينة أخذت منهُ سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الاولاد الذين تكون هذه امهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم ان تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جلبية وان كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمد على هذه الشجاعة في نفي العار عنهُ كما قال عنترة

اني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف حتى كانوا اذا منوا على أولادهم ذكروا في اول ذلك انهم تخيروا امهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعاً من الاجتماعات كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونهُ عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم انهُ تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين أنهُ انما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معهُ في غزواته

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنوّ على الاولاد ما يعبر عنهُ قول أحدهم

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب انهم كانوا يئدون بناتهم اذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء

ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ولم يكن هذا في جميع العرب بل كان في بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع الا في طبقة منحطة منهم لأن ذلك انما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر والى ذلك الاشارة في قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وأياكم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه وكان يشتري البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك ان نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة العربية بل انما تعد على اولئك الافراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها أنصر أخاك ظالما او مظلوما وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أما هم فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصرا حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقص من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جرّاء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا اليهِ زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... عند النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
كان ربك لم يخلق لخشيتهِ سواهم من جميع الناس انسانا

واذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من احدى القبيلتين النصرة على افراد القبيلة الاخرى وهذا الحلف قد تعقده الافراد وقد تعقده رؤساء القبائل والأمر واحد في الحلفين

بينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراه في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماما بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم

والسبب في ذلك يرجع الى أمرين

الاول — التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد فانا نعلم ان حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون وهي محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء واكثر ما يبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء اولاً او في نفس المراعي

فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بداً فينزح أحد الأخوين عن داره مرغما الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا يكون ذلك الا بعد ان يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل واذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين رأيت بلدا من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك في عبادتهم وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامام الشافعي فاستغربت ذلك وسألت ذوي الاسنان منهم عن سببه فاخبروني ان أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني - تنازع الشرف والرئاسة واكثر ما يكون ذلك اذا مات أكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضا تزيده الايام شدة وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والايام المعدودة انما كانت بين القبائل

المتقاربة في الانساب المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليهِ في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف انما كانوا في بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديهِ ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزُر واطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشدّ اذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً

واذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوّى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانهُ قال لهما انتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجد له شاعراً يلهبهُ ويزيد في نفسه نُعرة الجاهلية كما فعل الأعشى في هذه القضية فانهُ قال القصائد الرنانة يفضل بها عامرا ويزعم ان الحكم قضى له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان همّ الواحد منهم ان يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأُخرى واذا زل أحد افراد القبيلة زلة عدّوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إنا اذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته حتى انك لترى القبيلة المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحيي الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشرّ قبيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين او بين شخصين لا يحتاج شبوب

نار الحرب بينهما الى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأيم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منهـا زمان او مكان واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها امورا يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه

المحاضرة الثالثة

« حال العرب السياسية »

كان حكام الجزيرة من هذه الجهة قسمين القسم الاول منهم ملوك متوجون الا أنهم يرجعون الى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين . القسم الثاني رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز الا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج

القسم الاول

« الملوك المتوجون »

ملك اليمن

اذا نظرنا الى المواعين بارجاع التاريخ الى الازمان المترامية الى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم بتناقضون ولا يشعرون

فانهم انما يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئاً

يقولون ان قحطان بن عابر المبرعنه في التوراة بيقطان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الارض خلاء ويتبع هذا الكلام انهُ كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة انه كان ملكاً على نفسه او على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون ان الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن عن ثلاثين من اخوته وبنيهِ

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ يقول فيه ان اول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر انه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم انهُ غزا الهند ثم رجع الى اليمن وعاد فذهب الى بلاد طيئ ثم على الانبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه الى أذربيجان فغزا وغنم . ويروون عن ابنه ذي منار انهُ غزا بلاد الغرب وذهب الى أقصاها وان ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنماً من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد . وان تبعاً دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبّت اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل الا اذا ضحى جزء كبير من العقل وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي (المتوفي سنة ٨٠٨) في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري المتوفي سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في مواضع من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وان الرئيس منهم انما كان رئيسا على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فان نزع منهم نازع او نبغ منهم نابغ فتجاوز ذاك وان بعدت مسافة سيره من مخلافه فانما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذي يكون من بعض من ينسردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفال أهلها فاذا قصده الطالب لم يكن له ثبات فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعا الى محجره من غير ان يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة او يؤدي له خرجا

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير انه كان غير متصل وانما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الاول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها ويبلغ عمر الاول منهم والآخر اذ لم يكن من الامر الدائم كان دائم شيء قائما يدوم لمن دام له منهم بأنه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا مالك بنفسه اه

فالظاهر ان قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في انحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان من يوسع سلطانه الى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الأمر الى ما كان عليهِ اذا ضعفت قوة المتغلب في حياته او ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن او عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمهُ

غير ان مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه الى ما وراء مخلافه بما يتاح له من القوة فاذا أمكنهُ بسط سلطانه على حضرموت والشِّحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره حتى اذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب او في أيام أبنائهِ عاد الأمر الى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى الى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قَيْل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغترّ بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينهُ وبين الملك الذي يليهِ فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة او اكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب ايضا

فذكرت التوراة انها وفدت على سليمان بن داود ملك اسرائيل

ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على ان ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل اليها مهدداً (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الاصقاع فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن اذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذونواس وكان يهوديا فرأى ان بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذي نواس الا ان مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٢٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية ان ينتقم من ذي نواس فبعث اليه قائدا حبشيا اسمه ارياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل ارياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد ان استرضى ملك الحبشة فرضي عنه وأبرهة هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد ان يصرف الناس عنها الى بيت بناه بصنعا فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الامراض المميتة وقد بينها

ابن هشام[1] في سيرته بأنها الحصبة والجدَري ّ وروى ان هذا كان أول حصولهما بمكة فعاد منهزماً وتوفي بعد عودته وأشار القرآن الى هذه الحادثة في سورة الفيل

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق

كان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع الى نيل الملك ولا يقعده الا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري فرأى من الضروري ان يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم او ملك الفرس ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن حتى مات سيف[2] فذهب ابنه معديكرب الى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته ان يعين معديكرب لما كان لهم من الأمل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبلّة وقطعوا خليج عُمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من احدى فُرَضِها وتوجهوا الى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذٍ توج وهرز معديكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جندا من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب اليهم فيقال أبناوى

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفي سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن اسحاق رئيس أهل المغازي المتوفي سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد في السير

(٢) بعض المؤرخين يروي ان سيفاً هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذي يزن يهنئونه بعودة الملك وممن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان معديكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون في في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن لأنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي كان على عهد الفتح الاسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب الى الاسلام فجاء الاسلام وصنعاء أيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عاما بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا كما كتب الى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان وكما كتب الى الحارث ابن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بحضرة

بعد ان انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهي ان يدخل على بلاد فارس ضعفا أبديا لا يتمكنون معه من اعادة الكرة على أعدائهم اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فان ملوك

الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمرت ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم الى سنة ٢٣٠م وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية او دولة الاكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءا مهماً من ريف العراق كان قبل ملكاً للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع الى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سبباً في رحيل جمع من قضاعة الى الشام ودان له أهل الحيرة والانبار.

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى انه يستحيل عليه ان يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة على تخوم ملكه الا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دَوْسر (يظهر انها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءته الى بلادها وقتلته وكان له ابن اخت اسمه عمرو بن عدي فأراد ان يأخذ منها بالثار فأعمل الحيلة الى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيرا فسار قصير اليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمرا ان يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر على الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فادركها عمرو فمصت سمًا وقالت بيدي لا بيد عمرو ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج ويقولون ان الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها اذينة من بني السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبراري الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر اورليانس وقهروها وأخذوها أسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠ و٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالي سنة ٢٦٨م

وبعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو اول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م الى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة الا ان الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أردشير ولم تزل الملوك من بني

نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الاباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعهُ خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل الى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه الى ان يكون على ذلك المذهب فأبى عليهِ ذلك حميَّة وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حُجر الكندي الذي كان اميرا على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد ان أجاب دعوته الى المذهب المزدكي

ولم يزل ملكاً حتى مات قباذ وخلفه كسرى انوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً بالبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر الى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالانبار وبها منزل فهرب باولاده وماله وهجانه فتبعهُ المنذر بالخيل من تغلب وأياد وبهراء فلحق بأرض كاب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفسا من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مَرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في ديار كاب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه ان يولي أمرهم بعض ولده فملك ابنه حُجراً على بني أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معدبكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد من تميم . ولم يكن

هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد ان ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرىء القيس وقيامه لأخذ الثار ممن قتلوا أباه وكان يريد ان يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه الى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك الى المنذر بن ماء السماء استمرّ في عقبه حتى كان النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العباديّ انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما احكم زيد الأمر واشتدّ غضب كسرى على النعمان أرسل اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن انه هالك ان توجه الى المدائن فذهب يتنقل في احياء العرب يريد منهم ان يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذا قار ونزل على بني شيبان سراً فلقي هانيء بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدّين لقيس بن مسعود أخي هانيء وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان ان يرفع اليه أهله لذلك وعلم ان هانئا يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه الى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله اياس بن قبيصة الطائي وهو من اشراف طيء وأمره ان يرسل الى هانيء بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانيء حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر أياسا ان يسير اليهم بالجنود ومعه مرازبة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانيء يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا الى الفلاة فأسرع الناس الى ذلك

فقام حنظلة بن ثعلبة العِجلي وقال يا هانئ أردت نجاءنا فألقيتنا في التهلكة ورد الناس وقطع وُضُن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم ان لا يفرّ حتى تفرّ القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيهِ العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليهِ وسلم بقليل فانهُ عليهِ السلام ولد لثمانيــة أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع اياس قائد من قواد الفرس وبعــد موته ولى كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك الى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته الى ان قدم عليهِ خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق

جاءَ الاسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً كما كان في اليمن لأن الملك كان عامــلاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج واذا شاء ملوك الفرس أبقوه وان شاءوا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وانما كان اسمياً لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقفون في وجهه محاربين وكان أحياناً ينتصر عليهم اذا أقاموا في اماكنهم وأحيانا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويحتمون ببواديهم فلا يمكنهُ ان يتبعهم

ومما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية ان عمرو ابن المنذر بن ماء السماء وأمهُ هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوماً لجلسائهِ هل تعلمون احداً من العرب يأنف ان تخدم أمهُ أمي قالوا

ما نعرفهُ الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان أمهُ ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسهِ ثم أرسل الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور أمهُ هندا بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطىء الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند في القبة وقد قال ابن هند لأمه اذا فرغ الناس من الطعام فنحي خدمك عنك فاذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها ان تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى واذلاّه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هنالك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبيين

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم في معلقته

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك ان تلينا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الامارة بالحجاز — الحكم عند الاعراب

الملك بالشام

في العهد الذي سار فيهِ عرب اليمن الى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت الى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم ان يعيشوا فيها وكانوا من بني سَليح بن حلوان الذين منهم بنو ضَجْعَم بن سعد ابن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة الى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهداً طويلاً يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكاً على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٦٨ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الاسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبني جفنة اشياء مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيراً ما يمدحهم لأنه ينتمي الى أصلهم وهو الأزد وله فيهم مدح جاء منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي واد وراء الأنبار على طريق الفرات الى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة مع ان المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه ان يدفعوا له الفدية بمعنى انهم يعترفون له بالعبودية لهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم ان الأسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام فجهز جيشاً تحت قيادته وسار الى ان أتى مرج حليمة وهناك قابله جموع الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر ايضاً

الامارة بالحجاز

كان بنو اسمعيل بمكة ولاة من جرهم قحطان وهي جرهم الثانية ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه ابراهيم صاهرهم . وكان لأولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء .

ولما ارتحل الأزد من مأرب بعد السد كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمُر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فابادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين وبقي بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليهِ وسلم فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم ان يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ولما لم يبقَ الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي ويقال انه اشتراه منه بزق خمر ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة الا بالقوة التي كوّنها من عصبية فِهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ في مكة وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد اليهِ العرب من جميع انحاء الجزيرة . ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام امورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى . وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية لحرب الا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته ومعنى السقاية انهم كانوا يملأون للحاج حياضا من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب فيشرب الناس منها اذا وردوا مكة والرفادة طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد في حياة أبيه فأراد أبوه ان يلحق به ابنه عبد الدار الذي كان أسنّ من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه . ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بني العم سببه المنافسة في الشرف وافترقت قريش فرقتين فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبد الدار وكاد يكون بينهم قتال لولا انهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ولبني عبد مناف السقاية والرفادة. ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الاسلام والأمر على ذلك

وكانت لقريش مصالح اخرى لا تساوي هذه في العظم وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء

القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال الا انهم وان لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتما بين كبراء البيت الواحد اذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيهِ أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بما له من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثريا من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الاسلام ولكن لم يصل هـذا النزاع يوما الى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيـهِ لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فان مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم أمن من لجأ اليهِ فقد نجا من عدوّه وكانت أشهر الحج عندهم أشهرا حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع الى هـذه الاسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على انفسهم وأموالهم فاذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم فمن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عاداتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطرارا سمتها العرب حرب الفِجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده ومما امتازت بهِ قريش حِلف الفضول وكان مداره على ان ترد كل

مظلمة بمكة الى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد ما كان منها بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعا لملك آل جفنة بالشام الا ان هذه التبعية بالنسبة لقبائل البادية كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون ان يحكموا حكما ولو كيا يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على ايديهم من الفعال وأعظم مسوّد كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء تقيم بأقامته وتظعن بظعنه واذا دعا لحرب لا تتأخر عنه واذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفيّ والنشيطة والفضول فالمرباع ربع الغنيمة والصفيّ ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل ان يصل الى بيضة القوم والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما قال بعض الشعراء يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فاذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب ابن زُرارة وبيت ربيعة في آل ذي الجدين ومركزه قيس بن مسعود الشيباني

وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم الا انهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم اذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيمَ غضب . وكان في بعض الاحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خرجاً كل سنة كما كان زهير بن جُذَيمة سيد عبس من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فانهم كانوا يؤتونه الإتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هَوْذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمي سيد عبد القيس وتميم بالبحرين

وعلى الجملة فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم الى بذل الندى واكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون باسمائهم مادحين والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجوّ

المحاضرة الخامسة

﴿ الحال الأدبية ﴾

الاخلاق — اللغة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على ان يقصر لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل وعلى ان يطلقوا لفظ العادات على الملكات الاخرى كالمشي واللعب النظامي

عموم الخلق

لا يحسب الخلق على الأمة الا اذا كان مألوفاً عند افرادها يفعله فاعله منهم من غير ان يحاذر نكيراً او يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذامّ الأمم التي بها تستحق السقوط والخذلان انهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فعله فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة . فان كان الشر معروفاً عن فرد او جماعة يستسرون بهِ او يعلنونهُ مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم الى الامة بأسرها وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة . كذلك لا يحسب الخلق للامة الا اذا كان

فاشياً بين افرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفهُ أحد منهم الا مستتراً ويخاف المذمة ان ظهر بالمخالفة أمام الجمهور وعلى هذه القاعدة نسير في بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التي كانت للعربي سرعة الانفعال والاقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هَيجه الا الى كلمة صغيرة او فعلة حقيرة يتخيل معها ان قد مسّ شرفه فتجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لا يتريث حتى يستطلع جلية الأمر بل يقدم منكبا عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق اكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا أحكاماً قاسية من جرّاء أفعالهم بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم والنفس اذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام فاذا لم تخشَ العادية أقدمت ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير يا لَفلان واذلاه وانصيراه شرف الآباء وما شاكل ذلك ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخشَ عقوبة لم تكتفِ بدون الموت لمن تريد الانتقام منهُ

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً أللهمّ الا في سادتهم وذوي الاسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه ان ينصر ذا عشيرته على أية حال

يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هـذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن كليهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيهِ نصف أشعارهم بين متمدح بهِ ومثن على غيره . كان الواحد منهم يأتيهِ الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال الا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم اليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد او يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم ان سالم بن قحفان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره الى ما أعطاه اياه ثم ثانيا وثالثا حتى لم تجد حبلا فقال لها عليَّ الجمال وعليك الحبال فرمت اليهِ خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال

لا تعذليني في العطاء ويسري لكل بعير جاء طالبه حبلا
فاني لا تبكي عليَّ إفالها اذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذي تكفل بالأرزاق في السهل والجبل
تزال حبال مبرمات أعدّها لها ما مشى منها على خفه جمل
فأعط ولا تبخل لمن جاء طالبا فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطالع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والاضياف من

ديوان الحماسة الذي جمعهُ حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام ما يثلج الصدر

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون بهِ ويستهينون في سبيل الوفاء بهِ قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا الى ما فعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرّض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبالٍ بما يصيبه ويصيب قومه من جرّاء ذلك . ثم انظروا الى ما فعله السموءل بن عاديا وهو عربي المقام والمولد حينما خيّره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حُجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده وفي ذلك يقول الأعشى مخاطباً شريح بن عمرو الكلبي

كن كالسموءل اذ طاف الهمام بهِ ... في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتي خسف فقال له ... اعرضهما هكذا اسمعهما حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك اني مانع جاري
وسوف يُعقبنيهِ ان ظفرت بهِ ... رب كريم وبيض ذات اطهار
فاختار أدراعهُ ان لا يسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظروا الى ما فعله حاجب بن زُرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد بهِ بعد ان رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب والقوس في الحقيقة لا يمنعهُ رهنها من فعل ما يشاء ان كان من شيمته الغدر وانما خاف السُّبّة على بنيه من بعده اذا

هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة العربية انهم كانوا اذا زل واحد منهم زله فغدر بذي عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فان خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا محيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق انهم كانوا يغلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الابناء والاخوان . ومن ذلك ان رجلا من السواقط من بني أبي بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمَير بن سُلميّ انه له جار فحدث ان كان بين قرين بن سلمى وبين أخي الجار أسباب أدت الى ان قتله قرين وكان عمير غائبا فأتى الكلابي قبر سلمى أبي عمير وقرين فاستجار بهِ فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي ان يقبل دية أخيهِ مضاعفة فلم يفعل فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق الى الكلابي جميع ما له فأبى الكلابي ان يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى بهِ حتى قطع الوادي فربطه الى نخلة وقال للكلابي أما اذ أبيت الا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي وارتحل عن جواري فلا خير لك فيهِ فقتله الكلابي وفي ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذرا لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من ان نتكلم فيهِ فانهم كانوا يخلطون حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف يعد

من أفراد القبيلة التي دخل في حلفها وينال شرفها وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم مع ان قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أي قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب لهن كفأ الا من دخل في حلفهم .
ومن أخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه وباب الحماسة في أشعارهم اكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الافراد أما الكرم فانهُ لا يظهر أثره بجلاء الا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم ان يعطفوا على الفقراء والمعوزين وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة البأس وقوة القلب . وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا ان نقول انها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الأدب يجد من وصاياهم الجيلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم ان هذه الأمة مع ما كانت عليهِ من البداوة وشظف العيش لم تخلُ من حكماء اودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم . ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر وكانوا يرون انهُ سبيل من سبل الكرم لأَنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه وكانت طريقتهم في لعبه ان يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزورا يقسمهُ الجزار الى عشرة أجزاء ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد

نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة الفذ والتوءم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلّى والمنيح والسفيح والوغد والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لا نصيب لها انما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل أمين يقال له أمين المقامرين فتدفن في الرمل او توضع في خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قِدحا ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فان خرج التوءم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فان خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءا يدفع منها كل قدر سهامه وان خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فان خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأن فيها ما يستحق اكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءا يضربون القداح عليها فان خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان منها النافس وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءا فاذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوءم وله اثنان ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءا ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل من ربح

في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الاولى يقسم على ١٨ جزءا وهي لمن عدا الرقيب والمسبل وثمن الثانية الى ١٢ جزءا لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الاسلامي وهذه المفسدة هي انه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء

ومن عاداتهم التي يتمدحون بها شرب الخمر يرون انها كذلك سبيل من سبل الكرم ومما يسهل السرف على النفس لذلك تجدها في الشعر العربي بابًا من أبواب المديح والفخر ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة الاسلوب اللغوي قول عنترة

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرّة قرنت بأزهر بالشمال مفدّم
فاذا سكرت فانني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

والشرب في وقت عنترة هذا كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحاً ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم لأن المنفعة في كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس وإثمهما اكبر من نفعهما) ثم بين هذا الاثم مرة أخرى فقال (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء

في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا اثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم اليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية احدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم منذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لاصالتهم في العربية . ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت الى مكة واحتلتها قبل ان يردها اسمعيل بن ابرهيم عليهما السلام فلما جاءها اسمعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان اسمعيل رجلاً عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية . أخذ اسمعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد ان هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول بهِ لأن اسمعيل وأمه لا يمكنهما ان ينسيا بالمرة ما في انفسهما من الكلمات المحفوظة واذا احتاجا الى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان الى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة . والمؤرخون يسمون اسمعيل وبنيهِ بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربيــة فرعين الفرع العربي الحميري وهو لغة

العرب الاصلية والفرع العدناني او الحجازي وهو لغة بني اسمعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وانما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الإلف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لا يجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية

معلوم ان اللغة انما يتكلم بها أصحابها تبعا لحاجتهم فالمفهوم انها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعن لهم من الحاجات ويكون اكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث

الأول — تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ اليه أحيانا وربما اختلفت مواضعاتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان او اكثر وقد يكون بعض الاسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف واكثر ما نجده في أسماء الاشياء التي هي عند عامتهم لا يستغني عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وما شاكل ذلك

الثاني — التجوز فقد كانوا ينظرون الى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً او تشابها فيطلقون لفظ الاول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسى اول الشيئين وآخرهما فيظن المطالع ان الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعا ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن

الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عني بلغتهم وكانوا دائماً يكنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنهـا الى غيرها من الألفاظ المستعـارة ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتذلت بأنها استعيرت وقتا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وارادة ما يلزمهُ حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيـانيين بالكنـايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعـارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم في التعريب الشأو الواسع لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والاسفـار وساكنوا الفرس والروم والحبش وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد ان يتلاعبوا بهِ قليلا حتى يكون على نمط نطقهم واكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الاسلام بزمن ليس بكثير

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بهـا حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي فان هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي اليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب

من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنّة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة الى عشرين منهُ ومجنة بمر الظهران ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيه الى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانياً من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع الى عرفة وهو يوم التروية . وكانت شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر ما يستحقهُ من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب واكثر المتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذي كان أبوه ملكا في نجد على بني أسد وشعراء الأوس والخزرج الذين كانوا بالمدينة وطيء وكلب المقيمين في شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريبا لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم الأخرى تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عديّ بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لأنهُ كان ذا سفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق الى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنهُ الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت بهِ معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من

غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليهِ حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة الى اكثر من هـذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد ان تكون سهلة سلسة على الألسنة والاسماع وهذا ما نحس بهِ في هذه اللغة الجميلة

جا الاسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون يتباهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم اذا هي رزقت شاعرا ينافح عنها في المجامع وربما أولمت الولائم فرحا بذلك واستبشارًا وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد ان يرى مثالا واضحا من رقة لغـة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعهُ أبو علي القالي في أماليهِ وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله وما جمعـهُ صاحب جمهرة أشعـار العرب فان ما في هـذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم الا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليـل جداً في جانب الذهب الوفير



المحاضرة السادسة

الكتابة — العلوم — الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الافراد وانما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والانبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاث ليست بالشيء المتداول الدائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انها كانت لترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صنائع المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في افراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الانسان على قوته الحافظة والحافظة متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا او بعضا وربما فاتهم الشيء منها اذا اشتبه عليهم الأمر ففقدوا وأخروا وهذا سبب لما نراه في

بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والاثبات
ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في المحافل والمجامع

جاء الاسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم الى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنبا لجنب لأن الانسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع . وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات الا ما كان منها مختصا بما هم في حاجة اليه وكانت الحاجة في حواضر العرب اكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة اكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جمله الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ثم اداة حربه وقلما يحتاج الى اكثر من ذلك

فاما حاجته الى المطر فقد كسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر او الانذار بالجدب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجربية قلما تتخلف فيستدلون بالريح و باشكال السحب وبالأنواء (١)

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة الى اثنى

ومن استدلالهم بالرياح واشكال السحب ما رواه صاحب الاغاني
قال خرج اعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال

عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسموا كل برج اسماً بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتي في الشمال هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والتي في الجنوب هي الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت

وتخيلوا من اجزاء هذه المجموعات الكوكبية اشكالاً اخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها الى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان او ثلاث وهذه هي المنازل — الشرطان — البطين — النجم وهو الثريا — الدّبران — الهقعة — الهنعة — الذراع — النثرة — الطرْف — الجبهة — الخراتان — الصرفة — العوّاء — السماك — الغفر — الزّباني — الاكليل — القلب — الشولة — النعائم — البلدة — سعد الذابح — سعد بُلَع — سعد السعود — سعد الأخبية — فرغ الدلو المقدم — فرغ الدلو المؤخر — الحوت

وبعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر فيعيد التقلب في هذه المنازل كالمرة الاولى حتى اذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التي سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فاذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفي كل ثلاثة عشر يوماً نوء جديد . وقال بعض علمائهم انهُ لا يسمى نوءاً الا اذا كان معهُ مطر فان لم يكن مطر فلا نوء واذا نسبوا المطر نسبوه الى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه الى الساقط . وكانت لهم اسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية . مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لانها تفتر عن البرد وعن الحر في الحالين . واذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا الى الافاضة فيه

الشيخ اني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلي ثم قال لها بعد ساعة اني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دُهْم تجر جلالها قال ارعي واحذري ثم قال لها بعد ساعة اني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعي واحذري ثم مكث ساعة وقال اني لأجد ريح النسيم فما ترين قالت أراها كما قال الشاعر

دان مُسِفٌّ فُوَيق الارض هَيْدَبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله   ريط منشرة او ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته   والمستكن كمن يمشي بقرواح

قال انجى لا أبا لك فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم الى إبلهم كسبتهم بالتجارب قواعد ترجع الى ادواء الإبل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك حظ وافر كما أنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الانساني ومعرفة امراض الانسان التي تنتابه في الصحراء من انواع الحمى التي لا بد منها لمن يقيم حول مناقع الماء متعرضاً لبرد الليل وحمارّة القيظ وسموها باسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد لأمراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الأخرى

وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بثلث الصناعة نساؤهم فالمرأة ان قالت اني صناع اليد فانما تعني بذلك انها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسج في حواضرهم واكثر ما يكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الى ادوات القتال علمتهم صناعة الرماح وافادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق ان تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزُّج والسنان وكانت هنالك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب اليها فيقال رماح خَطِّيَّة واما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والأبلة وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الأشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون الى حساب إبلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حسابا منتظما بارقام وقواعد تعلم وانما كان حساباً ارقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكما في الآثار والانسان كبني مُدْلج وللعرب في معرفة الأثر اعاجيب لا يكاد الانسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى ما بقي منها بين اعراب السودان لا

يقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في اظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥

ولمهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليك مثال من ذلك في احدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروى وكانت ارض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالي وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه الى ان وصلوا الى اصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السواس فاخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس اركان الحرب قائلين ان الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير ايضا واتضح ان حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه في السوق وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح ان باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ولما جيء بالسائسين امام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا انه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا فهم ما نسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم في النوع الثاني ما لا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ما عدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً قائلاً هذه الاقدام من هذه الاقدام ان كان النسب صحيحاً وينفي هذا النسب ان لم يجد تشابهاً ولا يهمه ان كانا قد اتفقا في اللون او اختلفا فيه

والشريعة الاسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من

وسائط الحكم في الانساب اذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله ان العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من الحوادث والاشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين أما الاول فهو شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع اليه عند الشدة لتخفيف ما يلم به من الكروب

الثاني شعوره بان المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الامور فهو يتخيل ان تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن لا نتيجة مساعدة مخصوصة من الاله القادر على كل شيء لانه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضا من خالق العالم الاكبر فان كان حياً فهو الوسيلة وان كان ميتاً قام قبره مقامه او جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ما شاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطى صاحبها في حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو لجماد نافع او ضار لأن القوة التي أُعطيها وبها ضر ونفع أثر من آثار الخالق الاكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما تقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر أو

فضة أو ذهب صنما ويسمون الحجر الغُفْل من الصنعة وثناً . الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعياً في الانسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر مذ عرف تاريخ الانسان وتمثيل القوى المدبرة والاشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ولذلك يقول علماء الاجتماع الانسان متدين بالطبع حتى انك لتراه اذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالا الى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاءت الانبياء يدعون الناس الى أفضل الطرق الموصلة الى ارضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان هو ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس الى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس ويدعى ابراهيم أبا الانبياء لأنهم كلهم من ولده

وكانت النبوة في فرعين من ولده الاول اسحاق ومنه كان جميع انبياء بني اسرائيل وأعظمهم وأبقاهم اثرا موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية وهو نسبة الى يهوذا احد أسباط اسرائيل أو هو السبط الاكبر الذي منه كان جلة الملوك من اسرائيل ودين المسيح هو النصرانية نسبة الى الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعي الناصري - والفرع الثاني كان منه اسماعيل اخو اسحاق وهو داعية العرب الى دين ابراهيم ثم كان منه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجددا لشريعة ابراهيم

كان الدينان المنسوبان الى الانبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن واول من دان بها يوسف ذونواس

اتباعاً لدعوة حبرين يقال انهما أتيا مع تبع الحميري من يثرب وكانت ايضاً بيثرب وما جاورها من ارض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في الشمال . وكانت النصرانية بنجران في شمالي صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين . الا ان المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدي ابن حاتم الطائي وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؛ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لأن اليهودي يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

اما سائر العرب فكانت بعد اسمعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافا يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في اجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم او الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فاخذ من هذه التماثيل شيئا وأقامها على

الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب الى تعظيمها فاجابوه وخطرت لهم حينئذٍ فكرة تمثيل العظماء وذوي الأثر الصالح فيهم أو تمثيل القوى التي يألفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا اليها ومما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي في وصف وُدّ وهو صنم عُذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة قال كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذُبر عليهِ حلتان متزر بحلة مرتد باخرى عليهِ سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل — فهذا يشبه ان يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب — وكان لهذيل صنم اسمهُ سُواع في رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليهِ من مضر٠ وله سَدَنة من بني لحيان — وكان لمذحج وأهل جرش يغوث. واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن — واتخذت حمير نَسراً وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمهُ رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر ان هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأن نوحاً كان ينهي قومهُ عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد في الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لا تذرنَ آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعًا ويغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة وكان منصوباً على البحر بناحية المُشَلَّل بقُديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمهُ وتذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر انها لم تكن تمثالاً

وانما كانت أثراً من مكان معظم وكانت سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزّى وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الاصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني سليم

ومنها ذو الخلصة وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدي له خثعم ودَوْس وبجيلة

وكان على الكعبة اصنام أعظمها هبَل وكان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى أدركتهُ قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكان أول من نصبهُ خزيمة بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد انها آلهة وانما لتقربهم الى الله سبحانه كما قال في الكتاب (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وكانوا اذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون انه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح الى هذه الاوثان والاصنام التى يدعونها النُّصب والأنصاب لانها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النُّصُب مفرداً فقال في كلمتهِ التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذا النُّصُب المنصوبَ لا تنسكنهُ لعافية والله ربك فاعبدا

ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني اسرائيل ما يشبه هذه الطرق

وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فالبحيرة

الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الأ ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم

والسائبة التي ينذر الرجل ان يسيبها اذا برئ من مرضه أو ان اصاب أمرا يطلبهُ فاذا كان ذلك اساب جملاً من ابله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد آمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهتهِ الاناث منها ولنفسهِ الذكور فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد وصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهنَّ ذكر حمى ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلي في ابله يضرب فيها لا ينتفع منهُ بغير ذلك – هذا تفسير ابن هشام وقد خالفهُ بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر انه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الاربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند اصنامهم بالازلام والزّلم القِدْح الذي لا ريش عليهِ والازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل ولا تفعل وقد زُلِّمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت فاذا اراد رجل سفراً او نكاحا أتى السادن فقال أخرج لي زلماً فيخرجهُ وينظر اليهِ فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليهِ وان خرج قدح النهي قعد عما اراده وربما كان مع الرجل زَلمان وضعهما في قرابه فاذا أراد

الاستقسام اخرج احدهما ومعنى الاستقسام بهـا ان يطلب الانسان ما قسم له من جهتهـا وكان في الكعبة صنم يمثل ابراهيم وإسميل وبايديهما الازلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الاصنام والاوثان فانهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق اجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون انها أثر ابيهم اسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أوتوه من شرف القيام بامرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الاكبر وسدنته والقوام بامره هم حفاظ الدين وهـذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي امراً من الأمور الدينية بمكة

وقد كانت قريش ارادت ان تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منهـا وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منهـا ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم اياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك وسموا انفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لا ينبغي للحمس ان يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا ان استظلوا الا في بيوت من الأدَم ما كانوا حرما .

ثم قالوا لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل الى الحرم اذا جاؤا حجاجاً او عماراً ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة فان تكرم منهم متكرم من رجل او امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا احد غيره ابدا وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك بطريق الاشارة فقال عن الاول (ثم افيضوا من حيث افاض الناس) وقال عن الثاني (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعبادة والطيبات من الرزق)



المحاضرة السابعة

النسيء . الموحدون من العرب — المولد النبوي — الحال قبل النبوة

كان تحريم الاشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيء

والنسيء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أي أخرت وأجلت ورجل ناسئ من قوم نَسَأَة قال في لسان العرب وذلك ان العرب كانوا اذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول انا الذي لا اعاب ولا أُخاب ولا يرد لي قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون ان يتوالى عليهم

ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم فذلك الانساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه ابو علي القالي في اماليه فسمى الناسئ نُعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارته فاذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً وروى قول الشاعر

وكنا الناسئين على معد   شهورهم الحرام الى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيهِ أنزل الله تعالى (انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب فاحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد الى ان كان آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليهِ فحرم الأشهر الحرم الاربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا اراد ان يحل منها شيئاً أحل المحرم فاحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة الاشهر الحرم فاذا ارادوا الصدر قام فيهم فقال اللهمَّ اني قد أحللت لهم احد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جِذل الطِّعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب

لقد علمت معد ان قومي كرام الناس ان لهم كراما
فاي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الاسلام الأ ان بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفي سنة ٢٧٢ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي يستعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فانهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية ان التقويم يعتبر بالهلال ومعنى كونها شمسية انها بالكبس أو هذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربي الاّ في فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التي لا ارتباط لها بدورات القمر وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين وفي صدرهم محمد بن أحمد البيروني المتوفي بعد سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودي الذي قال في مروج الذهب وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (انما النسيء زيادة في الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ومنهم من اختار التفسير الثاني وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود باشا الشهير بالفلكي في رسالة له سماها نتائج الافهام في تقويم العرب قبل الاسلام أبان فيها ان العرب

قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها الاّ السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم الاّ بالتفسير الاول وأظهر ان الخطأ في ذلك وقع فيه لأول مرة أبو معشر[1] وتبعه البيروني[2] ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقي مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسره به

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله — والنسيء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسيّ وتلاعب بما كانوا يعتقدونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب الى احلال بعضها ارادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاماً ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم أما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو ان يكون نظاماً ثابتا انتهجوه في تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاماً والتحريم عاماً لمواطأة عدة ما حرم الله وانما هو نظام ثابت لا يكون مجالاً لتلاعب النسأة بدينهم

ومن الغريب ان المسعودي نفسه وهو الذي زعم ان العرب كانت

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي توفي سنة ٢٧٢

(٢) هو ابو الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي المتوفي بعد سنة ٣٣٠

تكبس قال في تفسير الربيعين انما سميا بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون كما قال لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لان الشهور العربيـة ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية فالحق ان النسيء عند العرب كان عملا يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعا للاهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب في جاهليتهم الاّ انه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم وان طرقهم التي هم عليهـا لا توصلهم الى الله ويقولون في أنفسهم ما معنى التوصل الى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدي من أسد بن عبد العزى ابن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي من عدى بن كعب وعثمان بن الحويرث الأسدي من أسد بن عبد العزى والرابع عبيد الله بن جحش الأسدي من أسد بن خزيمة وأُمهُ أميمة بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لاحد أصنامهم فقالوا تعلمن والله ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم

فاما ورقة فاستحكم في النصرانيـة واتبع الكتب من أهلها حتى علم

علماً من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما اصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري ثم يقول اللهمَّ لو اني أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ولكني لا أعلمهٔ ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليهِ وسلم انه يبعث امة وحده

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فاسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعهٔ امرأته ام حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فاما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً

وكانت لا تزال كهان العرب وذوو الاسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد ان أخبارهم هذه انما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم اذا اشتبكوا في حرب وقد روي ذلك عن بعض الأنصار

من هذا يفهم انه كان قبل مجيء الاسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد الى شيء ما من التغير في عبادة الأوثان ولا الى شيء من اصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الأنفس شيئاً من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليهِ وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله اولاد أشراف عظماء منهم أبو طالب وعبدالله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبد المطلب ذو السن من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبدالله آمنة بنت وهب زوجة وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبدالله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً الى الشام فلما وصل المدينة وبها اخواله من بني النجار أدركتهُ منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليهِ وسلم وانما كان بنو النجار اخواله لأن منهم ام أبيهِ عبد المطلب

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى انو شروان ويوافق العشرين من ابريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة ولما ولدته أمه ارسلت الى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه

من كتب تاريخهم ودواوين انسابهم الا اسم واحد لأحد اشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون ان اختيار هذه التسمية انما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور اذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب . وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب ان يلتمسوا المراضع لاولادهم في البادية لأمرين (الأول) انهم يبتعدون في البوادي عن امراض الحواضر التي كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى اجسامهم وتشتد اعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) انهم يتلقون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم اجهر صوتاً واسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بني سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت ابي ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من قومها فاقام مسترضعا فيهم قريبا من اربع سنوات ثم ردته الى أمه بعد ذلك فاقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفي زوجها عبد الله بالمدينة ان تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة اذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس

عليه احد من بنيه اجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم دعوا ابني هذا فوالله ان له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع

ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصى به قبل وفاته الى ابي طالب عمه شقيق أبيه فان ابا طالب والزبير وعبد الله اولاد عبد المطلب كانت أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره حسب رواية ابن هشام او ثلاث عشرة خرج ابو طالب الى الشام تاجرا واخرجه معه حتى وصلا بُصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما نقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع ابي طالب به حينما رأى معه ابن اخيه واشار عليه ان يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره ان له شأنا فرجع به ابو طالب الى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيرا عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر اساقفة الشام و بصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة و بين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانه فيهم سنا وشرفا وكان رئيس بني عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله وكان ينبل فيها على عمومته اي يجهز لهم

النبل للرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جُدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لي به حمر النعم ولو دعيت به في الأسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بني أسد بن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهوراً في قومه بالامانة حتى كانوا يسمونه الأمين فعرضت عليه ان يسافر الى الشام بمالها وارسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا الى مكة ويروي ابن جرير الطبري عن ابن شهاب الزهري ان هذه الرحلة التي ذهب فيها بتجارة خديجة انما كانت الى سوق حباشة باليمن لا الى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين ان يتزوجها فرضي وكانت سنها اربعين سنة فخطبها عمه الى عمها وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة اقامت معه منها خمسا وعشرين وهى أم أولاده جميعاً ما عدا ابراهيم الذي ولد له بالمدينة فانه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من افضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلا ولها في تاريخ الاسلام اجمل ذكر واصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنـة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فانها كانت رضيمة فوق القامة فارادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا انه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا الى أساس اسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذي تولى البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن اتمامهـا على قواعد اسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع وصعدوا بها في الجو حتى اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتدّ النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبدالله فطلب رداء ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء ان يمسك كل رئيس بطرف منهُ وأمرهم ان يرفعوه حتى اذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد اتمامهـا ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الاسود والمقابل له ١٠٫١٠م والحجر موضوع على ارتفاع ١٠٥٠ م من أرضية المطاف والضلع الذي فيهِ الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بهـا من الخارج قصبة من البناء في أسفلها متوسط ارتفاعها ٠٫٢٥ م ومتوسط عرضها ٠٫٣٠ م وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد لبيب بك

البتانوني فيما كتبهُ عن الكعبة في رحلتهِ الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات ان هذا الاسم محدث أما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج ابن يوسف

وللكعبة اربعة أركان الشمالي واسمهُ الركن العراقي والغربي واسمه الشامي والجنوبي واسمه اليماني والشرقي واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠،٣٠ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي البيت ويبعدان عنها ٢،٣٥ م ويبلغ ارتفاعه مترًا وسمكه ١،٥٠ م ومسافته ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ٤٤،١٠ م وهذا الفضاء يسمونه حجر اسماعيل وقد كان يدخل منهُ ثلاثة أمتار تقريبا في بناء ابراهيم ويقال ان اسماعيل وهاجر امه مدفونان في الحجر

السيرة الادبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين ان سيدنا محمد بن عبد الله كان في قومه ممتازا باخلاق جميلة منها صدق الحديث والامانة حتى سموه الامين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للاوثان عيداً ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لان أباه لم يترك له من الثروة الاَّ شيئًا قليلاً وكان عمله حين شب التجارة ولما تزوج خديجة

كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها أحيانا . ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا هنا من ذكر مسئلة وضعها الاصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الائمة منهم ان هذه المسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص اصول الفقه

فقال جمهور منهم انه لم يكن مكلفا باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بانه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنهُ لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الائمة كالغزالي وشيخه امام الحرمين والآمدي لانهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة

وقال بعضهم انه كان متعبداً بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة اختلفوا في تعيينها فمن قائل انها شريعة آدم أو نوح أو ابراهيم أو موسى او عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على ان أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوي يعضدهم وانما هي مجرد أفكار

واختار الكمال ابن الهمام من الاصوليين مذهباً مبهماً وهو انه متعبد بما ثبت انه شرع اذ ذاك الا ان تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالاخير فان لم يعلم الاخير فهو متعبد بما يركن اليهِ منهما واستدل على ذلك بان التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموماً وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال ان

هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصهِ بالبحث أمر اتفاقي والذي نراه ان الفيصل في مثل هذه المسألة انما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لان مثل هذا الرأي يلزمهُ ان الانسان مطلوب منهُ ان يتطلب جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد الله بما يثبت انه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع انه عليهِ السلام فعله حتى كنا نقول انه أدى ما كلف بهِ والتاريخ يثبت انه قبل نبوتهِ رفض الأوثان وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الاخلاق التي في مقدمتها الصدق والامانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك الى عرفة وعبادته فيهِ لم تكن الا فكراً في خالق الكون الاعظم وكان يتعبد فيهِ عبد المطلب وقال المؤرخون انه أول من تعبد فيهِ

ولم يعلم عنهُ انهُ كان يراعي الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقتهُ ولم يكن قبل نبوته وصل الى الحقيقة في أمر الخالق جلَّ ذكره والى ذلك الاشارة في الكتاب (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) وقال في سورة الضحى مما امتن بهِ عليه (ووجدك ضالاً فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة



المحاضرة الثامنة

البعثة — الوحي — الدعوة السرية — الجهر بالدعوة
ما كان من قريش — هجرة الحبشة

البعثة

الذين يختارهم الله لاصلاح الأمم يلقي اليهم ما يريد ان يبلغوه عنهُ بالوحي

والوحي في لغة العرب اعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة ان هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبني عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن وفي لسان العرب لغير أعلام الله لانبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف في صغره (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الالهام الذي ربما شعر به كثير من الناس

اما اعلام الله انبياءه المختارين فان العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الانسان هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الانبياء أنفسهم فيما نزل على السنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك الى العقل الانساني . هذا الاعلام له مراتب

الأولى ان يخاطب في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب الى ابرام في الرؤيا قائلاً الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان ابراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانيـة ان يلقى ما يراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمى بالالهام والالقاء في الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكا على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فانه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقـد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة ان يرسل الله اليه رسولاً يخبره بما يريد اعلامـه اياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (انه لقول رسول كريم ذي قوة عنـد ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين) ويظهر هذا الملاك للانبياء في التوراة كثيراً

المرتبة الرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليـه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً فقـال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما

أتاها نودي يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وانا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هي المراتب التي عرف ان الوحي يبلغ قلوب الانبياء عليها ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيء من جنسها لمن فنى فكرهم في أمر او حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وانما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب الى الانفس ما لا تحس بهِ وليس في مكنتها ان تدرك حقيقته . اذا كان الفناء في مسألة او حادثة يجعل الانسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الاله . انا لا استغرب ما قرأته في بعض الكتب ان صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به لأني اعلم ان الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضي لشأنه حتى اذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه الى أمر جسمها أحست بالألم . كل هذا يفهمنا ما يكون من الانبياء عند الوحي من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون باحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي فقال احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي رجلاً فأعي ما يقول

ومما روى انه كان يكابد من التنزيل شدة حتى انه كان يوحى اليه

في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً تكلم فيه على الوحي والرؤى ولكن قلما يظفر الانسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبدالله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح كما رواه البخاري من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده فيكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد ان أشار اليه الكتاب اشارة ظاهرة لا تخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله[1] علما لاول يوم نزل

(١) جرت العادة في التعبير ان يجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع مع انه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه اهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة ولتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحداً بالشخص وانما هو واحد بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية يبين انه لا يصح ان يراد منها غير هذا لأن الذي فرق الله به بين الحق والباطل انما هو اختيار الله محمداً لان يبلغ عنه الى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين في موقعة

فيهِ القرآن . وليلة نزول القرآن هي التي قال فيهـا الكتاب (انا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمرٍ حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لأنهُ هو الشهر الذي كان يتعبد فيهِ الرسول بغار حراء ونزل عليـهِ القرآن فيهِ لاول مرة (شهر رمضان الذي انزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايتهُ عيداً تذكارًا لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر كل ذلك اذا تنبه اليهِ الانسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقى الى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما اخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيهِ كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال قلت ما اقرأ . قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال قلت ماذا اقرأ . قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقـال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما اقول ذلك الاَّ افتداءً منهُ ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقال

(اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت

مما يرتقي الى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيـهِ العالم الفاضل محمود باشا الفلكي من الخطأ حيث جعل الرسالة في ربيع الاول الذي يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذي أوقعه في الخطأ ما فى بعض الروايات من انه عليه السلام بعث على رأس الاربعين

في قلبي كتاباً فخرجت حتى اذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبريل قال فرفعت رأسي الى السماء انظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبريل قال فوقفت انظر اليه فما اتقدم امامي وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وانا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة حتى جلست الى فخذها مضيفا اليها فقالت يا ابا القاسم اين كنت لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت[1] عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل فاخبرته بما اخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت فرجعت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنّه ولتؤذينّه ولتخرجنّه ولتقاتلنّه ولئن انا ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف

(١) هذه رواية ابن هشام

الله صلى الله عليه وسلم الى منزله

لم يبقَ بعد تيقنهِ عليه السلام مما كلف بهِ الاَّ أن يحمل اعباءه التي لا يحتملها الاَّ أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقهِ

ومما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة انهُ ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدَنة الكعبة والقوام على الأوثان والاصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج الى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك ان تكون الدعوة الى هذا الدين في بدء أمرها سرية لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم — ولنسمِ هذه الدعوة دعوة الأفراد — فكان يدعو كل من توسم فيهِ خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه يعرفهم بحب الحق ويعرفونهُ بتحري الصدق فأجابهُ من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الاسلامي بالسابقين الأولين وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي وكان قد أسر ورق فملكتهُ خديجة ووهبتهُ لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلي بن ابي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن ابي طالب لما كثر ولده وابو بكر بن ابي قحافة عثمان التيمي وكان ابو بكر محبوباً في قومهِ وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا ابو بكر بعد ايمانهِ نفراً ممن كان يألفهم ويألفونهُ فاجابهُ عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص الزهريان وطلحة

ابن عبيد الله التيمي ثم تلاهم ابو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث ابن فهر وابو سلمة عبد الله بن عبد الأسد والأرقم بن ابي الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم واولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش . وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم الى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن ابي الأرقم المخزومى بمكة لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وهذه الدار لا تزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين اجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر ان يجهر بالدعوة الى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فاعلن لقومه الدعوة الى الله وتوحيده فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليهِ حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها او جعلها بينهُ وبين الله الى الضلال وجر ذلك الى تضليل آبائهم فانهم كانوا يحتجون عليهِ دائما بانهم يتبعون ما وجدوا عليهِ آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية الى تهجين ما كان عليهِ آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منهُ وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من ان تكون له حماية تمنع عنهُ ما عسى ان يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم وكان عمه ابو طالب سيد بيته وله الحق بحسب الأصول العربية ان يجير فان فعل كان المتعدي على من يجيره ويحميهِ كأنه اعتدى على البيت بأسره وبيت عبد مناف كان

أشرف بيوت قريش على الاطلاق فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليهِ من الوحي

لما رأت قريش انهُ صار في منعة بجوار أبي طالب مشي رجال من أشراف قريش اليهِ يطلبون منهُ ان يكف ابن اخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه احلامهم وتضليل آبائهم او يخلي بينهم وبينهُ فردهم ابو طالب ردًّا جميلاً فانصرفوا عنهُ . ولما رأوا ان هذه الوفادة لم تفدهم شيئًا تذامروا وحضَّ بعضهم بعضاً عليهِ ثم مشوا الى ابي طالب مرة ثانية قائلين انهم لا يصبرون على هذه الحال وخيروه بين ان يكفهُ عما يقول او ينازلونه واياه فعظم على ابي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان ابن اخيه ولكنهُ قال له يا ابن أخي ان قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا فأبقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا اطيق فظن الرسول ان عمه خاذله ومسلمهُ وانهُ ضعف عن نصرته والقيام معهُ فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او اهلك دونهُ ما تركتهُ ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه ابو طالب فقال اقبل يا ابن اخي فلما اقبل عليه قال لهُ اذهب فقل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيءٍ ابداً

فلما رأت قريش ان أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيهِ مشوا اليهِ بعمارة ابن الوليد وقالوا له ان هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومهِ وسفه أحلامهم فنقتله فانما

هو رجل برجل فقال لهم ابو طالب لبئس ما تسوموني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونهُ . ولما رأى ابو طالب تألب قريش عليهِ قام في أهل بيتهِ بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف (وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبد شمس ونوفل) ودعاهم الى ما هو عليهِ من منع ابن اخيهِ والقيام دونهُ فأجابوه الى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي الاَّ ما كان من أخيهِ أبي لهب فانهُ فارقهم وكان مع قريش ولا أدري أفضل حميتهِ لدينهِ على حميتهِ لشرف أخيه أم كانت هنالك اسباب أخرى أدت الى هذا الانفصال ولا أظن ان كونه من أم أخرى غير أم أبي طالب يدعوه الى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الاخوة لان العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ولا يبعد عندي ان زواجهُ بأم جميل بنت حرب دعاه الى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد اعداء رسول الله حتى انها كانت تذيع عنهُ الأكاذيب في مجامع النساء فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة في قلوبهن ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنهُ هو الذي يؤجج النيران ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة فرأت قريش انهُ لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوتهِ أثر في أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لأنهم اذا اختلفوا وكذّب بعضهم بعضاً فان ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب فقال واحد منهم تقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو

ذو السن فيهم ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . فقال آخر تقول مجنون فقال الوليد ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . فقال آخر تقول هو شاعر فقال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رَجزه وهزَجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . فقال آخر تقول ساحر قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول انت قال والله ان لقوله لحلاوة وان اصله لعذق وان فرعهُ لجناة[1] ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الاّ عرف انهُ باطل وان اقرب القول فيهِ لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيهِ وبين المرء وأخيهِ وبين المرء وزوجهِ وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احد الاّ حذروه اياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها

ولما خشي ابو طالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومهِ قال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف اهل بيته من بني عبد شمس ونوفل وهو على ذلك يخبرهم انه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً وفيها يقول

كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن الاَّ أمركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمهُ حتى نصرّع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

(١) العذق القنو من النخلة والعنقود من العنب والجناة كل ما يجتنى

وفيها يقول

فوالله لولا ان أجيء بسبة   تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حالة   من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب   لدينا ولا يعني بقول الأباطل

لما رأت قريش انهم لم ينالوا من ابي طالب ما أرادوا عمدوا الى الفتنة [١] . فمن جهة الرسول أغرَوا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضادّ اصلاحاً فكذبوه وآذَوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون وهو مظهر لأمر الله لا يستخفي منه مُباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع سفاؤهم معهُ

وأما من جهة من اتبعهُ فان كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالاسلام أنواعاً من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع باصحابه وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب قال لهم لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكا لا يظلم احد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيهِ ففروا الى الله بدينهم وهذه كانت اول هجرة في الاسلام وكان المهاجرون اولا عشرة رجال وأربع نسوة ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج

---

(١) يقال فتنت الفضة والذهب اذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

معهم من اولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا الى الحبشة اكرم النجاشي مثواهم وأعلنوا هنالك عبادتهم لا يخشون شرا فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد فاختاروا رجلين منهم ليذهبا الى النجاشي ويطلبا منه ردهم الى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا الى بلاد الحبشة واتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قالا له أيها الملك قد ضوى الى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفهُ نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر ان هذين الرسولين لم يكونا مخاصين لقومهم في هذه الرسالة فان السيدة أُم سلمة احدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء ابغض الى عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشي . فلما أديا الرسالة قال النجاشي لاها الله اذا لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في امرهم فان كان كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهم واحسنت جوارهم ما جاوروني ثم ارسل الى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين احد من هذه الملل فكلمهُ جعفر بن ابي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الاسلامية وما امر به الرسول من ترك عبادة الاوثان والرجوع الى الله وما

وصاهم به من مكارم الاخلاق ثم قال ان قومنا بغوا علينا وارادوا فتنتنا عن ديننا نخرجنا الى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك ايها الملك فطلب منهُ النجاشي ان يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ لهُ صدراً من سورة مريم وفيهِ حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فلا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون . فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينهُ غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال لهُ عبدالله لا تفعل فان لهم ارحاماً وان كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنهُ انهم يزعمون ان عيسى ابن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال ايها الملك انهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فسلهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي بيده الى الارض فاخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يبال بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فانتم شيوم ومعنى هذه الكلمة بالحبشية آمنون ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم الى مكة قبل الهجرة الى المدينة وبعضهم اقام بالحبشة الى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد اسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل ان يسلم من اعظم المعارضين للاسلام والمنتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت والله إنا لنترحل الى أرض الحبشة اذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه قالت وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال انه الانطلاق يا أم عبد الله قالت فقلت نعم والله لنخرجنّ في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم اكن اراها ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا قالت فجاء عامر (تعني زوجها) فقلت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا قال أطمعت في اسلامه فقلت نعم قال فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الاسلام



المحاضرة التاسعة

مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب — هجرة الطائف — العرض على قبائل العرب واجابة الانصار — البيعة — الهجرة

رأت قريش ان حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب مسلمهم وكافرهم والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة أخرى وهي مقاطعة بني هاشم والمطلب فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على انفسهم بذلك فانحازت بنو هاشم والمطلب الى ابى طالب فدخلوا معه في شعبه

فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش فظاهرهم

أقام ابو طالب في الشعب اكثر من سنتين وهو ومن معهُ يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلاً ونهاراً سرّاً وإعلاناً منادياً بامر الله لا يتقي فيهِ أحداً من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبني المطلب وأعظمهم في ذلك أثراً كان هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي وكان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه وكان ذا شرف في قومه فمشى الى زهير بن أبي أمية من بني مخزوم وقال له يا زهير أقد رضيت ان تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم أما اني أحلف بالله ان لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليهِ أبداً قال ويحك يا هشام انما أنا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها قال قد وجدت رجلاً قال من هو قال أنا قال زهير ابغنا رجلاً ثالثا فذهب الى مُطعم بن عَدِي وهو سيد بيت نوفل بن عبد مَناف فقال له يا مطعم أقد رضيت ان يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن امكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فانما أنا رجل واحد قال قد وجدت ثانيا قال من هو قال أنا قال ابغنا ثالثا قال قد فعلت قال من هو قال زهير بن أبي أمية قال ابغنا رابعاً فذهب الى أبي البَخْتَرِيّ بن هشام فقال له نحواً مما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليهِ فقال ابغنا خامسا فذهب الى زمعة بن الأسود من بني أسد

ابن عبد العزى فكلمهُ وذكر له قرابة بني هاشم والمطلب وحقهم فقال وهل على هذا الأمر الذي تدعوني اليهِ من أحد قال نعم وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها وقال زهير أنا أبدؤكم . فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليهِ حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعة أنت اكذب ما رضينا كتابتها حيث كتبت قال أبو البختري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر بهِ قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها وقال هشام ابن عمرو نحواً من ذلك فقال أبو جهل هذا أمر قضي بليل تُشُوّر فيهِ بغير هذا المكان وابو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد اكلتها الاَّ باسمك اللهمَّ

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم في ازدياد من قريش ومن غيرهم ولا يتمكن اعداء الرسول من الاعتداء عليهِ حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه ابي طالب وزوجه خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين في شهر شوال وكانت خديجة له وزير صدق على الاسلام يشكو اليها وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومهِ وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي

طالب حتى اعترضهُ سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسهِ ترابا

رأى الرسول انهُ لا بد له من عضد يوازره ويدفع عنهُ أذى قومه حتى يؤدي رسالة ربهِ فذهب الى الطائف وبها بطون ثقيف وعمد الى أشرافهم وذوي الرئاسة منهم وهم اخوة ثلاثة عبد يا ليل ومسعود وحبيب ابناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الاسلام والقيام معهُ على من خالفهُ من قومهِ فرد عليهِ ثلاثتهم ردًا قبيحاً فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا بهِ سفهاءهم وعبيدهم يسبونهُ ويصيحون بهِ حتى اجتمع عليهِ الناس وألجؤه الى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنهُ من سفهاء ثقيف من كان يتبعهُ . ولما قدم مكة أرسل الى المطعم بن عدي يخبره انهُ يدخل مكة في جواره فاجابهُ الى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيتـه حتى أتوا المسجد ثم بعث الى رسول الله ان ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنـده ثم انصرف الى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفي

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبي مهلّ وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعيًا من أقبل الى مكة من سائر العرب ويقرأ عليهم القرآن ويطلب منهم ان يقوموا دونهُ حتى يؤدي رسالة ربهِ فكانوا لا يجيبونهُ الى ذلك ومنهم من يرد عليـهِ ردًا قبيحا . عرض ذلك على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت ان نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعهُ حيث يشاء فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك وعرض ذلك على

بني حنيفة من ربيعة فلم يكن احد أقبح ردًّا منهم

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقـدة في يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً فتذكر الأوس انهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بني عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع واياس بن معاذ فلما علم الرسول بقدومهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم في خير مما جئتم له فقالوا له وما ذاك قال انا رسول الله بعثني الى العباد أدعوهم الى ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل عليّ الكتاب ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال أياس بن معاذ وكان غلاما حدثا أي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ ابو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه أياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هـذا فسكت أياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا الى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد ان حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بُعاث وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصرا مؤزرا بعد ان انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعـد هذه الحرب أقبل الى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم الى الاسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة من يهودها عن بعثـة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم فقال بعضهم لبعض انه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه فاجابوه الى ما دعاهم بان صدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الأسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا

قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر وفى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلا فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء وانما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقنَ ولا يزنينَ ولا يقتلن أولادهنَّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهنَّ وأرجلهنَّ ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهنَّ الله ان الله غفور رحيم)

وبعد ان تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي وأمره ان يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم ان يؤمه بعض وكان اسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب في الاسلام فأسلم أُسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب الى قومه

في ناديهم فقال يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال فان كلام نسائكم ورجالكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قالوا فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة الا مسلما او مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليهِ مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة الى الإسلام حتى لم تبق فيها دار الأ وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات الأ بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صيفي بن الأسلت المكنى بأبي قيس وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منهُ ويطيعونه . فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير وخرج من المسلمين عدد كبير ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك وأرسل المسلمون الى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط ايام التشريق . فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين هما نَسَيْبة بنت كعب من بني مازن بن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بني سلمة من الخزرج واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعهُ العباس بن عبد المطلب عمه وهو يومئذ على دين قومهِ إلاّ انه احب ان يحضر امر ابن أخيهِ ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال يا معشر الخزرج ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيهِ فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أَبى الاَّ الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما

دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عزّ ومنعة من قومهِ وبلده فقال المتكلم من الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله نخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليهِ السلام فتلا عليهم القرآن ودعا الى الله ورغب فيهِ ثم قال آبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منهُ نساءكم وابناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منهُ ازرنا فبايعنا يا رسول الله فانا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال ابو الهيثم بن التيهان يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعني يهود المدينة) فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا. قال فتبسم الرسول ثم قال بل الدَّم الدم والهدم الهدم يعني أنا منكم وأنتم مني أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم . ثم قال لهم اخرجوا لي منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فقال لهم أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي وها هي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة « « عمرو بن امرئ القيس « «

(٤) رافع بن مالك « « زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور « « سلمة بن سعد « «

(٦) عبد الله بن عمرو من بني سلمة بن سعد من الخزرج
(٧) عبادة بن الصامت « « غنم بن سالم « «
(٨) سعد بن عبادة « « ساعدة « «
(٩) المنذر بن عمرو « « « « «
(١٠) أسعد بن حضير « « عبد الأشهل من الأوس
(١١) سعد بن خيثمة « « كعب بن حارثة « «
(١٢) ابو الهيثم بن التيهان « « عبد الأشهل « «

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون ان أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الأشهل يقولون انه أبو الهيثم بن التيهان والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم . بعد ان انتهت المبايعة أمرهم رسول الله ان يعودوا الى رحالهم فذهبوا الى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء رؤساؤهم الى منازل الأنصار وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله ما من حي من العرب أبغض الينا ان تنشب الحرب بيننا و بينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذ شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي بن سلول وهو سيد من ساداتهم لم يسلم فقال لهم ان هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثل هذا وما علمتهُ فانصرفوا عنهُ

نفر الناس من منى وتحسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد ان فاتهم الأنصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق بأخوانهم من الأنصار وقال لهم ان الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخوانًا وداراً تأمنون بها فخرجوا ارسالا رجالا ونساء الاَّ من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش ان رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين اليهم عرفوا انهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج الرسول اليهم وعرفوا انهُ قد أجمع لحربهم فلم يبق الاَّ أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم . فقال قائل منهم الرأي ان نحبسهُ في الحديد ونغلق عليه باباً ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبهُ ما أصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأي ائن حبستموه ليخرجنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نخرجهُ من بين أظهرنا فننفيهِ من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع اذا غاب عنا فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقهِ وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به لو فعلتم ذلك ما أمنتم ان يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليهِ ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . فقال أبو جهل بن هشام ان لي لرأيا فيه ما

أرا كم وقعتم عليهِ هو ان نختار من كل قبيلة شاباً فتى جلداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونهُ فنستريح منهُ فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمهُ في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منـا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولا عنـد جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليهِ السلام بهذا الخبر وبما أجمع عليهِ اعداؤه فتوجه الى صديقه ابي بكر وأخبره ان الله قد أذن له بالهجرة فسألهُ ابو بكر الصحبة فاجابهُ اليها ثم هيأا ما يلزم لهذا السفر راحلتين ودليلا خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا ان يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن ابي طالب ان ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب احد في وجوده ببيته وأمره بان يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعهُ عنده

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج الى بيت ابي بكر وخرجا معاً من خوخة لأبي بكر في ظهر بيتهِ ثم عمدا الى غار بجبل ثور وهو جبل باسفل مكة فدخلاه وكان عبدالله بن ابي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة ان يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما اذا أمسى في الغار ليعفي أثر عبدالله بن ابي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيـان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم واذا بهم باتوا

يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبدالله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً او ميتاً مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يميناً وشمالا ولكنها عادت بالخيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما ان قد سكن الطلب فجاءهم الدليل حسبما اتفقا معه بالراحلتين فركباها وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد ان أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذي العصوين ثم بطن ذي كشد ثم أخذبهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج الى ثنية العائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

والى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين اولهما في التشريعات المكية والثاني في آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكي

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة الى ان هاجر الى المدينة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر و ٢١ يوما اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول الى قباء أُنزل عليهِ في اثنائها معظم القرآن والذي نزل منهُ بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي وهو اثنتان وعشرون سورة نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر وما عدا ذلك فهو مكي

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبيّن روحه قوله تعالى في سورة الشورى (شرع لكم من الدين ما وصى بهِ نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا بهِ ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيهِ) ثم قال (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليهِ المصير)

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنهُ أبو اسحاق الشاطبي في الموافقات

بالتشريع الكلي وانما سماه كذلك لأنهُ لم يتعرض فيهِ الى تشريع احكام جزئية خاصة بحال دون حال او نوع دون نوع وكله من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين ديناً ومن مصلحة العالم أجمع فيما مضى وفيما هو آت ان يكون متبعاً لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج (ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن انه انما جاء مصدقا لمن سبقهُ من الأنبياء وقال له الله عنهم في سورة الأنعام بعد ان قص عليه أسماءهم (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) الى غير ذلك

وأهم ماجاءت به الآيات المكية هو

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة

معلوم ان العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية الا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تبث التوحيد وتقيم عليه الأدلة وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحا وتلميحاً. ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما اصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم الأنبياء والرسل وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة لأن أشد ما يفعل في النفوس لأنباب التعاليم فيها انما هو التكرار مع تنوع الأساليب. وأكثر الأنبياء ذكرا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليهِ وما حاور بهِ فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف بهِ من عظيم الصفات مما

ما كان من شأنهُ مع قومهِ حينما كانت تحن أنفسهم الى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع في هـذا الشرك وايعادهم بالشر اذا هم عادوا اليهِ وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليهِ أبوهم ابراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليهِ الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون أني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) . ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك بالضرورة الى تحريم كل ما ذبح على النُّصُب أو جعل فيهِ شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليهِ اسم الله ليكون الانسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فأنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا ان يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليهِ ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك ان جميع الأفعال التي يشرع فيها الانسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات

ومن هنا ايضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأن الأمر كما علمتم يحتاج الى مقاومة شديدة فان النفس المتشبعة بالشيء الذي نهيت عنهُ لا يؤمن أن تعود اليهِ متى ظهر أمامها فأنها اذ ذلك تحن اليهِ وللحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق اذا أهمك ان تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فان رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليهِ النفس من اتباع الأوامر مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان اذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سجارة بيد غيره يدخن بها لا شك انهُ يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الألف القديم فيحتاج عند ذلك الى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ولا ينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الانساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها واعفاء أثرها

(٢) اثبات يوم آخر يجازى فيهِ كل امرئ بعمله ان خيراً فخير وان شراً فشر وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيرا محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكرارا عظيما يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على ان العدل سيجري مجراه بعد ان توزن اعمال الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خيره خسر اذ لا يمكن ان يعقل في الوجود الانساني من هو خير محض او من هو شر محض

والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها في الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منهُ

لم يجعل اليأس يتسرب الى النفس الانسانية بما اجترحتهُ من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولي عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه مهما دق (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع الى فعل الخير وأخبرهم ان الحسنة اذا تلت السيئة محتها والذي يفهم من القرآن ان الحسنات المؤثرة في محو السيئات انما هي العملية

(٣) بيّن لهم الخصال التي تقرب الى الله والتي تبعد منـهُ ومعظمها يرجع الى الأخلاق والملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفران ذلك لمن عزم الأمور)

ويقول في سورة الأعراف (خذ العفو وأمر بالعُرْف واعرض عن الجاهلين) ويقول في الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيهـا (قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلاَّ المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ان الله غفور شكور) وقال في سورة فُصِّلت (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينهُ عداوة كأنهُ ولي

حميم) جمع لهم في سورة الأسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فترونه يتلي كل وصيـة بفائدتها اقرؤا ان شئتم من قول الكتاب وقضى ربك ان لا تعبدوا إلاَّ إياه الى قوله ذلك مما أوحي اليك ربك من الحكمة . وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم ان لايتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً الى آخر السورة واستقصاء ذلك يستدعي وقتاً طويلاً وانما نحن نشير الى ذلك ونطلب منكم مراجعته ولا تجعلوا بينكم وبينهُ سداً من الأوهام حتى تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونهُ فانهُ لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزله الله عليهِ

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكيـة وقد علمهُ الوحي كيف يؤديها كما ورد في الأخبار الصحيحة والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة وتفصيلهـا انما كان عملياً لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وانما أخذ منهـا بطريق الاشارة وقد نقلت نقلاً عملياً متواتراً وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بانها تنهي عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون ممن يستحقون الويل (الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيهِ الصلاة فقال بعضهم انها فرضت ليلة الأسراء حينما عرج برسول الله الى الملأ الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الأسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا

الأسراء مصدر أسرى يقال أسرى بهِ أي جعله يسرى والسرى هو السير ليلاً ويراد بهِ في لسان المحدثين تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود والمعراج أداته يعني السلم المعد له ويراد بهِ صعود رسول الله الى الملأ الأعلى

الأسراء ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وان رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدقهُ بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذي سمي في ذلك اليوم بالصديق وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى ان بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الاسراء فروى عن معاوية بن أبي سفيان ان الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن عائشة ان الاسراء انما كان بروحه لأن جسمه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القولين واحدة لأن الاسراء بالروح ليس معناه ان الجسم قد مات اذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها وانما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم على شيء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن موطنها والرؤيا كما قدمنا نوع من الوحي للأنبياء ويستدل اصحاب هذا الرأي بقوله تعالى في السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا

فتنة للناس) وقد قال الحسن البصري راوي حديث الاسراء فانزل في ذلك قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا الخ

وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمهِ ويستدلون على رأيهم بان الأسراء لو كان رؤيا ما كان هنالك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لانه ما الذي يستبعد من اطلاع انسان على أقصى ما في الأرض في رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون الى رأي عائشة ومعاوية لا لأنهم يحيلون ان يقع للأنبياء أمر خارق للعادة بل لأنهم لا يتمسكون من هـذه الخوارق إلا بمـا شاهده رواته عياناً وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل اليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح بهِ الكتاب . قالوا ان إقدام عائشة ومعاوية على القول بان الأسراء كان رؤيا صادقة يدل على ان هذا القول لم يكن بدعاً في زمنهما لأنهُ لم ينقل الينا التاريخ ان أحداً قام في وجههما راداً عليهما رأيهما بل بالعكس رأينا ابن اسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن فانزل الله في ذلك وما جعلنا الرؤيا الخ . وعائشة زوج الرسول (وان لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة) وأدرى الناس بما كان من حوادثه التي اكرمـه الله بها فمن البعيد ان تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منهُ والمعروف عنها انها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد ان يظهر برأي يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجههِ الصحابة معارضين على حين انهم كانوا يردون عليهِ القول رداً شديداً في أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل

لما رجع هؤلاء المؤرخون الى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريهِ من آياتنا) والمتفق عليهِ ان المراد بعبده محمد صلى الله عليهِ وسلم واطلاع الله نبيه في نومه على ما يريد اطلاعه عليهِ لا يختلف شيئاً عن اطلاعه أياه في يقظتهِ لأن رؤيا الأنبياء حق وتنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم اضافة الأسراء الى عبده والروح اذا جلي لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبهِ اكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون اظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي لأن يجدوا فرصة لذلك ان يسمعوا منهُ عليهِ السلام أسرى بي الليلة الى بيت المقدس وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله وقد كان يقول بعضهم لبعض كما جاء في الكتاب (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيهِ لعلكم تغلبون)

قال ابن اسحاق بعد ان ذكر القولين والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيهِ ما عاين من أمر الله على أي حاليهِ نائماً أو يقظان كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت بهِ الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجتهُ كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق في شرح حوادثهِ لذلك قال بعض المحدثين انهُ حصل جملة مرات منها المرة التي كانت ليلة الأسراء

وأصحاب الأسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون

انهُ بجسمه وأكثر من فصّل أحاديث الأسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابهِ المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيهما نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي من يقول بالأسراء الجسمي

لما كان كثير من المحدثين يرون ان الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم ان يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل ان يوحى اليهِ ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن اسحاق بعد فشو الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنهُ سرد تاريخهِ قبل ان يذكر وفاة عمه أبي طالب . ويلزم من ذلك ان الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول ان الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمهُ الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذي تفعل بهِ . مما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة الاّ وبجانبهِ ايتاء الزكاة وطابت زكاة ما يخرج من الارض في سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده) الاّ ان هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

مما يلفت النظر الى الآيات المكية ان قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك ان الرسول صلى الله عليهِ وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة الى من يدفع عنهُ أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك

الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على ان الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومهِ الذين تمالؤا عليهِ ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم وها نحن اولاء نمثل امامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات (١) ولتعلمنَّ نبأه بعد حين) ((٢) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ((٣) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ((٤) أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزُّبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجميع ويولون الدبر) ((٥) ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب) ((٦) قل ربِّ اما تريني ما يوعدون ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين) ((٧) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا بهِ يستهزئون) ((٨) قل الحمد لله سيريكم آياتهِ فتعرفونها) ((٩) فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) ((١٠) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) ((١١) فأعرض عنهم وانتظر إنا منتظرون) ((١٢) فارتقب انهم مرتقبون) الى غير ذلك من هذه الآيات الشديدة الوقع وظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر يرغب بهِ استمالة عظمائهم لما كان عليهِ من الرأفة بهم وارادة الخير لهم وبكون من نتائجهِ ان صغيراً من المسلمين أعرض عنهُ فيجيئه الوحي مشتداً ومنها كما حصل في حادثة عبد الله ابن أم مكتوم

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

الأعمى فقد حدث ان الرسول قابل جمعاً من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم اليهِ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علمني مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنهُ طمعاً في أولئك العظماء فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكي أو يذكر فتنفعهُ الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنهُ تلهى) وهذه شدة أدبهُ الله بها كما قال أدبني ربي فأحسن تأديبي

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الأذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى في بحثهِ أردنا ان نقول كلمة فيـهِ غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم ان يأخذ بعضهُ بحُجَز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة . وبحثنا قاصر على الجهة التاريخيـة ولذلك نقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسيتبعهُ ما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم ونترك للفقهاء ما امتازوا بهِ من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا



المحاضرة الحادية عشرة

اسباب شرعية القتال — المواثيق والعهود — أسرى الحرب - الاسترقاق

لم شرع القتال

بيّن الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع الى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدي (الثاني) الدفاع عن الدعوة اذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينًا او بصد من أراد الدخول في الاسلام عنه أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأول — جاء في سورة الحج المكية وهو أول ما أنزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)

بيّنت هذه الآية ان القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق الا قولهم ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة الا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير

لآية الشورى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ثم بيّنت انهُ لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت اماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر — ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم الى ما يجب ان يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثاني — قوله في سورة البقرة المدنيـة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم — ولا تعتدوا — ان الله لا يحب المعتدين — واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم — والفتنة أشد من القتل — ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم — وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـة ويكون الدين لله — فان انتهوا فلا عدوان الاّ على الظالمين — الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليهِ بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين)

بيّنت هـذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم واخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي ان لا تكون فتنة ويكون الدين لله بان يكون الانسان حرّاً في دينه لا يدين بهِ إلاّ لله لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب ان الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة

والوجدان وذلك شر ما يكون من بني الانسان – نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت ان الله يبغض المعتدين وهم الذين يبدؤن غيرهم بالشرّ وبينت ان الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي ان يتجاوز به ما فعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليهِ بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث – قوله في سورة النساء المدنية (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا) بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (اولاً) سبيل الله وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسمى اليها الدين ان لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا الى الله طالبين منه الخلاص فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع – قال عن قوم مشركين لم يحبوا ان يقاتلوا قومهم ولا ان يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانباً (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) على شرط ان يكون ميلهم الى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا)

بيّنت هذه الآيات ان لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة

وترك القتال وألقى اليهم السلام

الموضع الخامس — قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنــة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة

الموضع السادس — قال في السورة السابقة (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انهُ هو السميع العليم وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية انهُ مأمور بالجنوح الى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وان لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون الى السلم يريدون بهِ الخداع

الموضع السابع — قال في سورة التوبة المدنية (وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين)

بيّنت هذه الآية سبباً لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود الى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدءوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قــد مالئوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد ان كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليهِ وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى

به تلك العهود فأمر المسلمون بقتالهم كما جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الأمر يبنها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ما ورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال وكله يعلن ان القتال لم يشرع الا دفاعا عن أنفسهم وتأمينا للدعوة من ان تقف الفتنة في طريقها وأعلن انه لم يجئ معتديا بنهيه عن الاعتداء وانه يجنح الى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الاخلال بها وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص

فمن العام قول الكتاب في أول سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود) وقوله في سورة الأسراء (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا) وقوله في سورة النحل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هي أربى من أمة)

وأما الخاصة

فنها قوله تعالى في سورة براءة بعد ان أعلن البراءة من المشركين (الاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) وقال في السورة نفسها بعد ذلك (الاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين) وهذا يدل على ان البراءة انما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم او ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الأنفال (وأما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) والخوف انما يكون بعد ظهور ما يدل عليهِ من اعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها انهُ لما حضهم في سورة النساء على وجوب ابعاد المنافقين الذين يشتغلون سرّاً ضدهم قال (إلاّ الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم

ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وانهـا تحمي الواصل اليها

ومنها انهُ جعل في سورة النساء قتل رجل خطأً من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبهُ قتل مسلم خطأً فقال (وان كان — المقتول خطأً — من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو الذي أوجبهُ في قتل مسلم خطأً (ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا ان يصدقوا) وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها انهُ قال عن مؤمنين بارض العدو لم يهاجروا منها (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلاَّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)

أسرى الحرب

بيّن الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال (حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) فجعل ما خير فيهِ أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما

وأنا ملزم الآن ان أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بايدي العرب حين جاء القرآن فقررهم على ما كان بايديهم فقد قال في سورة المؤمنين المكية (والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين) وقال مثل ذلك في سورة المعارج المكية أيضاً اي قبل ان يحصل من المسلمين اي حرب او قتال وقال في سورة النساء المدنية (فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) . ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وازالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى — انهُ جعله في سورة البلد المكية من أول الواجبات على الانسان اذا أراد ان يشكر الله على نعمه فقال ممتناً على الانسان (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة) فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانيـة — انهُ لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهماً من ثمانية يعني أن الإمام الذي يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب

الثالثة — انهُ جعل تحرير الرقاب في مقـدمة كفارات كثيرة عن جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ (ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة الآية) وقال في كفارة الظهار (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا) وقال في كفارة اليمين (فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم او كسوتهم

او تحرير رقبة) ذلك كله فضلاً عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز بهِ فقهاؤنا رحمهم الله لأن لذلك علماء هم أدرى بهِ منا ومركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا ان نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ تجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار الى المدينة تحفهُ الانصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي رانوناء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مرَّ على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلمَّ الينا يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة (لناقته) حتى اذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد ثم عادت الى مبركها الأول فبركت فيهِ ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وقال ههنا المنزل ان شاء الله فاخذ رحله ابو ايوب خالد بن زيد فوضعهُ في بيتهِ ثم سأل عن المربد التي بركت الناقة فيهِ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما

منه[1] فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ان يبني مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبي أيوب اليها

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبقَ بمكة منهم أحد الاَّ مفتون او محبوس. أما المدينة فعم أهلها الإسلام الاَّ قليلا منهم

ومن أول الأعمال التي عملها عليهِ السلام ان كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيهِ اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم وقد جاء فيهِ (وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) وفيهِ (وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الاَّ من ظلم فانه لا يوتغ الاَّ نفسهُ وأهل بيتهِ) وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه (وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنهُ لا تجار حرمة الاَّ باذن أهلها وانهُ ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه وانهُ لا تجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب واذا

---

(١) روى من طريق آخر انه قال يا بني النجار تأمنوني بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله ويروى انهُ ابى الا بالثمن والذي اخبرناه هو رواية ابن اسحاق وهي توافق رواية مسلم و بعض روايات صحيح البخاري

دعوا الى صلح يصالحونهُ ويلبسونهُ فانهم يصالحونهُ ويلبسونهُ

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بين المهاجري والأنصاري ويقول تآخوا في الله أخوين

وبعد ان تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة والتي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة الى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة — الأعمال الحربية — التشريع — الأخلاق التي ساس بها أمته



المحاضرة الثانية عشرة

وادن – بواط – العشيرة – بدر الكبرى – بني قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد ان بارحوا اوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً الى ان يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها الى الشام والتي يجلبونها منهُ فبعد ان أقام بالمدينة اثني عشر شهراً خرج في صفر من السنة الثانية الى ودَّان (١)

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها ام لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سَرِيّة وودَّان من ناحية الفرع بينها وبين الابواء ثمانية اميال قريبة من الجحفة التي هي على اربع مراحل من مكة وست من المدينة

وكان يريد قريشاً وبني ضمرة من كنانة فوادعتهُ بنو ضمرة ثم رجع ولم يلقَ كيداً . أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنيَّة[1] المسرة فلقي بها جمعا من قريش فلم يكن بين الفريقين قتال ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث في هذه المدة حمزة بن عبد المطلب الى سيف البحر من ناحية العيص[2] في ثلاثين راكباً فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجُهني وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بُواط[3]

ثم خرج رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع الى المدينة ولم يلق كيدا فاقام بها الى جمادى الأولى

العُشَيْرة[4]

في جمادي الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الثانية ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من

---

(١) ثنية في شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها الى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق تختصره العرب الى الشام (٤) وادٍ قريب من ينبع

بني ضمرة ثم عاد الى المدينة ولم يلقَ كيداً . وفي مقامهِ بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار[١] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلقَ كيداً

سفوان

أقام عليهِ السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم ان كرز ابن جابر الفهري اغار على سرح المدينة فخرج في طلبهِ حتى بلغ وادياً يقال له سفوان[٢] من ناحية بدر فلم يدركهُ فعاد الى المدينة واقام بها الى رمضان وفي مقامهِ هذا أرسل عبدالله بن جحش ومعهُ ثمانية رهط من المهاجرين بامر غير مفتوح وأمره ان يفتحهُ بعد ان يسير يومين ولما فتحه وجد فيهِ (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى اذا كان بنخلة مرت بهِ عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأتمر بها عبدالله هو ومن معهُ (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على اخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو. ابن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والاسيرين وقدموا بهما الى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام واخذوا فيهِ الأموال وأسروا الرجال

(١) واد بالقرب من مكة قريباً من قُدَيْد (٢) واد من ناحية بدر

ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيهِ قل قتال فيهِ كبير وصد عن سبيل الله وكفر بهِ والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) يعني ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منهُ وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له ان يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيهِ من الخوف قبض عليهِ السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد الى قريش بعد ان دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعهُ ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت الى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول فندب اليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها فانتدب النـاس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون ان الرسول يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معهُ ٣١٤ رجلاً ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً امامهُ العيون فأخبر وهو يسير ان محمداً قد استنفر أصحابهُ للعير فحذر واستأجر رجلا

يذهب الى مكة يستنفر قريشاً الى أموالهم ويخبرهم ان محمداً قد عرض للعير في أصحابهِ فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي — يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابهِ لا أرى ان تدركوها الغوث الغوث — فتجهز الناس سراعاً وكانوا بين رجلين أما خارج وأما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر

اما رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهُ خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (او ٩ منهُ حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى اذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون الى بدر لاستطلاع أخبار العير حتى اذا قارب بدراً جاءتهُ الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد ان أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا وقال له المقداد بن عمرو أمض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك والله لا تقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا أنّا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال اشيروا عليَّ أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم الاَّ على انهم يمنعونهُ ما دام في ديارهم فكان يتخوف انهم لا يرون نصرتهُ الاَّ على من دهمهُ في المدينة من عدوه وليس عليهم ان يسير بهم الى عدو خارج

---

(١) موضع في اقصى اراضي هَجَر

ديارهم فقال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت بهِ هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضتهُ لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا العدو غداً انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقرّ بهِ عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليهِ السلام بقول سعد ونشطهُ ذلك ثم قال سيروا وابشروا فأن الله قد وعدني أحدى الطائفتين والله لكأني أنظر الى مصارع القوم. ثم ارتحل عليهِ السلام حتى اذا وصل قريباً من بدر بلغهُ ان أبا سفيان قد نجا بالعير وان قريشا وراء وادي بدر — وكان أبو سفيان قد ساحل بالعير فنجا وأرسل الى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة الى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبو جهل وقال والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيهِ ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا ولما رأى منهُ ذلك الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبي جهل من غير داعية أشار على حلفائهِ من بني زهرة ان يرجعوا فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً في صفوف المشركين زهري وكذلك لم يشهدها من بني عدي أحد. مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحُباب بن المنذر الى رسول الله وقال له يا رسول الله أرأيت هذا المنزل

أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمهُ ولا نتأخر عنهُ أم هو الرأي والحرب والمكيدة قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة قال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليهِ حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد اشرت بالرأي وفعل كما قال

ثم ان سعداً قال للرسول يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيهِ ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك ما احببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليهِ الرسول ودعا له بخير وامر ببناء العريش فبني له

تراءى الجيشان فلم يكن بد من الحرب . في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب القواعد العربية فخرج من صفوف المشركين ثلاثة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنهُ الوليد واخوه شيبة فطلبوا من يخرج اليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب اكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن ابي طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبة وعلي بازاء الوليد فاما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما ان قتلاهما واما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما اثبت صاحبه فحمل علي وحمزة على عتبة فذففا عليهِ واحتملا عبيدة وهو جريح الى صفوف المسلمين . ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل

الحرب في ذلك النهار فأن الهزيمة حلت بصفوف قريش بعد ان قتل جمع من صناديدهم فيهم ابو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها واسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون . ولما انتهت الموقعة أمر عليهِ السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين وكانت هذه عادته في حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت

ثم أرسل بشيرين الى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما وهو عبدالله ابن رواحة الى أهل العالية والآخر زيد بن حارثة الى أهل السافلة

ثم عاد عليهِ السلام الى المدينة وفي عودتهِ قتل رجلين من الأسرى احدهما النضر بن الحارث لأنهُ كان غالياً في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذي يهجو بهِ المسلمين ليغنين به والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابهِ وقال استوصوا بهم خيراً قال ابو عزيز بن عمير كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا اذا قدموا غذاءهم او عشاءهم خصوني بالخبز واكلوا التمر لوصية رسول الله اياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاَّ نفحني بها قال فاستحي فاردها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان ابو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقر رأي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بعد ان استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش في الأسرى وكان بعض الصحابة ومنهم عمر وسعد بن معاذ يريدون قتلهم وكان رأي أبي بكر واكثر الصحابة لا يريدون ذلك ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل ان تنزل آية القتال) فرضي

عليهِ السلام رأي أبي بكر ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً انهُ لم يسبق لنبي ان أكل شيئاً من الغنائم فان موسى عليهِ السلام كان يحرقها ولا يبقي شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانهُ بقوله (ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم) وقد كان من رأي سعد حين القتال ان المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله ان يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم منْ منّ عليهِ بغير فداء ومنهم ابو عزة الجمحي الشاعر بعد ان تعهد ان لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون ان يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال باسرها وهي السورة الثامنة وقد بدئت بأمر الأنفال وانها صارت لله والرسول يقضي فيها الله بما شاء ثم قضى فيها بان الخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فالباقي وهو اربعة أخماسها للغانمين وقد خص عليهِ السلام سهم ذي القربى بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف ولم يعط منهُ بني نوفل وعبد شمس . ثم قص في السورة خروج المسلمين الى هذه الحرب وانهُ ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وانه

أوحى الى الملائكة ان يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله . وتكلم فيها عن السلم والجنوح اليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى الى غير ذلك من الاحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر الى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فإن عددهم كان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها وقريش كانت بين التسعمئة والألف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم ما لا يخفى مكانه ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فإن الحرب لم تستمر اكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين وانهزمت بقيتهم لا تلوي على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ذلك ان المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر لما أخبرهم بهِ عليهِ السلام من ان الله وعده احدى الطائفتين وقوله والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بما أيدهم بهِ من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة . كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيهِ عن أعزّ شيء في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهم الواحد منهم ان تحين منيتهُ لأنهُ واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة احدى الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة امدادات قوية يراها متوالية الورود

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء

مكة ومن أرق ما قيل منهُ ما قالتهُ قُتيلة بنت الحارث اخت النضر ابن الحارث

يا راكباً ان الأُثيل مظنة　　من صبح خامسة وانت موفق
أبلغ بها ميتاً بان تحية　　ما ان تزال بها النجائب تخفق
مني اليك وعبرة مسفوحة　　جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر ان ناديتهُ　　أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة　　في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما　　منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
او كنت قابل فدية فلينفقن　　بأعز ما يغلو بهِ ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة　　وأحقهم ان كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيهِ تنوشهُ　　لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد الى المنية متعباً　　رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله اعلم ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قال لما بلغهُ هذا الشعر لو بلغني هذا قبل قتله مننت عليهِ

كان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة الا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليهِ ثلاث ليال ثم رجع الى المدينة ولم يلقَ كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان ابو سفيان حين رجع فلّ قريش من بدر نذر ان لا يمس رأسهُ من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مئتي راكب من قريش ليبر يمينهِ حتى كان من المدينة على نحو بريد ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حيّيّ بن أخطب فضرب عليهِ بابهُ فأبى ان يقبله فانصرف عنهُ الى سلام بن مشكم سيد بني النضير المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابهُ وأكرمهُ وأعامهُ أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابهُ فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليهِ السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ثم انصرف راجعاً وقد فاتهُ أبو سفيان وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفهِ لما صنع بهِ سلام بن مشكم

وإني تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم اندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتاً مدامـة ... على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لأفرحهُ أبشر بغزو ومغنم
تأمر فان القوم سر وأنهم ... صريح لؤي لا شماطيط جرهم
وما كان الاَّ بعض ليلة راكب ... أتى ساعياً من غير خلة معدم

ذي أمر

لما رجع عليهِ السلام من غزوة السويق اقام بالمدينة بقية ذي الحجة

او قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فاقام بنجد صفراً كلهُ او قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع الى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كلهُ او الاَّ قليلاً منهُ

الفرَع

خرج عليهِ السلام في أواخر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ بحران وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فاقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلقَ كيداً

أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم كما قاله ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وظهر منهم بعد بدر ما كان خافياً من عدائهم اذ أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع سببها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعدياً معيباً فصاحت مستغيثة فاغاثها رجل من المسلمين فقام الى اليهودي فقتله وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمهِ فاجلاهم من المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام واقاموا فيها

كان من نتيجة بدر ان قريشاً حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعهُ تجار واستاجروا رجلاً من بكر بن

وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليهِ السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة ماء من مياه نجد فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم

أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهودياً من طيء ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبدالله ابن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن ابي وداعة السهمي فأنزلتهُ امرأتهُ وأكرمتهُ وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويبكي اصحاب القليب من قريش الذين اصيبوا ببدر فقال

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا ان الملوك تصرع
كم قد أصيب بهِ من ابيض ماجد ... ذي بهجة تأوى اليهِ الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... ان ابن الأشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليت الارض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنة ... او عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
نبئت ان بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبّه ... ما نال مثل المهلكين وتبع

نبئت ان الحارث بن هشامهم   في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانما   يحمى على الحسب الكريم الاروع

ثم رجع الى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فارسل له عليهِ السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته لعهده



المحاضرة الثالثة عشرة

احُد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فلّهم الى مكة ورجع ابو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وابناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منهُ ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان ابو عزة الجمحي الذي منّ عليهِ الرسول ببدر طلب منهُ صفوان بن أمية ان يخرج معهم فقال له ان محمداً قد منّ عليّ فلا أريد ان أظاهر عليهِ قال فأعنا بنفسك فلك الله عليّ ان رجعت ان أغنيك وان أصبت ان اجعل بناتك مع بناتي يصيبهنّ ما أصابهنّ من عسر ويسر فخرج ابو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له اخرج مع الناس فان

قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فانت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وان لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل يبطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج اليهم أم يقيم في المدينة فقال له عبدالله بن أبي بن سلول وكان رأسا في الأنصار الا انهُ كان يضمر نفاقاً نرى ان نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام وان دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأي رسول الله لكن كان رأي جمهورهم ان يخرج الى العدو فدخل عليه السلام الى بيته فلبس لأمتهُ وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال [١] حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد فقال عليه السلام ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمتهُ ان يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من أصحابه حتى اذا كان بالشوط انخزل عنهُ عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس فرجع بمن اتبعهُ من قومهِ وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي الى الجبل فجعل ظهره وعسكره الى أحد وقال لا يقاتلنَّ أحد منكم حتى نأمره

(١) حسب تقويم مختار باشا المصري كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منهُ (٢٩ مارس سنة ٦٢٥)

بالقتال . ثم تعبى عليهِ السلام للقتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتينَّ من قبلك وكان صاحب لواء المسلمين مُصعَب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد جنبوها وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وقال ابو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يا بني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم اذا زالت زالوا فاما ان تكفونا لواءنا واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا بهِ وتواعدوه وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غداً اذا التقينا كيف نصنع وذلك اراد ابو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وابو دجانة سِماك بن خرَشة الساعدي وعلي بن ابي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاءً حسناً فانزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها — الاَّ ان الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا الى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم واخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعتهُ لقريش فلاثوا بهِ وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ومما زاد في دهشتهم وأضعف عزائمهم ان رجلاً قتل مصعب بن عمير واذاع عند قتله ان محمداً قد قتل فكان هذا الخبر

شديداً على أنفس كثيرٍ منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم حتى رمى بالحجارة ووقع لشقهِ فاصيبت رَباعيتهُ وشج في وجههِ وكلمت شفتهُ ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتهِ ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها ابو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن ابي طالب بيده ورفعهُ طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيهُ القوم قام دونهُ خمسة نفر من الأنصار يردون عنهُ العدو ثم فاءت فئة من المسلمين فاجهضوهم عنهُ وقاتلت في ذلك اليوم ام نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في اول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنهُ بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحاً شديداً وقد امتاز جماعة من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليهِ وسلم منهم ابو دجانة وكان النبل يقع في ظهره وهو منحنٍ على رسول الله حتى كثر فيهِ النبل ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب ابن مالك أحد الأنصار فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار اليهِ عليهِ السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليهِ ونهضوا به ونهض معهم نحو الشعب معهُ كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره الى الشعب أقبل أُبيّ بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت ان نجا فتناول عليهِ السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنهُ في عنقهِ طعنة تدأدأ منها عن فرسه

مراراً وخدش في عنقهِ فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد الى مكة وهو الرجل الوحيد الذي قتل بيده عليهِ السلام

ولما انتهى الى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقتهُ ماء من المهراس فجاء به الى الرسول ليشرب منهُ فوجد له ريحاً فعافهُ فلم يشرب منهُ فغسل عن وجههِ الدم وصب على رأسهِ . وبينما هو بالشعب معهُ أولئك النفر من اصحابهِ يمنعونهُ اذ علت عاليـة من قريش الجبل فذهب اليهم من المسلمين من أنزلهم عنهُ

يظهر انَّ قريشاً رأت بما فعلت انها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر فاكتفت بهِ وعولت على الانصراف فصعد ابو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوتهِ بحيث يسمعهُ من في الشعب وقال أنعمت فعال ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أُعلُ هُبَل فقال عليهِ السلام قم يا عمر فأجبهُ فقل الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فلما سمع ابو سفيان صوت عمر قال له هلمَّ اليَّ يا عمر فقال له الرسول ائتهِ فانظر ما شأنهُ فجاءه فقال له ابو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً قال عمر ألهم لا وانهُ ليسمع كلامك الآن قال انت اصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ ثم نادى ابو سفيان انهُ كان في قتلاكم مثل والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت ثم نادى ان موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليـهِ السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذي يهم الرسول صلى الله عليهِ وسلم في موقفهِ ان يعلم ذات نفس قريش أيريدون المدينـة ام ينصرفون الى مكة فارسل علي بن ابي طالب فقال اخرج في اثر القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فان كانوا

قد جنبوا الخيل وامتطوا الأبل فانهم يريدون مكة وان ركبوا الخيل وساقوا الأبل فانهم يريدون المدينة والذي نفسي بيده لئن ارادوها لأسيرنّ اليهم فيها ثم لأناجزنهم نخرج علي في اثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الأبل ووجهوا الى مكة

فرغ المسلمون الى قتلاهم فدفنوها وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت بهِ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليهِ السلام راجعاً الى المدينة فلقيتهُ في الطريق حمنة بنت جحش فنعى اليها اخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليهِ السلام ان زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على اخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بني دينار من الأنصار وقد أصيب زوجها واخوها وابوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيهِ حتى أنظر اليهِ فأشير لها اليهِ حتى اذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم الاحد ١٦ شوال او ١٥ منهُ أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو وأذن مؤذنهُ ان لا يخرج معنا الا من حضر يومنا بالأمس وانما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم انهُ خرج في طلبهم ليظنوا بهِ قوة وان الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فخرجوا بما هم عليهِ من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الاسد وهي من المدينة على ثمانية أميال فاقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء وقد مرّ بهِ معبد بن أبي معبد

الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معهُ لا يخفون عنهُ شيئاً كان بهـا ومعبد يومئذٍ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينـا ما اصابك في اصحابك ولوددنا ان الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الاسد وسار حتى لقي أبا سفيان واصحابه بالروحاء وقد اجمعوا الرجعة فانهم قال بعضهم لبعض اصبنا حد اصحابهِ واشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل ان نستأصلهم لنكرنّ على بقيتهم فلنفرغنّ منهم فلما رأى ابو سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد قال محمـد قد خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معهُ من كان تخلف عنهُ في يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى ان ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فثنى ذلك ابو سفيان ومن معهُ

والذي اعترض بهِ القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل انسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحُد وقتلوا كثيراً من المسلمين وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنهُ ومع ذلك لم يخطر ببالهم ان يتموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ثم لمـا ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحُد لم يعرجوا على المدينة ليقال ان النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى اذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر ان القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنهُ بالمدينة نخافوا ان يعلم المتخلفون ان اخوانهم أصيبوا فيسرعوا الى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا

من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحُد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك ان أبا سفيان كان يريد ان يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحُد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فان القوم قد حربوا وقد خشينا ان يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الاسد ظفر بابي عزة الجمحي الذي منّ عليهِ بعد بدر فقال له أقلني يا محمد فقال عليهِ السلام والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمداً مرتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا بأحُد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً

أنزل الله في هذا اليوم من القرآن ستين آية من القرآن في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم الى قوله فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحُد (٢) ان صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما الاّ عند النكبات (٣) توبيخ لهم بألطف اشارة على ما كان من ضعفهم حينما أشيع ان محمدا قتل (٤) بيان الاسباب الحقيقية لما كان يوم أحُد (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام

والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان الرسول يدعوهم الى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين اكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم (٧) اعلان العفو عن المنهزمين (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم) (٨) الثناء على شهداء الموقعة والاخبار انهم (احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) واخيراً اشار الى ما كان من خروجهم ثاني يوم أُحُد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين احسنوا منهم واتقوا أجراً عظيماً

وقد قيل في هذه الوقعة كثير من الشعر العربي قالتهُ قريش والمسلمون نقله ابن هشام في سيرتهِ

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بعد أُحُد رهط من عُضَل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً فلو أرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم وهم في رحالهم الاَّ الرجال بأيديهم

السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل انّا لا نريد قتلكم ولكنا نريد ان نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ان لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا واجاب الى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة حين قدم ليضرب عنقه أنشدك الله يا زيد أتحب ان محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وانك في أهلك قال والله ما أحب ان محمداً الآن في مكانه الذي هو فيهِ تصيبهُ شوكة تؤذيه واني جالس في أهلي فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في صفر من السنة الرابعة ابو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامري فعرض الرسول عليهِ الاسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى اهل نجد فدعوهم الى امرك رجوت ان يستجيبوا لك فقال عليه السلام اني أخشى عليهم اهل نجد فقال ابو براء انا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى امرك فبعث عليهِ السلام اربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين ارض بني عامر وحَرة بني سليم فلما نزلوها بعثوا احدهم بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيهِ حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ

عليهم بني عامر فأبوا ان يخفروا جوار ابي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عُصَيَّة ورِعْل وذكوان فاجابوه الى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون اخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ما عدا رجلين عمرو بن أمية الضمري لانهُ كان في الرحال وكعب بن زيد فانهُ ترك بالمعركة جريحا قد ظن موتهُ فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أُسر لما ذهب يتفقد القوم ثم اطلقهُ عامر بن الطفيل فعاد الى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم بهِ عمرو

فلما وصل الى المدينة واخبر الرسول عليهِ الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل ابي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينّهما

المحاضرة الرابعة عشرة

اجلاء بني النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق وقريظة — بني المصطلق

اجلاء بني النضير

خرج عليهِ السلام الى بني النضير يستعينهم في أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بينَ بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليهِ ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً الى جنب جدار من بيوتهم)

فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليـهِ صخرة فيريحنا منهُ فانتدب لذلك احدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال ورسول الله في نفر من أصحاب فجاءه الوحي بما عزم عليهِ القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة واخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سـنة ٤ فتحصنوا منهُ في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقي أهل المدينة الى بني النضير ان اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ان قوتلتم قاتلنـا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا ان يجلوا ويكف عن دمائهم على ان لهم ما حملت الأبل من أموالهم الاَّ الحلقة فرضي الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت بهِ الأبل وخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيهـا الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم بين حكم الاموال التي تركوها وسمـاها فيئا وجعل أمرها لرسول الله يضعهـا حيث أمره الله (لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الاغنيـاء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بانه لم يكن المقصود منـه الفساد وانما كان باذن الله ليضعف بهِ أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وان تنظر النفس ما قدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليهِ السلام من المدينـة في جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بني محارب وثعلبـة من غطفان حتى اذا نزل نخلاَ لقي بها جمعاً عظيماً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول باصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيهِ سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليهِ السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر ابا سفيان اما هذا فانهُ خرج بقريش حتى بلغ مجنة او عسفان ثم بدا له فقال ايها الناس انهُ لا يصلحكم الاَّ عام خصيب ترعون فيهِ الشجر وتشربون فيـهِ اللبن وان عامكم هذا عام جدب واني راجع فارجعوا فرجع الناس وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولـكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين اجلاهم رسول الله الى خيبر ومعهم جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم عليهِ حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيهِ نحن ومحمد أفديننا خير أم دينهُ قالوا بل دينكم خير من دينهِ وانتم أولى

بالحق منهُ فسر ذلك قريشاً ونشطوا لمـا دعوهم اليهِ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . ثم خرج اولئك النفر حتى اتوا غطفان فدعوهم الى مثل ما دعوا اليه قريشاً واخبروهم انهم سيكونون معهم وان قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم ابو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن في بني فزارة والحرث بن عوف في بني مرة ومسعر بن رخيلة في بني اشجع بن ريث

لما سمع الرسول بما اجمعت عليه قريش واحزابها ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسى وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى احكموه

ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رومـة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نقمي الى جانب أُحُد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينهُ وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام

خرج حيي بن أخطب النَّضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره اذا اصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حيي الباب فاغلقه دونه فما زال يكلمهُ حتى فتح له بابه ثم قال له اني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وبحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال وبغطفان على قادتها وسادتهـا حتى أنزلتهم بذنب نقمي وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معهُ فقال

له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني فاني لم أرَ من محمد الا صدقاً ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن اسد عهده وبرئ مما كان بينهُ وبين المسلمين فلما انتهى هذا الخبر الى الرسول والى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه اكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه فلما انتهى السعدان الى بني قريظة وجدوهم على اخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان الى رسول الله واعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء على المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الاَّ المراماة بالنبل والحصار . ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليهِ السلام ان يفعل أمراً يفرق به كلمة الاحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزاري والحرث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما ان يعطيهما ثلث ثمار المدينة على ان ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنهُ قبل ان يبرم الامر أرسل الى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يا رسول الله أمراً تحبهُ فنصنعهُ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من

العمل به أم شيئاً تصنعهُ لنا قال بل شيء أصنعهُ لكم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفهُ وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها ثمرة الا قرى او بيعاً أفحين اكرمنا الله بالاسلام وهدانا لهُ وأعزنا بك وبهِ نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلاَّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال عليهِ السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان

واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندقت عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يا رسول الله اني أسلمت ولم يعلم قومي باسلامي فمرني بما شئت فقال له عليه السلام انما انت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة فخرج نعيم حتى اتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال يا بني قريظة قد علمتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم وان قريشاً ليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدروا أن تحولوا منهُ الى غيره وان قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم قالوا لقد أشرت بالرأي ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً وانه قد بلغني

أمر قد رأيت عليّ حقاً ان ابلغكموه نصحاً لكم . ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمد وقد أرسلوا اليه انا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من اشرافهم فنعطيهم لكَ فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم فأرسل اليهم ان نعم فان طلبت منكم يهود أحداً من أشرافهم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فقالوا لهم ان غداً السبت وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا الى بني قريظة انا والله لا ندفع اليكم أحداً من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذٍ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذٍ الى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف ان جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليهِ السلام بما حصل بين الاحزاب من الخلاف ارسل حذيفة ابن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ مَن جليسهُ قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان الى جنبي فقلت له من أنت قال انا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان

يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة لريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليهِ ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله الاّ وهو قائم فتبعتهُ قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين الى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم اذا جاءهم عدو اكثر منهم عدداً فكأن يوم أُحُد كان درسا لهم استفادوا منهُ الأناة في ملاقاة الاعداء واضطروا بحكم ما هم فيهِ من الشدائد ان يستعينوا بالخدع التي تفرق بين الاعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا ان من عاقدوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاءً شديدا يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليهِ السلام بعد انصراف الاحزاب ان يتوجه المسلمون الى بني قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون اليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلتهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد ان يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبي في مواليهِ من قينقاع باجلائهم فلم يرض

ومن الغريب ان اخوانهم بالشام في هذه الآونة كان يدور عليهم تلك الكأس المرّة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه

بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين اعداء للطرفين

ذكر الله قصة الاحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان ثم بين حال المنافقين ومثّل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بيّن حال المؤمنين حينما رأوا الاحزاب (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هـذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الاّ ايماناً وتسليما) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الاحزاب في عدوانهم والآية تدل على ان القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ اصابه سهم في ذراعهِ فقطع الكحله وقد مات بعد حكمهِ على بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الاحزاب انضم الى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاصي السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل ان الحرب قد شرعت تضع اوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بني لحيان

اقام عليهِ السلام بالمدينة بعـد الخندق الى جمادي الأولى سنة ٦ وفيهِ خرج الى بني لحيان يطالب باصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغُران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رؤوس الجبال فعاد الى المدينة

ذي قرد

لم يقم بالمدينة الاَّ ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غِفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمـة بن عمرو بن الاكوع الأسلمي فاشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في اثر القوم وكان راميًا مجيدًا فصار يرميهم بالنبل ويقول خذهـا وانا ابن الاكوع فاذا انعطفت عليهِ الخيل انطلق هاربًا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده ان يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينـة . بلغ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم صياح ابن الاكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت اليـه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى الحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتى ادركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليـهِ وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي واقام المسلمون بذي قرد يوما وليلة ثم عادو قافلين الى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليهِ السلام بالمدينة الى شعبان وفيهِ خرج يريد بني المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغهُ انهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليهِ السلام بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قُدَيد الى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون اموالهم وابناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيهِ جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنهُ عليهِ السلام كان يميل للمن على السبي واطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر الى الناس ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس اصهار رسول الله وأرسلوا ما بايديهم

قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه اياها مئة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحُدَيبيّة

أقام عليهِ السلام بالمدينة الى ذي القعدة من سنة ٦ وفيهِ خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معهُ الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربهِ وليعلموا انهُ انما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان قد أراه الله في منامه أنهُ هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين . فسار بهم حتى بلغ الحدَيبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره الى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن بهِ المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونهُ عن سبب مجيئه فأجابهم أنهُ لم يأتِ يريد حرباً وانما جاء زائراً للبيت معظماً له فرجعوا الى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وان كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب . ثم بعثوا اليهِ رسولاً آخر من بني عامر فاخبره عليهِ السلام بمثل ما أخبر بهِ بديلاً ثم بعثوا اليهِ الحليس بن علقمة الكناني سيد الاحابيش فلما رآه عليهِ السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليهِ من عرض الوادي رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم اعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالفنا كم أيصد عن البيت من جاء معظماً له والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاءَ له أو لأنفرنّ بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مَهْ كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى بهِ . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه وقال له يا محمد اجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة ابداً وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا تحتملها المسلمون نال منهُ ابو بكر ثم كلمهُ عليهِ السلام بما كلم بهِ أصحابه وأخبره انهُ لم يأت يريد حرباً وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ومحبتهم له فرجع الى قريش وقال لهم يا معشر قريش قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونهُ لشيء ابداً فروْا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله الى قريش حتى يبلغهم عنهُ ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول الله اني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي احد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان ابن عفان فدعا عليهِ السلام عثمان فبعثهُ الى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم انهُ لم يأت لحرب وانما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له فخرج عثمان الى مكة فلقيهُ أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ثم اجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له ان شئت ان تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليهِ وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين ان عثمان قتل فلما بلغت تلك الاشاعة رسول الله قال لا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعا أصحابه الى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة على ان لا يفروا ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الاشاعة

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له أئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه الا ان يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا انهُ دخلها علينا عنوة ابداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه عليهِ السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع

الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه

(١) ان الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة واذا كان العام القابل دخلها المسلمون فاقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب السيوف في القرب بعد ان تخرج منها قريش

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

(٤) من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليهِ بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل اكتب باسمك اللهمَّ فأمره عليهِ السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت انك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقال عليهِ السلام اكتب هذا ما صالح عليهِ محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش

و بينا الكتاب يكتب اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت الى المسلمين فلما رأى سهيل ابنهُ قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوني في دبنى

ولم تكن هناك حيلة الاَّ ان يرد ابو جندل عملاً بوثيقة الصلح عملاً بالآية الكريمة (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الاَّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق)

كانت حال بعض المسلمين عندما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون ان يطوفوا بالبيت وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضيها عليهِ السلام وظن بعضهم انها لا تليق بالمسلمين حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا رسول الله ألست برسول الله قال بلى قال أولسنا بالمسلمين قال بلى قال أوليسوا بالمشركين قال بلى قال فعلامَ نعطي الدنية في ديننا قال انا عبد الله ورسوله لن اخالف أمره ولن يضيعني

لم يبقَ بعد ذلك الاَّ ان يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليهِ السلام وحلق فتواثبوا الى هديهم ينحرون ثم حلقوا رءوسهم . أنزل الله في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها وقد سمت في اولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فان الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب الاَّ لتأمينها فتفرغ عليهِ السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي نحي في نيل ذلك انما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون — ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه انما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج الى الحديبية وأبان ما سيعتذرون بهِ ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم

يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن اصحاب بيعـة الشجرة ثم بيّن للناس الاسباب التي من اجلها امتنع الرسول عن الحرب — ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) ثم ختم السورة بوصف اصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا الاَّ انهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ما حلّ بهم وباخوانهم فصمم عليهِ السلام على المسير اليهم والاستراحة منهم

فخرج في محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصناً حصناً حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على ان يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من ارضهم واذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد ان انتهى من خيبر ذهب الى وادي القُرى فحاصر اهله ليالي ثم عاد الى المدينة بعد ان صالحه أهل فَدَكَ على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليـهِ وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول الى النجاشي عمرو بن أمية الضَّمري يطلب توجيههم اليهِ فارسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم واولادهم وبقيتهم جاءوا الى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليهِ السلام باصحابه الذين

صدوا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل اليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذٍ خرج منها اهل مكة ودخلها المسلمون وكانت قريش تتحدث ان اصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا امام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليهِ السلام المسجد اضطبع بردائهِ واخرج عضده اليمنى وقال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسهِ ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول اصحابه معه حتى اذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الاسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها

ثم اقام عليهِ السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف الى المدينة في ذي الحجة

موءتة

كان من ضمن رسل النبي عليهِ السلام الحارث بن عمير الازدي وكان رسولاً إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة وقال لهم عليهِ السلام ان قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب فان أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس ان هرقل[١]

(١) في تاريخ هرقل انهُ قدم اورشليم سنة ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قيضهُ له من النصر وردّ الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من اورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو انفذ لهم بعض قواده ليردوهم

قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة الف من الروم وانضم اليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو وهم في العدد القليل فساروا حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن ابي طالب فقاتل حتى قتل ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فاخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم ان يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذاك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه وصار يتأخر بهم قليلاً قليلاً مع حفظ نظام جيشهِ ولم يتبعهُ الروم لأنهم ظنوا انهُ يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش الى المدينة . وعندنا ان تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون انهم رأوا عدداً كثيراً امامهم ولا يمكن بحال ان يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً في جانب مئتي الف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون اذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحال ان يصطدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان الاَّ اثنا عشر نفراً

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم كما قدمنا وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا قائدهم نوفل بن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا الى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد ان أصابوا فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصر وفاء بالعهد ثم خرج بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ثم انصرفوا راجعين الى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد ان يصل الى المسلمين فرأى أبو سفيان ان يسير الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه على هذه الصورة مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم ان يتجهزوا الى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً الى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل اليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطباً عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج في هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ (اول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنهُ لا بد من شيء بعد ان فعلت ما فعلت

ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين اليهم . وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين . وكان أول من لقي أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفهُ على عجز بغلته وسار بهِ سيرا حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع اليهِ من يبغضهُ فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان الى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقهُ وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنتهُ فقال للعباس اذهب بهِ الى رحلك فاذا أصبحت فأتني بهِ فذهب بهِ حتى اذا كان الصباح غدا بهِ فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انهُ لا آله الا الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك واكرمك والله لقد ظننت ان لو كان مع الله آله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم اني رسول الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك اما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليهِ بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ثم أطلق فذهب الى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يا معشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ثم سار عليهِ السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش الا مناوشات لا تستحق الذكر فلما نزل مكة واطمأن الناس سار الى البيت فطاف به

سبعاً على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا آله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى بهِ فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ثم قال يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال

اذهبوا فأنتم الطلقاء

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها فهي في اعقابه الى اليوم . ثم دخل البيت فازال ما به من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل اكثرهم . ودخل في الاسلام هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم الاَّ القليل ثم اسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليهِ وبين ما بعده فان قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وانصاره والعرب في ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الاخير على الدين الوثني في جزيرة العرب

امر حنين

الاَّ ان بطون هوازن رأت من نفسها عزًّا وأنفه ان تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت الى مالك بن عوف النصري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير

الى حرب المسلمين فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر الفاً وهو اكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادي حنين وشرعوا يتحدرون فيهِ كان هوازن وثقيف قد كمنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل ان يهيئ هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد فانحاز عليهِ السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا اليَّ أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه في موقفه الاَّ عدد قليل فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت اصرخ يا معشر الانصار يا معشر اصحاب السمرة فاجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليهِ فيأخذ درعه فيقذفها في عنقهِ وأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى اذا اجتمع اليهِ منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الاَّ ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذا عجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين

وبعد انتهاء حنين سار عليهِ السلام الى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة ثم عاد عنهم بدون ان يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فاتاه

هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يا رسول الله انا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك فمنّ علينا منّ الله عليك وقال له رجل من هوازن انما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك ولو انا ملّحنا للحارث بن أبي شمر الغساني او للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليهِ السلام ابناؤكم ونساؤكم أحب اليكم ام اموالكم فقالوا خيرتنا بين اموالنا واحسابنا بل ترد الينا نساءنا وابناءنا فهو أحب الينا فقال لهم اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله في ابنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك واسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليهِ السلام اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم وبذلك رد عليهِ السلام الى هوازن ابناءهم ونساءهم ثم وفد عليهِ بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليهِ أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مئة من الأبل فحسن اسلامه واستعمله عليهِ السلام على من أسلم من قومهِ ثم خرج عليهِ السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً الى المدينة بعد ان ولى على مكة عتّاب بن اسيد وكان رجوعهُ الى المدينة لست ليالٍ بقيت من ذي القعدة

تبوك

أقام عليهِ السلام بالمدينة الى رجب من السنة الناسعة وفيهِ أمرهم ان

يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معهُ في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيهِ فتجهز الناس وانفق الكرام ما يتجهز بهِ ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليهِ السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنّة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول واعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل اذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن احدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وانهُ طيب لمن أخذه من الناس وانهُ لا يحل ان يمنعوا ماء يردونهُ ولا طريقاً يريدونهُ من بر او بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد الى اكيدر دومة فذهب اليهِ وأسره وجاء بهِ الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فحقن له دمه وصالحهُ على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريتهِ . وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا الى المدينة . وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربا

التشريع في المدينة

بينا فيما سبق ان الذي نزل بالمدينة من القرآن احدى وعشرون

سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منهُ بامرين (الاول) ما فيهِ من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح ان يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ما شرعهُ لاصلاح النفوس وتهذيبها وهي التي يطلق عليها المسلمون اسم العبادات والاجتماعية ما شرعهُ ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً الاَّ انهُ شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها في سورة النساء . ثم زاد المسلمين حثاً على اقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز بهِ رمضان لأنهُ الشهر الذي نزل فيهِ القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الاول) في قوله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليهِ ان يطَّوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) (الثاني) في قولهِ (واتموا الحج والعمرة لله) الى قولهِ (فمن تعجل في يومين فلا اثم عليهِ ومن تأخر فلا اثم عليهِ

لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً) الى قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليهِ سبيلاً)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) الآيات

ولم يحج عليهِ السلام الاّ في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنهُ ودّع فيها الناس وقال لهم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا واوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملا

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وانما بينتها السنة وبيّن القرآن مصارفها في سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب ان نجعل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونهما من العبادات لم نستجز ان نخالفهم والاّ فواضح انهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة اعانة الأغنياء للفقراء فهي أمر مالي محض والمقصد من الحج ان يكون موفداً عاما يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ما ورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الأول — ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسميه الناس الآن احوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجي

ولكنا لا نستجيز اطلاق هذا الاسم عليهِ لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصي الذي ترجع اوامره ونواهيه الى الشخص وحده وانما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الاحوال الاجتماعية العائلية ان رضي لنا أهل اللغة باسم العائلة والاَّ سميناها الاحوال البيتية لأنها ترجع الى تكوين البيت ونظامه

الثاني — ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث — ما يتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج . شرع القرآن الزواج وسمى عقدتهُ (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلاًّ من الزوجين لباساً للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعنى هذا انكم تسكنون اليهنّ ويسكنّ اليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيهِ

(٢) حرم التزوج بنساء بينهنّ فنهى في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة النساء عن تزويج نساء بينهنّ من أول قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الآيات

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة الى اربع ولكنهُ اشترط لذلك ان لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو اذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والاسلوب الذي جاء بهِ آية اباحة التعدد مما يلفت نظر الانسان الى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما

نهى عنهُ الشارع فانهم بعد ان أمرهم بالمحافظة على اموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم ان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا ان لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معهُ من عدم العدل وعبّر عن ذلك المعنى بقوله فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع يعني ان أمنتم ان تعدلوا فانهُ قال بعد فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة . ومما يلفت النظر انه قال في السورة نفسها ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنهُ لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ بهِ ولا ينتهي اليهِ

(٤) العشرة . كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرة امرأتهِ (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهنّ بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من اموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فان الكتاب يقول (ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل ان يؤدي لها من الحقوق مثل الذي يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي اساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بامر عقدة الزواج حتى لا تحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الامر شكك الزوج في وجدانه

اذا أحس من نفسهِ بكراهة لزوجتهِ فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهنَّ بالمعروف فان كرهتموهنَّ فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيهِ خيراً كثيراً) وأي زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فانهُ توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل . ثم أباح للرجل ان يؤدب الزوجة ان بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين انهم ان خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجهِ ان يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلهِ للسعي في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين اذا كان الحكمان يريدان اصلاحاً فقال (وان خفتم شقاقاً بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما)

واذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق امراً لا بد منهُ لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وان يتفرقا يغنِ الله كلاً من سعتهِ) وشرع في الكتاب نظاماً للطلاق لو اتبع كما جاء لافاد المسلمين وازال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ما داموا على حالهم

بيّن ذلك النظام في سورتين من الكتاب احداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لان ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيتهُ ورضيها وينظر الزوج امرأة غيرها فربما رضيتهُ ورضيها فان حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الاول ان في امكانهما ان يقيما حدود الله فلا جناح عليهما اذا تراجعا (فان طلقها فلا جناح عليهما

ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها ان لم يبدُ للزوج ان يعود الى عشرة زوجتهِ باحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحاً) وحتم ان هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيهِ مع زوجها لا تَخرج ولا تُخرج الاَّ ان كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة اقرؤا ان شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ثم قال (فاذا بلغنَ أجلهنَّ فأمسكوهنَّ بمعروف او فارقوهنَّ بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله)

لم يكتفِ الشارع بذلك بل أمر للمرأة اذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهنَّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وقال (فمتعوهنَّ وسرحوهنَّ سراحاً جميلا) وقال (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منهُ شيئاً أتأخذونه بهتانا واثما مبينًا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا)

فلا نرى الكتاب اهتم بامر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعهُ من هذا النظام

(٥) فصَّل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منهُ نصيبا مفروضا بعد ان كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون

مما قلّ منهُ او كثر نصيباً مفروضاً) ثمّ بين تلك الأنصباء بياناً تاماً في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على اموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها انما يأكلون في بطونهم ناراً وبيّن الوقت الذي يؤتَوْن فيهِ اموالهم كل ذلك مبين في اول سورة النساء كما بين اموال السفهاء الذين لا يمكنهم ان يحسنوا التصرف في اموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم اساس نظام عائلي قوي فالذين يقولون ليس في الاسلام اعتنـاء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليهِ الكتاب



المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات — الحدود — الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب آساس المعاملات في مواضع من كتابه

(١) أمر امراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان

(٢) نهى عن أكل اموال الناس بالباطل والإدلاء بها الى الحكام واباح الربح من التجارة (الاّ ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا اشد نهي ومثّل آكليـه اشنع تمثيل كما ترونهُ في سورة البقرة

(٤) بيّن شكل التعامل في اطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها امراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليهِ وقال فيها (ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى اجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا الاّ ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة ان لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم الى أنفسهم وذمهم ان أمن بعضهم بعضاً وأمر من أوتمن ان يؤدي أمانتهُ

هذه هي الأصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الأول) (يا ءيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها احداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) الثاني في آخر السورة حيث يقول (يا ءيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرّات) الى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن ان يبدين زينتهنّ الاّ ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وامرهنّ ان يضربنَ بخمرهنَّ على جيوبهنّ وقد أباح ابداء الزينة بحضر أقارب لها سماهم في سورة النور وأمرهنّ في الأحزاب بادناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لا يتعرض لهن احد

في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر في التحية ان يحيا الانسان بأحسن من تحيته او بمثلها الى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإلفهم

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص . واثبت في سورة الاسراء ان من قتل مظلوماً فقد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه ان يسرف في القتل وكان ولي الدم عند العرب أقرب عاصب للانسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذي صار له الحق ان يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبيّن في البقرة ان كتب القصاص في القتلى وان القصاص لا ينبغي ان يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل بهِ غيره مهما كانت قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي ان يتجاوز ذلك الى ساداتهِ والأنثى بالأنثى ولا ينبغي ان يتجاوز ذلك الى رجالها او عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب ان من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)

اما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة (الأول) حد الزاني وقد جعله الكتاب مئة جلدة (الثاني) حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان في سورة النور (الثالث) حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد (الرابع) حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله

ويسعون في الارض فساداً ان يقتلهم الامام او يصلبهم او يقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف او ينفيهم من الارض وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فان الكتاب قال فان تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم وهذان الحدان في المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساساً لاعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك ان ترجعوا الى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا اليهِ

الدعوة ونتائجها

هاجر عليهِ السلام من مكة والذين دخلوا في دينهِ جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالانصار وكاد الاسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق او خافوا على سيادتهم ان يزيلها الاسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليهِ الاَّ انهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الاسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ويظهر لي ان هذا الاسم من المحدثات الدينية فاني لم أرَ العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى انهُ لما مات عبد الله بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليهِ وكفنهُ في قميص له ونزل في قبره مع انهُ كان سبباً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف

قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن في هذا قوة كبرى

ودخل في الاسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه . كان عليهِ السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل اليهم الرسل ويكتب اليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل ان ينتهي الحال مع قريش ومما يزيد التردد عندهم ان الحرب كانت بين الفريقين سجالا فان انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف امامها وجهاً لوجه كل ذلك كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الاسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من اسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم باسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر . حتى اذا فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام ثبت عند سائر العرب ان المسلمين لهم قوة تؤيدهم فان الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال الاّ بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الاباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أفواجاً قد دانوا بالاسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليهِ ثقيف . بعد ان انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليهِ وسلم والمسلمون رأوا ان الاسلام عم من بجانبهم فارسلوا عنهم وفداً

يبايع الرسول على الاسلام وفي مقدمة الوفد عبد يا ليل بن عمرو فلما قدموا عليهِ ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الاسلام وطلبوا منهُ أشياء أباها عليهم واشياء اعطاهم اياها طلبوا اليهِ ان يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيهِ وطلبوا منهُ ان لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم اللات وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان احدثهم سناً لأنهُ كان اعلمهم واوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل اسلاماً

وممن وفد عليهِ بنو تميم وفد عليهِ أشرافهم منهم عطارد بن حاجب ابن زُرارة والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس ابن عاصم ولما قدم هذا الوفد الى المسجد نادوا من وراء الحجرات ان اخرج الينا يا محمد وفيهم نزل اول سورة الحجرات ولما خرج عليهِ السلام استأذنوه لخطيبهم ان يتكلم فخطب مفتخراً بقومهِ وعشيرتهِ فأجابهُ على خطبتهِ قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبتهِ على المهاجرين والأنصار ثناءً دينياً . ثم قام شاعرهم فالقى كلمة يفتخر وأولها

نحن الكرام فلا حي يعادلنا　　منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها

ان الذوائب من فهر وأخوتهم　　قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرتهُ　　تقوى الاله وكل الخير يصطنع

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم　　او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة　　ان الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وابي ان هذا الرجل لمؤتًى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليهِ السلام

وممن وفد من قيس بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل يا عامر ان الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت ان لا انتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ثم سار اليها مضمراً غدراً فلم يفز برغيته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليهِ وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليهِ السلام انا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا ابن عبد المطلب اني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ عليّ في نفسك قال لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولاً قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك ان تأمرنا ان نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وان نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معهُ قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك ان نصلي هذه الصلوات الخمس قال اللهمّ نعم ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الاسلام كلها حتى اذا فرغ قال فاني أشهد ان لا إله الاّ

الله وأشهد ان محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنهُ ثم لا أزيد ولا أنقص ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة الاَّ مسلماً بعد ان علمهم الاسلام وشرائعه

وممن وفد عليهِ من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر ابن المعلَّى وكان نصرانياً فأسلم هو ومن معهُ وكان الجارود من اشد الناس تمسكاً بالاسلام

وممن وفد عليهِ من ربيعة بنو حنيفة ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب لادعائهِ النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليهِ وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا الى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم اسجاعاً يحاكي بها القرآن

وممن وفد عليهِ من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيءٍ فأسلموا وحسن أسلامهم وقال عليهِ السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني الاَّ رأيتهُ دون ما قيل فيهِ الاَّ زيد الخيل فانهُ لم يبلغ كل ما كان فيهِ ثم سماه زيد الخير وأقطعهُ فيداً وارضين معهُ ثم وفد عليه من طيءٍ عدي بن حاتم الطائي فأسلم وحسن اسلامهُ والسبب في وفادتهِ اختهُ

ثم أقبل عليهِ وفود من مراد وزبيد وكندة وقدمت عليهِ رسل ملوك حمير باسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال واخوه نعيم والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان وبعث اليهِ زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب اليهم الرسول عليهِ السلام كتابا بيّن لهم فيهِ فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس في الدين

ومن كتب اليه باسلامهِ فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملاً على من يليهم من العرب وكان منزله معان من ارض الشام فلما بلغ الروم اسلامه اخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي اعظمي ومقامي

ثم قدم عليهِ وفد بني الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليهِ السلام بمَ كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهليـة قالوا له كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم

ثم قدم عليهِ رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قومهِ وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المشعار المكنى بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجاً حتى كان مع الرسول في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة اكثر من مئة الف كلهم دانوا بهـذا الدين في حيـاتهِ صلى الله عليهِ وسلم والذين لم يكونوا معهُ في هذه الحجة اكثر منهم أضعافاً مضاعفة الا انهُ لا يمكننا القول ان الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان في وسطهم كثير من الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعـد مما تأصل فيها من الميل الى الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله

وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمتهِ ان الله غفور رحيم)

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قوياً ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوتهِ على الجزيرة العربية بل ارسل كتبه ودعاتهُ الى الملوك ورؤساء الامم يدعوهم الى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوتهِ ومعلوم بالبداهة ان الدعوة في تلك الازمنة وتلك الحكومات لا بد أن تبدأ بالكبراء وذوي الزعامة لانهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريتهُ اذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابهِ رسلاً لهم معرفة وخبرة وارسلهم الى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولاً الى ملك الروم وكتب له كتاباً هذا نصهُ (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتول فان اثم الأكّارين عليك)

وننقل هنا ما رواه ابن عباس عن ابي سفيان بن حرب قال كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا و بين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا و بين رسول الله لم نأمن أن لا نجد أمناً فخرجت في نفر من قريش تجاراً الى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بارضهِ من فارس وأخرجهم منها وانتزع لهُ منهم صليبهُ الأعظم وكانوا قد استلبوه اياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغهُ ان صليبهُ قد استنقذ له وكانت حِمص منزله خرج منها يمشي على

قدميهِ متشكراً لله حين رد عليهِ ما رد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليهِ الرياحين فلما انتهى الى ايليا وقضى فيها صلاتهُ ومعهُ بطارقتهُ وأشراف الروم اصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه الى السماء فقال له بطارقته والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموماً قال أجل اريت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر قالوا لهُ ايها الملك ما نعلم أمة تختتن الا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليهِ سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديهِ من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادي الاخبار بينها فقال أيها الملك ان هذا الرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى بهِ الى هرقل رسول صاحب بصري قال هرقل لترجمانهِ سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم انهُ نبي قد اتبعهُ ناس وصدقوه وخالفهُ ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فاذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذي رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبهُ ثم قال لصاحب شرطته قلّب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال ابو سفيان فوالله انا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معهُ فلما انتهينا اليهِ قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمسّ بهِ رحماً قال ابو سفيان انا فقال ادنُه فأقعدني بين

يديهِ وأُقعد اصحابي خلفي ثم قال اني سأ-أله فأن كذب فردوا عليهِ فوالله لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرأً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت ان أيسر ما في ذلك ان انا كذبتهُ ان يحفظوا عليَّ ذلك ثم يحدّثوا بهِ عني فلم اكذبهُ فقال اخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي قال فجعلت ازهد له شأنهُ وأصغر له أمره واقول له أيها الملك ما يهمك من أمره ان شأنهُ دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت الى ذلك ثم قال أنبئني عما اسألك عنهُ من شأنهُ كيف نسبهُ فيكم قلت محض أوسطنا نسباً قال هل كان أحـد من أهل بيتهِ يقول مثل ما يقوله فهو يتشبهُ بهِ قلت لا قال فهل كان لهُ فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهـذا الحديث لتردوا عليهِ ملكه قلت لا قال فاخبرني عن أتباعهِ منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأسنان والشرف من قومهِ فلم يتبعه منهم احد قال فأخبرني عمن تبعـه أيحبه ويلزمه أم يقليهِ ويفارقه قلت ما تبعهُ رجل ففارقهُ قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينهُ قلت سجال يُدال علينا ونُدال عليهِ قال هل يغدر فلم أجد شيئاً مما سألني عنهُ اغمزه فيهِ غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره فوالله ما التفت اليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبهُ فيكم فزعمت أنه محض من اوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي اذا اخذه لا يأخذه الا من اوسط قومهِ نسباً وسألتك هل كان احد من اهل بيتهِ يقول قوله فهو يتشبه بهِ فزعمت ان لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب بهِ ملكه فزعمت ان لا وسألتك عن اتباعهِ فزعمت انهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء

وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليهِ ويفارقهُ فزعمت أن لا يتبعهُ احد فيفارقهُ وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منهُ وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميهِ انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وانا اضرب احدى يديّ على الاخرى واقول اي عباد الله لقد أمِر أمْر ابن ابي كبشة أصبح ملوك بني الاصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . وقدم عليه اذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقتهُ وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعهِ فاظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال انما قلت ما قلت لأختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعهُ وكانت وقعة مؤتة كأنهم ارادوا ان يستأصلوا الأمر قبل استفحاله

وبعث عليهِ السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة الى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب اليهِ (سلام على من اتبع الهدى وآمن بي اني ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني انا سائر اليهِ ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي بكتاب يدعوه فيهِ الى الاسلام ويطلب منهُ أن يرسل جعفرا ومن معهُ من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منهُ فأرسل جعفرا واجاب الى الاسلام كما أعلن بكتابهِ ولما بلغ الرسول وفاتهُ صلى عليهِ بالمدينة

و بعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعهُ كتاب فيهِ (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله و رسوله وشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك اثم المجوس) فمزق كسرى كتابهُ ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليهِ وسلم قال مزق ملكه ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدين فليأتياني بهِ فاختار باذان رجلين ممن عنده بكتاب الى رسول الله يأمره ان ينصرف معهُ الى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي صلى الله عليهِ وسلم قال له احدهما ان شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يأمره ان يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي وقالا قولاً تهديدياً. في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على ابيهِ فقتله واخذ الملك لنفسهِ وعلم رسول الله الخبر من لوحي فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول انا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له ان ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي الى منتهى الخف والحافر وقولا له انك ان اسلمت اعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فاخبراه الخبر و بعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيهِ وقال له شيرويه في كتابهِ انظر الرجل الذي كان كتب فيهِ أبي اليك فلا تهجهُ حتى يأتيك امري وكان ذلك سبباً في اسلام باذان ومن معهُ من اهل فارس باليمن وهم الابناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بمارية القبطية ام ابراهيم فكان بذلك الرحم التي بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامري الى هوذة بن علي الحنفي وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي صاحب البحرين وعمرو بن العاص الى جيفر بن جلندى واخيهِ عباد الازديين

بذلك كان عليهِ السلام قد بلغ الدعوة الى اكثر ملوك الأرض يعلمهم بدعوتهِ ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الاعلان سبباً في اجابة بعض وشاغلاً لفكرة الآخرين فلم يلحق بربهِ الاَّ ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعتهُ وانقادت لدينهِ وفي غيرها عرف اسمهُ ودينهُ وعلم بهِ الرؤوس والسادات



المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول واخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

صفته واخلاقه وبيته

مما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الاسلامية على يدي محمد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ما امتاز بهِ من جمال خلقهِ وكمال خُلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج الى دليل على صدقهِ فوق ما هو معروف عنهُ من الفضائل فقد قالت له خديجة حينما اخبرها بأمره أول مرة ما كان الله ليخزيك ابداً انك تحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الحق . الأخلاق الفاضلة في الداعي مِلاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فانهُ يستحيل ان ينال بالشدة قلب لهذا رأينا ان نوضح لكم ما كان عليهِ الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروى عنهُ عليهِ السلام بنى الدين على النظافة وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى انهُ لم يكن يمر في طريق فيتبعهُ أحد الاَّ عرف انهُ سلكه من طيبهِ وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء — لا مرية انهُ عليهِ السلام كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلاً عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمهِ لأول بديهة . ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب الى افرادها من آبائهم وابنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج بعد معونة الله وتوفيقهِ الى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول — كان عليهِ السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها ويحاورها بلغتها ليس كلامهُ مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في

المأثور من كلامهِ الجامع ومنهُ ما لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة نحو قوله لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له — الناس معادن — ما هلك امرؤ عرف قدره — المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم — رحم الله عبداً قال خيراً فغنم او سكت فسلم — ان احبكم اليَّ واقربكم مني مجالس يوم القيامة احاسنكم اخلاقاً الموطئون اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون — ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله — اتقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن — الظلم ظلمات يوم القيامة وهذا قليل من كثير . قال له اصحابهُ يوماً ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال وما يمنعني وانما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى انا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذي مدده الوحي

الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره — صفات أدبهُ الله بها فقال له (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد بيّن له الوحي معناها بقوله ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك ان ذلك لمن عزم الامور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) ولا خفاء بما يؤثر من حلمهِ واحتماله . كل حليم قد عرفت منهُ زلة وحفظت عنهُ هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى الاَّ صبراً وعلى اسراف الجاهل الاَّ حلماً قالت عائشة ما خيّر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في أمرين قط الاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن اثماً فان كان اثماً كان

أبعد الناس عنهُ وما انتقم لنفسهِ الاَّ ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لو دعوت عليهم فقال اني لم ابعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمةً اللهمَّ اهدِ قومي فانهم لا يعلمون فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما اريد بها وجه الله لم يزده في جوابهِ ان بيّن له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل ان لم أعدل خبت وخسرت ان لم أعدل ونهى من اراد من اصحابه قتله . لم يؤاخذ عبد الله بن ابي واشباههُ من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهتهِ قولاً وفعلاً بل قال لمن اشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمهِ وصبره وعفوه عند المقدرة اكثر من ان نأتي عليهِ وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما اظفره الله عليهم وحكمهٔ فيهم ما زاد على ان قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان عليهِ السلام أبعد الناس غضبا واسرعهم رضا

الجود والكرم — كان عليهِ السلام في هذا الخلق لا يبارى بهذا وصفهُ كل من عرفهُ قال جابر ما سئل عليهِ السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان اجود الناس بالخير واجود ما يكون في شهر رمضان وكان اذا لقيهُ جبريل اجود بالخير من الريح المرسلة وعن أنس ان رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع الى بلده وقال أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة واعطى غير واحد مئة من الابل وهذه كانت حاله قبل النبوة

وحمل اليهِ تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليهِ فكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش اقلالاً فتبسم صلى الله عليهِ وسلم وعرف البشر في وجههِ وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة — كان عليهِ السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفرعنهُ الكماة والأبطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع الاَّ وقد احصيت له فرة وحفظت عنهُ جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلتهِ والناس يفرون عنهُ وهو يقول انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب فما رؤي أحد يومئذٍ كان أشد منهُ وكان اذا غضب ولا يغضب الاَّ لله لم يقم لغضبهِ شيء وقال علي كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليهِ وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منهُ . فزع اهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عُرْى والسيف في عنقهِ وهو يقول لن تُراعوا

الحياء والاغضاء — كان عليهِ السلام أشد الناس حياء واكثرهم عن العورات اغضاء قال ابو سعيد كان عليهِ السلام اشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة كان النبي صلى الله عليهِ وسلم اذا بلغهُ عن أحد ما يكرههُ لم يقل ما بال فلان يقول

كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون او يقولون كذا ينهي عنهُ ولا يسمي فاعله وروي انهُ كان من حيائهِ لا يثبت بصره في وجه أحد وانهُ كان يكني عما اضطره الكلام اليهِ مما يكره

حسن العشرة والادب وبسط الخُلق مع أصناف الخَلق — قال عليّ في وصفهِ كان عليهِ السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة واكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فلما أراد ان ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليهِ بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليهِ السلام اركب فأبيت فقال اما ان تركب واما ان تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائهِ نصيبهُ لا يحسب جليسهُ ان أحداً أكرم عليهِ منهُ مَن جالسهُ أو قاربهُ لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنهُ ومَن سأله حاجة لم يرده الاَّ بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطهُ وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منهُ وكان يجيب مَن دعاه ويقبل الهدية ويكافىء عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم عشر سنين فما قال لي أُفّ قط وما قال لشيء صنعتهُ لم صنعتهُ ولا لشيء تركتهُ لم تركتهُ وكان يمازح أصحابهُ ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة

ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليهِ وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليهِ في الجلوس عليها ان أبى ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعهُ بانتهاء او قيام ويروى انه كان لا يجلس اليهِ أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان اكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليهِ قرآن او يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة . وصفهُ الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليهِ ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . روي ان اعرابياً جاءه يطلب منهُ شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت اليك يا اعرابي قال الاعرابي لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليهِ فأشار اليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت اليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليهِ وسلم انك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان العشي جاء فقال عليهِ السلام ان هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم انه رضي أكذلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليهِ السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليهِ فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى

عليها وأني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وروي عنهُ عليهِ السلام انه قال لا يبلغني أحد منكم عن أحد من اصحابي شيئاً فاني أحب ان أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم — قال عبد الله بن ابي الحمساء بايعت النبي صلى الله عليهِ وسلم ببيع قبل ان يبعث وبقيت له بقية فوعدتهُ ان آتيهُ بها في مكانهِ فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانهِ فقال يا فتى لقد شققت عليَّ انا ههنا منذ ثلاث انتظرك . وقال انس كان عليهِ السلام اذا أُتي بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة انها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة . دخلت عليهِ امرأة فهشَّ لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال انها كانت تأتينا ايام خديجة وكان يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال ان آل ابي فلان ليسوا لي بأولياء غير ان لهم رحماً ماسة سأبلّها ببلالها . ولما قدم وفد النجاشي قام عليهِ السلام بنفسهِ يخدمهم فقال له أصحابهُ نحن نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني أحب ان اكافئهم . وكان يبعث الى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعتهِ بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليهِ السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبرا . عن أبي امامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم متوكئاً على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابهِ مختلطاً

بهم حيثما انتهى بهِ المجلس جلس وكان يدعى الى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليهِ قطيفة لا تساوي اربعة دراهم فقال اللهمَّ اجعله حجاً لا رياء فيهِ ولا سمعة هذا وقد أهدى في حجهِ ذلك مئة بدنة . ولما فتحت عليهِ مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسهُ حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى . ومن تواضعهِ قوله لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى . ودخل عليهِ رجل فأصابتهُ من هيبتهِ رعدة فقال له هوّن عليك فاني لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة — كان عليـهِ السلام آمن الناس وأعدلهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوتهِ الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في الجاهلية قبل الأسلام وروى عن علي ان أبا جهل قال له أنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت بهِ وفي ذلك قال الكتاب فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ارضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيهِ الشيب وجاءكم بما جاءكم بهِ قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر . وفي حديث عليّ في وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لا يأخذ أحداً بقرف أحد ولا يصدق أحداً على أحد أي لا يسمع وشاية الواشين وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى

الله عليهِ وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به مجلسهُ مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيهِ الاصوات ولا تؤبن فيهِ الحرم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليهِ السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليهِ الكتاب فقال مخاطباً له (وانك لعلى خلق عظيم) وكانت هذه الخلال مما قرب اليهِ النفوس وحببهُ الى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله افواجاً مناصرين وازرين ولو لم يكن له الا ذلك مما يثبتهُ التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقهِ فضلاً عما أيده الله بهِ من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منهُ عليهِ السلام ومن زوجهِ خديجة بنت خويلد الاسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها . وقد كان لهُ منها أبناء وبنات فاما الابناء فلم يعش منهم أحد فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى بهِ عليهِ السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر. وأما البنات فكنَّ أربعة زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة — فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة

ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معهُ حتى هاجر عليهِ السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب في فدائهِ قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالاً فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضي بذلك المسلمون وأخذ عليهِ السلام عهداً على أبي العاص ان يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص الى مكة سرح زينب حتى اذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً الى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معهُ فلما فرغ من تجارتهِ عاد الى مكة بعد خطب طويل ورد المال الى أهله ثم عاد الى المدينة مسلماً فرد النبي صلى الله عليهِ وسلم اليهِ زوجه زينب ويقول المؤرخون انهُ لم يحدث زواجاً جديداً وانما ذلك بالعقد الأول . وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب

وبعد موت خديجة تزوج عليهِ السلام بعدة زوجات كان يتألف منهنَّ بيتهُ بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليهِ وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهنَّ

كان عدد من عقد عليهنَّ ثلاث عشرة امرأة منهنَّ تسع مات عنهنَّ واثنتان توفيتا في حياته احداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وها هي اسماؤهنَّ

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكراً ويقال انها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان او تسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) ام سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد

(٥) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب من بني أمية وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش

وهؤلاء الخمس كلهنّ من قريش تضاف اليهنّ خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون — عبد مناف — اسد بن عبد العزى — مخزوم بن يقظة — تيم بن مرة — عدي بن كعب — عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته وكانت قبله تحت زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للنبي صلى الله عليهِ وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول ان يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس انه لم يعد للتبني حرمة وكان عليهِ السلام يخشى اعتراض اعدائه عليهِ لأن عمله هذا يخالف ما اطبقت عليهِ عامة العرب فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة (واذ تقول للذي أنعم الله عليهِ

وأنعمت عليـهِ أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهنَّ وطراً وكان أمر الله مفعولا) فبينت الآية انه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب ان يفارقها — وتخفي في نفسك ما لله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهـذا هو الذي أبدته الآية — وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه — تخشى الناس ان يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه — ثم أبدى ما أمر بهِ وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد ولقد هدم قاعدة التبني قولا كما هدمها فعلاً فقال ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله وقال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وهي التي عتق بسبب زواجها هذا من كان أسر أو سبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بني هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى من بني عامر بن لؤي

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بني اسرائيل وكانت قبله عند كنانة بن أبي الحقيق

وهؤلاء التسع هنَّ اللاتي توفى عنهنَّ

(١٠) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وهذه توفيت في حياتهِ

هؤلاء احدى عشرة سيدة تزوجهنّ الرسول وبنى بهنّ منهنّ ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبنِ بهنّ . وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها ابنهُ ابراهيم الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياة أبيهِ وكان يقال لزوجاتهِ امهات المؤمنين سماهنّ بذلك الكتاب فقال (وأزواجه امهاتهم)

يظهر لنا انهُ كان للنبي صلى الله عليهِ وسلم رأي في ان يجمع في بيته نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهنّ فان الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة اكبر مساعد له ومبعداً عنهُ أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة صاهر اكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبني اسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهنّ كما في جويرية وزينب وصفية

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل احواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت حياته منهنّ كعائشة فانها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجدون في سورة الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

ختام القرآن

أعلن القرآن ان نزوله قد انتهى في يوم الحج الاكبر من السنه

العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليـه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة الا انها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي دار العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة)

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة ابتدأ عليهِ السلام بشكواه وكان مرضهُ الحمى فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فاذنّ لهُ ولما رأى شدة المرض خرج الى أصحابهِ فصعد المنبر وقال يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وان الأنصار على هيئتها لا تزيد وانهم كانوا عيبتي التي أويت اليها فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليهِ السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمـداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت ثم تلا هذه الآية وما محمد الاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيهِ فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين)

وحينئذٍ خرج أصحابه الى سقيفة بني ساعدة يأتمرون فيمن يخلفهُ حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليهِ السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصهِ وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً أفراداً دخل الرجال اولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الاربعاء وكان قد صنع لهُ لحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قمرية



المحاضرة الثامنة عشرة

— الخلافة —

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليهِ وسلم وظيفتان يؤديهما لأمتهِ (الاولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانيـة) كونه اماماً للمسلمين تجتمع اليهِ كلمتهم يوجههم الى الخير ويبعدهم عن الشر واليهِ القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى اليـهِ من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليهِ السلام بعد تشريع ما اراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد الاَّ البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية ان ساغ لنا أن نسميها

كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التي اختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم يرَ المسلمون بدًّا من اقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين . ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الأول) البيت الذي يكون منهُ الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق ان الكتاب لم يشر أي اشارة الى تعيين بيت او بطن او شعب يكون منهُ خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنهُ (الأئمة من قريش) كما أثر عنهُ اسمعوا وأطيعوا وان تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الاولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس اليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز علي من بينهم بسبقه الى الاسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بانهُ العاصب الوحيد له ان كان هناك ارث

رأي عدم التخصيص كان للأنصار فانهم كانوا يريدون ان يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وان لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطري بن الفُجاءة وليس من قريش وانما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون ان القصد من امامة المسلمين انما هي توجيههم الى الصلاح وابعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك الى بيت او قبيلة بل الى ما في الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن وهي (ان اكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأي التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأياً للجمهور لما رواه لهم ابو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين ابو بكر طرفاً من علة هذا التخصيص بقوله ان هذا الأمر ان تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وان تولتهُ الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب الاّ لهذا الحي من قريش ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه ان السر في تخصيص قريش بالخلافة انما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فاذا كان الخليفة منهم لا ينتظر ان يعارضهُ احد من القبائل الأخرى مهما كان قدره عظيماً وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة

مبنية على العلل والحكم في كل زمان بحسبهِ كان من الممكن ان تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعهُ وكان يرى نفسهُ أحق بالخلافة من سواه لقرابتهِ من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كما صرح بذلك في حديث له مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسهِ أذعن لرأي الجمهور

مكث الرأي الأوسط سائداً والأخير خامداً لا يجد له محركاً حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الاسلامية دعاة له ينبهون الناس اليهِ ويقبحون من خالفهُ اذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الاحساس فسرعان ما تنبه وكان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنهُ قام في وجههِ نصف الأمة قادماً اليهِ من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها اقرار الأمر في نصابهِ من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة واحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من بني هاشم

عادت فكرة الشيعة الى الخمود ولكن السيوف وان كانت تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً اذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل

ما زال أبناء علي يرون هذا الحق لهم ارثاً لا ينازعهم فيهِ الاّ ظالم

وتمنى قلوب شيعتهم ان ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتمثيلا الاّ ان هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لأنهُ كان يعطي الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون بها العيون فما كان اكثر ما يقولونهُ من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معفراً بدمائهِ بكربلاء بعد ان اذيق من العطش الكروب وأهل بيتهِ يساقون سبايا الى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بني أمية حتى ينقاد الناس الى من يدعوهم للقيام الى رد الحق لأهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاق الخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس وجدت عندهم فكرة الدعوة الى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنهُ أدلى بالأمر الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس مع اضافتهم الى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراساني فتم لهم الأمر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنهُ كان يدعو الناس الى الرضا من أهل البيت ولا يصرح باسمهِ ولا بنسبهِ مما يدل على أن الأمة كان توجهها الى علي وأهل بيتهِ اكثر من توجهها الى بني العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عباس

عاد الاصطدام حينئذٍ بين البيتين العلوي والعباسي فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل الى واحد من بني علي كافياً لاتلاف نفسهِ ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم

الاّ أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيتهِ للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بني العباس كما كانوا يخرجون على بني أمية والعاقبة القتل والتشريد . وحينئذٍ بدت لبعضهم فكرة الخروج الى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالمشرق سكت على ما في نفسهِ

ذهب الفارون الى أفريقية بعد ان سبقتهم دعاتهم فأسسوا بها دولاً علوية لها كبير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتي ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم في السر حتى كان شيءٌ من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية فان ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر الى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان اذ ذاك في الممالك الاسلامية لمصر وملوكها فساعدوا على اعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولاً لا يتكلم الناس فيهِ وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منهُ خليفة المسلمين

شكل الانتخاب

لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم اللهمَّ الاَّ تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الاَّ بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت ان تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرها . ولننظر ما سار عليهِ المسلمون في ذلك وها هي طرائقهم

(١) الطريقة الأولى طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر بعد حوار وجدال ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج الى السرعة في البتّ حذر الاختلاف والفشل ويظهر ان المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق الى الاسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في الهجرة فضلا عما عرفهُ الصحابة من تقديم الرسول اياه ليصلي بالناس نيابةً عنهُ في وقت مرضهِ ولذلك لما اقترح أبو بكر ان يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب او أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الأمر بسرعة فمد يده الى أبي بكر

فبايعهُ فتابعهُ الناس وقد أُثر عن عمر انه قال ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها قال ذلك لما علم ان بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلاناً . مضت هذه البيعة من غير ان يتبين للناس البيئة التي لها الحق في انتخاب الخليفة الاّ انها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية ان يعهد الخليفة الموجود الى شخص آخر بعده بالخلافة وهي الطريقة التي كان بهـا انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترتهُ فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة طريقة الاختيار الشوري من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بهـا عثمان بن عفان فان عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفهُ يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنهُ لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون بهِ الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبيـة الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها والاّ اعتبر خارجاً يستحق القتل واذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيهِ عبد الرحمن بن عوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نرَ في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها . لا ينكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنهُ لم يكن القصد منهـا أخذ رأي الجمهور فيمن

يكون خليفة عليهم وانما المقصود ان تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبو الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا ان عمر كان محساً بأن كلاً منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد اليهم عهده ونظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع من عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أهم الأمة بأسرها أم هم أفراد مخصصون وان كانوا مخصوصين فمن هم وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ولكن من هم أهل الحل والعقد أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علي . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبهُ الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وان كان من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز . والطريقة الثالثة في حقيقة الأمر كالثانية اذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد الى واحد غير معيّن من أفراد محصورين يختارهم الامام

لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين في الحواضر الاسلامية كأن أهل المدينة وحدهم هم الذين ينتهي اليهم

أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معهم رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى . كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسهُ لهـا أهلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنهُ مخالف لأن بيعة علي ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا الى شيء سموه تحكيماً ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبهِ وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الاسلاميـة بأسرهـا ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك الى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنهُ أوجد للمتنازعين خصماً ثالثاً قوي الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقاً من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم الاّ لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معيّن من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كوّنوا لهم جماعة أعطوها الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بالانتخاب ورأوا ان جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة ولذلك تطرق اليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لأنفسهم ولا لغيرهم

بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة . انتهى أمر علي واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوتهِ وسياستهِ ويسميهُ التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة علي بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعهُ فريق من الناس وعلي بايعهُ فريق آخر ومن الضروري ان يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال ان أحدهما تعداها الاَّ ان سرنا على رأي من يقول ان علياً معيّن للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحتهِ

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذي يعينهُ كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر الاَّ ان بينهما فرقاً وهو ان أبا بكر اختار رجلاً ليس من ذوي قرابتهِ بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب اولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد الى ولده يزيد ولكنهُ امتاز في عهده بأن طلب من ولاة الأمصار ان يوفدوا اليهِ وفوداً من امصارهم يعرض عليهم اختيار ولي عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة الاَّ من لهم هوى في بقاء الأمر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديهِ بدمشق عرض عليهم الأمر وأنهُ يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد ان تكلم متكلموهم بالثناء عليهِ وكان البادئون بذلك قوماً لهم علم بما عزم الخليفة عليه ونابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موتهِ بيزيد وبايعوه بولاية العهد الاَّ أنهُ كان هناك من هو أكبر من يزيد من كبار الصحابة من قريش ولهم

فوقهُ شرف الصحبة فلم يخضعوا لارادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد الى ابنـهِ معاوية الاَّ ان الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبـل الأمة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الامر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهد بالخلافة من بعـده لاثنين من أولاده يتلو احدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهي أول مرة ولي العهد فيها اثنان(١)

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت

---

(١) ومن الغريب انهُ ما من مرة ولي فيها اثنان الا كانت نتيجة سيئة من جراء ذلك فان اولهما كان يميل الى نزع ثانيهما اما لانهُ يتوهم انهُ يجتهد أن يتعجل الأمر لنفسه ولا يكون ذلك الا بهلاك الاول واما لأن الأول يفضل ابنه على اخيه أو ابن عمه الذي جعل ولي عهد له فيجتهد في نزعه واقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم اخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا ان عوجل لأخرجها عنـهُ بل عن بني أمية جميعاً وولى يزيد اخاه هشام ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد حتى ساءت اخلاقه وولى السفـاح عهده اخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى ابن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدي . وولى المهدي ابنيـه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا انهُ عوجل وولى الرشيد ابنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما ادى الى قتل الأمين ومن الغريب ان اللاحق لا يتعلم مما اصاب السابق

خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط الا انهُ في عهد الضعف الذي استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير الى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين بهِ الناس من استحقاق القوم للخلافة لآل أمرها الى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم في مصر والشام الا انهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى ان الظاهر بيبرس البندقداري ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسهُ ليس بذي عهد من خليفة ساعد على اثبات نسب احد الوافدين عليهِ المنتسبين الى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليهِ الملك نيابة عنهُ

جاء البيت العثماني وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الاسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت ومع هذا لم يخلُ الأمر من طموح غير الاكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم الى أن تكون فاتحة اعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فان نظامهم حفظ الملك في بيتهم اكثر مما حفظه في أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فانهُ كان منظوراً فيهِ الى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا علياً ومن يليهِ الأئمة وكانوا

أثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف فتفرقوا في ذلك فرقاً

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الأزمان الاّ بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافراً ولم يلتفت احد من هؤلاء ان يسعى في جمع الكلمة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأي الشيعة فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليهِ المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الامام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور او من طريق العقل كما هو رأي المعتزله والزيدية او من طريقهما معاً كما هو رأي بعض المعتزلة او على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأي الامامية او على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأي الاسماعيلية او لا يجب كما هو رأي الخوارج او يجب عند الأمن لا عند الفتنة كما هو رأي هشام الغوطي وأتباعه او يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأي الأصم ومن شايعه من المعتزلة

(٢) شروط الامام وقد عدوا منها شروطاً لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم

بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ما تثبت بهِ الامامة وهو النص من رسول الله أو من الامام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافاً للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر الى اجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة او لا يجوز وهل يجوز خلعه ولأي شيء يكون ذلك

(٤) من هو الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أهو أبو بكر أم علي

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم

(٦) ما حكم امامة المفضول مع وجود الفاضل

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة في بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالاَ لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم

والخلاصة أن مسألة الخلافة الاسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيهِ العثار بل كان تركها على ما هي عليهِ من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدافع عنهُ سبباً لأكثر الحوادث التي أضنت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشرة

انتخاب أبي بكر – اول خطاب له – ترجمته – اخلاق أبي بكر – اخبار الردة

انتخاب أبي بكر

كانت الأنصار منقسمة الى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج اكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بني ساعدة وهو احد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره. فلما توفي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الأنصار في تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً الى اختيار سعد بن عبادة فان سعداً خطب فيهم مبيناً ما للأنصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وانهُ لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الأمر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبي ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا تقول لهم فقال له آخر تقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا الى السقيفة مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه في نفسهِ

ليقوله في هـذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك وكان أبو بكر رجلاً وقوراً فيهِ أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر الأَّ ذكره ثم روى لهم ما أُثر عن الرسول عليهِ السلام من قوله الأئمة من قريش ثم قال فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور فلما أتم خطابهُ قام اليـهِ الحباب بن المنذر وهو من بني جُشَم بن الخزرج فقال يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فان الناس في فيئكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس الأَّ عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وانمـا ينظر الناس الى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقص عليكم أمركم أبى هؤلاء الأَّ ما سمعتم فمنـا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان في قَرَن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقاله هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال انا جُذَيْلها (١) المُحَكَّك وعُذَيقها المُرَجَّب اما والله ان شئتم لنعيدنها جَذَعة فكان بينـهُ وبين عمر حِوار ثم قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار انكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الأنصـار انا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا بهِ الاَّ رضا

(١) تصغير الجِذْل عود ينصب للجربى لتحتك بهِ والعُذَيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد اليهِ

ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي بهِ من الدنيا عرضاً فان الله ولي المنة علينا بذلك الا ان محمداً من قريش وقومه أحق بهِ وأولى وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر ابداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هـذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هـذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له ان يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده اليهِ فبايعهُ ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت أنفست على ابن عمك الامارة قال لا والله ولكني كرهت ان انازع قوماً حقاً جعله الله لهم

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو اليـهِ قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعـد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حُضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليهِ فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هـذه البيعة الا علي بن أبي طالب ومن معهُ لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله صلى الله عليهِ وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعهُ وكان كبار الصحابة

كلهم اذ ذاك في المدينة . ولم يزل علي بن أبي طالب ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فارسل الى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم ان يفعلوا بي والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقهُ الله اليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحبّ اليّ ان أصل من قرابتي وبعد ان أتم كلامهُ قال علي لأبي بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقي على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر علي وتشهد فعظم شأن أبي بكر وانهُ لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا انكار للذي فضله الله بهولكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فسرّ بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا الى علي قريباً حينما راجع الامر بالمعروف

أول خطاب لأبي بكر

بعد ان تمت بيعتهُ قام في الناس خطيباً [1] فقال أيها الناس قد وليت

---

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها ما لأنفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم اجمالاً

عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقهُ والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منهُ ان شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعهُ قوم الاَّ ضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله .

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافتهِ أخبرهم بواجب عليهم وهو اعانتهُ وحق لهم وهو تقويمهُ اذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريتهم في القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعهُ قوة الظالم أن ينصف منهُ المظلوم ولا يمنعهُ ضعف المظلوم ان ينصفهُ من ظالمهِ — حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منهُ — أخبرهم انهُ خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تَيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وأمهُ ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تَيم بن مرة وُلد لسنتين من عام الفيل وشبَّ على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكَلَّ ويكسب المعدوم وكان محبباً الى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفهُ غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالتهِ كان أبو بكر أول رجل اجابهُ حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ما دعوت احداً الى الاسلام الاَّ كانت له كبوة غير أبي بكر وكان له في الدعوة الى الاسلام اليد الطولى

وقد أراد ان يهاجر الى الحبشة حينما اشتد ايذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنّة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط ان لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدّاً من أن يتخلص من هذا الشرط ردّ على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً ان يصيبهُ ما يصيب اخوانه . لما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين اذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الاسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليهِ وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليهِ السلام أمره ان يقوم مقامهُ في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤى فولدت له عبدالله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام — وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بني غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله صلى الله عليهِ وسلم — وتزوج في الاسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد ان قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً — وتزوج في الاسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم . فذكور اولاده ثلاثة واناثهم ثلاثة

أخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحا وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه واذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فانا نجد أطهر أخلاقه

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الانسان في الأمر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره ان كان شورياً فاذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيهِ شيء عما عزم عليهِ حتى اذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقاً هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التي تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه الى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الانسان متردداً في اموره حسب المؤثرات التي تنال نفسه فاذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

اول ما ظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منهُ في بعث أسامة . قبيل مرض الرسول صلى الله عليهِ وسلم هيأ بعثاً ليرسله الى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة وكان في هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليهِ السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذٍ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم في تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الاباء وصمم على تنفيذ البعث مهما كانت النتيجة ولو كان قد تردد في الأمر أو أخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر بهِ الرسول أمراً حتماً وكان يدور على لسانه

وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم كلم في أن يغير أسامة برجل أسن منهُ يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليهِ رسول الله ويعزله أبو بكر واشتد في الكلام مع عمر الذي كان يكلمهُ في ذلك عن بعض الأنصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وتأمرني أن أنزعهُ . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبدّ على رئيس السرية بابقائهِ بل قال لأسامة ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع الى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماماً واعتبر ان أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له ان يفتات عليهِ . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي

لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاةَ ولا بقرة ولا بعيراً الاَّ لمأكلة وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله[1]

---

(١) في لسان العرب . وفي الحديث انهُ أوصى امراء جيش مؤتة — وستجدون آخرين للشيطان في رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف اي ان الشيطان قد استوطن

فسار أسامـة وشنّ الغارة على بلاد قضاعـة واخافهم وغنم منهم واستمر في بعثهِ اربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا بهِ قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على مَن بعد عنهم من القبائل القوية

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منهُ في أخبار الردة

أخبـار الردة

قدمنا ان كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاء المطلوب وقد بيّن الكتاب ذلك بقولهِ في سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا ان موت الرسول صلى الله عليـهِ وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيهم دعاة يدعون الى أنفسهم مدعين انهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله . فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين

رءوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم اذا وصفوا انساناً بشدة الغي والانهمـاك في الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش وفي حديث ابي بكر وستجد قوماً فحصوا عن اوساط رءوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنهُ بالسيف وفي الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها

خرجوا من الدين وحاربوه بعد ان دخلوا فيهِ مع ما يعلمهُ من هذا الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيهِ معظم القوة وكانت جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينـة وكان قصده بذلك ان يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهمَّ بالخروج فيمن معهُ من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون ننشدك الله ياخليفة رسول الله ان تعرض نفسك فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فان أصيب بعثت آخر فقال لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي فخرج في تعبيتهِ حتى نزل على أهل الرَّبذَة بالأبرق فاقتتل جنده مع بني عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر اسيراً وأقام ابو بكر بالأبرق أياماً وقد غلب بني ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الرَّبذة الناس ثم عاد ابو بكر الى المدينة فلما استراح جنـد أسامة خرج الى ذي القصة فنزل بهم وذو القصـة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم احد عشر لواء لأحد عشر اميراً وهم

(١) خالد بن الوليد ووجهتهُ طليحة بن خويلد الأسدي ببزاخة فاذا فرغ منهُ قصد مالك بن نويرة بالبطاح

(٢) عكرمة بن أبي جهل ووجههُ الى مسيلمة باليمامه

(٣) ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة

(٤) المهاجر بن أبي أمية ووجههُ الى جنود الأسود العَنْسي بصنعاء ومعاونة الأبناء

(٥) حذيفة بن محصن ووجهتهُ اهل دَبا بعمان

(٦) عرفجة بن هرثمة ووجهتهُ اهل مهرة وأمر هـذا ومن قبله ان يجتمعا وكل امير على صاحبهِ في عمله

(٧) سويد بن مُقَرّن الى تهامة اليمن

(٨) العلاء بن الحضرمي ووجههُ الى البحرين

(٩) طريفة بن حاجز ووجههُ الى بني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) عمرو بن العاص ووجههُ الى قضاعة

(١١) خالد بن سعيد ووجههُ الى مشارف الشام

وبعد ان عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) ارسله اليهم قبل ان تسير الجنود قال فيهِ بعد ان بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينهِ بعد ان أقرَّ بالاسلام وعمل بهِ اغتراراً بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان قال الله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاَّ ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريتهُ اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً) وقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا انما يدعو حزبهُ ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد بعثت اليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وأمرتهُ ان لا يقاتل احداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وأقرَّ وكف وعمل صالحاً قبل منهُ واعانه عليهِ ومن أبى امرت ان يقاتله على ذلك ثم

لا يبقي على احد منهم قدر عليهِ وان يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من احد الاّ الاسلام فمن اتبعهُ فهو خير لهُ ومن تركه فلن يعجز الله وقد امرت رسولي ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان فاذا أذن المسلمون فأذنوا كفّ عنهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي) فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم اول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم

وكتب الى القواد عهداً صورتهُ واحدة وهو هذا

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لفلان حين بعثهُ فيمن بعثهُ لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليهِ أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنهُ ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان بعد أن يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب الى أمر الله عزّ وجلّ وأقرَّ له قبل ذلك منهُ واعانه عليهِ بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الى الدعوة لم يكن عليهِ سبيل وكان الله حسيبهُ بعد فيما استسرَّ بهِ ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه الا الاسلام فمن أجابه وأقرّ قبل منهُ وعلمهُ ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليهِ قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء

الله عليهِ الا الخمس فانه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول

طليحة ومالك بن نُويرة

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بعد انصرافهِ من حجة الوداع فسولت لهُ نفسهُ ان يدعي للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأى لنبي قريش فدعا الى ذلك قومهُ من بني أسد فشايعوه والتفت عليهِ طيئ لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطفان الاَّ ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيئ بارض نجد . وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر ان يذهب الى قومهِ فأذن له فقدم عليهم وصار يفتلهم في الذِّروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفهُ عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فانا ان خالفنا طليحة وهم في يديهِ قتلهم او ارتهنهم فاستقبل عدي خالداً وقال له أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك ففعل خالد ثم عاد عدي الى قومهِ وقد ارسلوا الى اخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ثم راجعوا الاسلام فعاد الى خالد وأخبره ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش الف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة واصطدم الجيشان

اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصن الفزاري بالضعف جاء الى طليحة وهو ملتف بكسائهِ فقال له ألا ترى مايصنع بنا فهل جاءك ذوالنون بشيء قال نعم قد جاءني وقال ان لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعهُ ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين زعمت أنهُ أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياماً فان الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمهُ الاسلام كلهُ فلا تعنيف عليَّ ببعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم امراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليهِ الله فأرسل الزكاة الى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينا هم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته الى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء

من تميم وهم الذين يخالفونهُ ثم أرسلت الى وكيع بن مالك سيد بني مالك ابن حنظلة تدعوه الى مثل ما دعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدءُون فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرّباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعوّلت على المسير الى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد ابن الوليد في جيوشهِ فتفرقت جموعها وعادت الى الجزيرة وحينئذ ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحيّر في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها الى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البُطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءتهُ بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معهُ وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما اكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة مالك بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان في سيف خالد رَهَقاً فان يكن هذا حقاً حق عليهِ أن تقيده واكثر عليهِ في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وَزَعته فقال هبهُ يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكاً وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبي بكر كما كانت تدفعها الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم .

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس الى اتباعهِ وكان من طلبهِ ان يكون نصف الأرض لقريش ولبني حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . فلما وجه أبو بكر الجيوش الى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما ان يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلاً من عكرمة وشرحبيل وجهاً آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد ان انتهى من مالك بن نويرة ليسير الى اليمامة وانتدب معهُ قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ اربعين ألفاً لأن اكثرها اتبعهُ عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد ان مسيلمة كذاب وان محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيهِ بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوي الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كرُّوا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة اشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحهُ عنهم مُجَّاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفي بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد ارسل الى خالد ان يقتل

مقاتلتهم فجاءه الكتاب بعد ان كتبت شروط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليهِ ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليهِ والاقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً الى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليهِ ويحكم ما هذا الذي استزل منكم ما استزل قالوا يا خليفة رسول الله قد كان الذي بلغك مما أصابنا كان امرأ لم يبارك الله عزّ وجلّ له ولا لعشيرته فيهِ ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم ان هذا لكلام ما خرج من إلٍّ ولا برّ فأين يذهب بكم. وقد أقام خالد بعد فراغ الأمر في وادٍ من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والاسود العنسي

لما اسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليهِ وسلم باذان الذي كان عاملا لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليهِ السلام ابنهُ شهرا والياً على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها الى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل في هذه الولايات. قبل وفاة الرسول قام رجل من عنس احدى قبائل قحطان اسمهُ الاسود فتنبأ وتبعهُ قوم من أعراب اليمن سار بهم الى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجهِ ودخل معهُ عوام مَذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهرا واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجهِ فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وكان أهل اليمن في أمره قسمين فقسم يتقيهِ وهو على اسلامهِ وقسم تابعه وارتد عن دينهِ . فارسل عليهِ السلام كتاباً على بد

وَبر بن يُحنّس الى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيهِ بالقيام على دينهم والنهوض الى الحرب والعمل في أمر الاسود اما غيلة واما مصادمة وان يبلغوا عنهُ من رأوا ان عنده نجدة وديناً . وقد صادف ذلك ان تغير الأسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادي فهو يخافهُ خوفاً شديداً ففاتحهُ الابناء في أمر اغتيال الاسود فاجابهم الى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الاسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز احد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذن وبذلك خلصت صنعاء والجَنَد من هذا الشر المستطير واتفق الناس ان يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا الى رسول الله بالخبر فوصل الرسول المدينة صبيحة اليوم الذي توفى فيهِ عليهِ السلام . وكان بين خروج الاسود ومقتله نحواً من اربعة اشهر

لما بلغ اهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم عادوا الى ما كانوا عليهِ من الخلاف وقادهم الى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر الى من بقي على اسلامهِ من رءوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن ابي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معدي كرب ثم ذهبت الى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا الى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحُطَم

كان عليهِ السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيهِ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين دأما عبد القيس فانها فاءت الى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المُعلّى حيث جمعهم فقال يا معشر عبد القيس اني سائلكم عن أمر فاخبروني ان علمتم ولا تجيبوني ان لم تعلموا . تعلمون أنهُ كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فان محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا اله الاَّ الله وان محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على اسلامهم أما بكر فانها تمت على ردتها يقودها الى ذلك الحُطَم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهَجَر ولم يزل كذلك حتى قدم عليهِ العلاء بن الحضرمي أميراً على الجند الذي سيّره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق بهِ ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الاسلام بجرانهِ في البحرين وكتب العلاء الى أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة الى الاسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر لردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الابطال

الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التي هاجت في جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليهِ وسلم فأطفأها ولبد عجاجتها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وان الانسان ليحار بادئ بدء في تعليل هذا الأمر ولكن اذا رجع الى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند واليهم في مواعيد قليلة لا يلبث ان تقر نفسه ويعترف لأبي بكر بأن لهُ نفساً هي أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد فلما نقم عليهِ ما كان منهُ من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب الى أبي بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منهُ غضباً شديداً ولم يكن هنالك هوادة في رجوعهِ الى خالد ثانية ونهيهِ عن أن يترك الجند لأي سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع لهُ مقامهُ العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبهِ فلم يفعل لأنه خاف الوهن واعتذر عنهُ بأنه تأول فأخطأ

انا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان التاريخ يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف. حصل ذلك في وقت استولى فيهِ الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلباً

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد
أبي بكر — غزو الفرس — غزو الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قوامهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وان كان للعرب ملك او رياسة فعلى انهم عاملون لغيرهم من الفرس او الروم حتى جاء الاسلام فكوّن منهم تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والغلب من قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئي دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودولة الأكاسرة هذه تكوّنت منذ وجد أردشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت من عهد اسكندر

المقدوني وكان ظهور أردشير بسنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك وامراء الأقاليم يسمى واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنو شروان الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لعهده رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وكان ملكاً عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى ابرويز وهو الذي أرسل اليهِ الرسول صلى الله عليهِ وسلم يدعوه الى الاسلام فرأى ذلك أمراً عظيماً أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منهُ أن يرسل اليهِ ذلك الداعي ليرى فيهِ رأيهُ وحصل عند ذلك أن قام عليهِ ابنهُ شيرويه فقتله واستلب منهُ تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايتهِ بعد أن أساء كثيراً الى أهل بيتهِ فولى من بعده ابنهُ اردشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهربراز مرابطاً بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولي أردشير من غير استشارته أقبل بجموعهِ الى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أردشير واستلب تاج الملك لنفسهِ ولم يكن من أهل بيت الملك الاَّ أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوماً من ولايتهِ ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز اخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جُشْنَسْده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليّت

آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التي جاءها رُستم وقتلها لقتلها أباه فَرّخهرمز اصبهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلاً من عقب أردشير بن بابك يقال له كسرى بن مِهر جُشْنس ولكن لم يبقَ ملكه الاّ أياماً وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها اكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم الى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر تيودوثيوس الذي ولي أمر الرومان الى سنة ٣٩٥ وجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنهِ ارقاديوس الذي ولي من سنة ٣٩٥ الى سنة ٤٠٨ وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الاسلامي هرقل الذي كان قبل ان يتولى الملك والياً في أفريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكاً حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

كانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد في هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالاً فمرةً يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل

الى شواطيءِ بحر الروم ومرةً يطغي عليهمُ الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يسقيان من تلك الأراضي الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع الى العهد الاسلامي ما حصل أولاً من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتى وصلت الى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ الى مصر فأخذوا اسكندرية . وقد أشار الكتاب الى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة ابان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض) ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلاً فان هرقل تنبه من غفلاتهِ سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايتهِ وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدتهُ ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذي

كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ما ذاقوه منهم قبلاً . ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيهِ ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم اسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب الى اورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي راسل فيها رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الملوك يدعوهم الى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت بأورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م هو ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد في ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال . وبعد ذلك عاد هرقل الى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الأُبُلّة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمُصَيَّخ وهو في شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب النعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب انذار يقول له فيهِ أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية والاَّ فلا تلومنَّ الاَّ نفسك فقد جئتك بقوم

يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرّق خالد جيشهُ ثلاث فرق وانعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوّهم والحفير ماء بالقرب من البصرة . لما بلغ الكتاب هرمز بعث به الى كسرى يعلمهُ وجمع جموعهُ ثم تعجل الى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغهُ أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها الى الحفير فعاج يبادرهم اليهِ وهناك عبي جيشهُ ولما أتى خالداً الخبر ان هرمز بالحفير عدل عنهُ الى كاظمة فلحقهُ هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليهِ مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للخبث . تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن اذ ذاك

كان كسرى قد أمدّ هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم اذ بلغتهُ هزيمة هرمز فتوقف بالمذار(١) وعسكر بهِ فسار خالد اليهِ على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا الى الجهة الشرقية وضموا اليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الأندرزَغر ففصل عن المدائن حتى أتى الوَلجة(٢) ثم أتبعهُ كسرى جنداً

---

(١) المذار بينها وبين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبة ميسان (٢) وهي في الشمال من المذار من ارض كسكر

آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم الى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل اليهم على تعبية بعد إن ترك خلفهُ حامية تحمي خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وه ادمهم هو من احداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمتهِ حتى مات في طريقهِ عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثيرٌ من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس . فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأُلَّيْس[1] وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار اليهم خالد وأوقع بهم وقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

ولما فرغ من أُلَّيس نهض الى أمغيشيا وهي بالقرب من أُليس وكان فرات بَادَقلَى ينتهي اليها فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة . لما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيشيا علم انهُ غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنهُ امامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيهِ حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيهِ وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه الأ والسفن جوانح فسأل عن السبب فأُعلم بهِ فتعجل خالد نحو ابن الأزاذبة حتى لقيهُ هو وجنده على فم فرات بادقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن

---

(١) قرية من قرى الانبار

لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا الى الصلح وأول من طلبهُ منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب بُقَيلة ثم تبعهُ بقية الرؤساء فصالحهُ على ١٩٠ الف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليهِ خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم بهِ عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الاَّ من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل او قول فالذمة منهم بريئة[1] وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ . ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الأعراب اسمهُ شويل كان أسلم على يدي النبي صلى الله عليهِ فسمعهُ ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليهِ السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا اليهِ كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فانهُ رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فاني سأفتدي منهُ فلما وصلت الى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادني قال لا الاَّ على حكمي قالت فلك حكمك فقال لست لأم شويل ان نقصتك

(١) يظهر ان هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن الاَّ أيام عمر

عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعهُ ثم أتتهُ بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليهِ الاّ أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العــدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بمــا يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحهُ على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومهُ اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة القوي على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله في كل سنة وانك قد نُقّبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والاّ فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ما تمَّ لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج(١) الى هرمز جرد(٢) على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً . ثم بعث خالد عماله ومسالحهُ منهم عمــال الخراج لجبايتهِ ومنهم امراء الثغور . وكتب في مقامهِ بالحيرة كتابين احدهما الى ملك فارس والآخر الى مرازبة الفرس ورؤسائهم وصورة الأول — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى ملوك فارس أما بعــد فالحمد لله الذي حلَّ

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلّوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من اطراف العراق

نظامكم ووهن كيدكم وفرّق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غيركم والاّ كان ذلك وأنتم كارهون على غلَب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . وصورة الثاني — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا والاّ فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية والاّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت الاّ المدافعة عن بَهرَسير وهي احدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربي من دجلة أمام الايوان الذي كان في الجهة الشرقية منها . فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلاً يولونهُ الملك وليس من بيتهِ الى ان يجدوا من آل كسرى من يولونهُ وهو الفرخزاذ ابن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لاغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع ابن عمرو وخرج حتى انتهى الى الأنبار [1] وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليهِ ويلحقهُ بمأمنهِ في جريدة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فأجابهُ الى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر [2] وبها يومئذٍ

---

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ (٢) بلدة قريبة

مهران بن بهرام جو بين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب واياد ومن لفّ لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران ان العرب أعرف بقتال العرب فدعنا وخالداً فقال له صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليهِ خالد في تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن الاّ قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة مهران هرب في جنده تاركاً الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فانهم رجعوا الى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم اربعين غلاماً يتعلمون الانجيل منهم نصير ابو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء

وجاء خالداً وهو بمقامهِ كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصرود فأرسل اليهِ خالد هذا الكتاب

من خالد الى عياض اياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف . ثم سار الى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم اكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منهُ ولا أحدّ في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا او كثروا الاّ انهزموا عنهُ فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليهِ فقال لن أمالئكم على حرب خالد

من الانبار غربي الكوفة وهي على طرف البرية

فشأنكم بخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينجُ منهم من القتل الاّ بني كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي وبعد أن أقام خالد قليلاً عاد الى الحيرة لما بلغهُ من تحرّك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين الى الحصيد[1] والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المُصَيّخ وهناك وافتهُ سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم فيها نكالاً ثم كانت له وقائع بالثّنى[2] والزُّمَيْل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليهِ الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن في الرجوع الى الحيرة لخمس بقينَ من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنهُ في الساقة ولكنهُ خرج من الفراض حاجاً معهُ عدة من أصحابهِ يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسَّمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأتَ لدليل أوريبال فما توافى الى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معاً وخالد وأصحابهُ مُحلِّقون لم يعلم بحجهِ الاّ من أفضى اليهِ بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك الاّ بعد فعتب عليهِ ووافاه كتاب أبي بكر بصرفهِ الى الشام منصرفهُ من

---

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيهِ سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربهِ الزميل

حجهِ الى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله اليهِ أبو بكر — سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجُوا وأشجوا واياك أن تعود لمثل ما فعلت فانهُ لم يُشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولئن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتم يتم الله لكَ ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك أن تُدِلّ بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة الى صفر من سنة ١٣ وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالي الأبلة الى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمهُ يسبقهُ الى كل موقعة أرادها وكان في كل عمله فاتحاً لا مغيراً فانهُ كان يعد حماة طريقهِ ليأمن أن يؤتى من خلفهِ وكان اذا افتتح بلداً أقام فيهِ أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنهُ أنهُ لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفتهِ بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان اذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمهِ فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخهِ ومما يبين عظيم عمله ما قاله الهيثم البكائي قال كان

أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم ويقولون ما شاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

﴿ غزو الروم ﴾

كان ارسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن ارسال خالد لافتتاح العراق فان أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن . فسارت هذه الجنود من الطرق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضاً وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الاسلامية اليهم اهتم بالأمر هرقل وكان نازلاً بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنهُ أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معهُ ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو ابن العاص ما الرأي فراسلهم ان الرأي الاجتماع وذلك ان مثلنا اذا اجتمع

لم يغلب من قلة واذا نحن تفرقنا لم يبقَ الرجل منا في عدد يُقْرِن فيهِ لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك[١] ليجتمعوا بهِ وكتبوا الى أبي بكر بمثل ما كاتبوا بهِ عمراً فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابهِ. بلغ ذلك هرقل فكتب الى قواده أن اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع العَطَن واسع المُطَّرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة[١] وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لِهْب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الاسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الاَّ عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم اللِهْب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنّى بن حارثة فخرج بمن استخلص من جند العراق نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبري ٢٤٠ ألف

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً ان هذا يوم

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الاردن (٢) واد في ارض حوران

من أيام الله لا ينبغي فيـهِ الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هـذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنهُ الرأي من واليكم ومحبتهُ قالوا فهات فما الرأي قال ان أبا بكر لم يبعثنا الاّ وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم. ان الذي أنتم فيهِ أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصهُ منهُ ان دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليهِ ان دانوا له ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني أليكم اليوم فأمروه فعبي خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش الى الى ثمانية وثلاثين كردوسا (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيهِ أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً يأتمر بأمر رئيس الميمنة او الميسرة او القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصاً يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك

اللهمّ ان هذا يوم من أيامك اللهمّ أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر براء من توجّيه وأنهم أضعفوا في العدد (الأشقر فرسه)

وخرجت الروم في تعبية لم يرَ مثلها فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمر ففعلا وكان القعقاع يرتجز

يا ليتني ألقاك في الطّراد قبل اعترام الجحفل الوَرّاد
وأنت في حلبتك الوِراد

ويرتجز عكرمة

قد علمت بهكنة الجواري أني على مكرمة أحامي

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى في تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان . وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبل خالد ومن معهُ على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمهُ عليهم فعمدوا الى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبري ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح

خالد وهو في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهل فانهُ كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فبايعهُ أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا الأمن برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسهُ على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسهُ على ساقهِ وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول كلاً زعم ابن الحنتمة انا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزم نخبة جيوشهِ هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينهُ وبين الجنود الاسلامية وقال سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيهِ خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن امارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائدا عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره الى أبي عبيدة ولم يذعهُ لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعهُ في كنانتهِ حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب الى أبي عبيدة وسلم عليهِ بالامارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحب اليَّ من عمر والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض اليَّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه

جيش عدتهُ اربعون ألفاً يغلب جيشاً فيهِ خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيهِ عن سبب ذلك الفوز والعدد الكثير مدرّب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون ان ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع . كان يمكن ان يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبأً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العَدد والمَدد ذلك ان الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الأول ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعهُ من الرسول عليهِ الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة . وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده . الثاني أنهُ واثق بالعاقبة في الأخرى فهو ان قتل كان شهيداً عاقبتهُ الحسنى وزيادة وان ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو احدى الحسنيين اما موت بعده سعادة واما فوز فيهِ فخر الدنيا واسعاد دينه أضف الى ذلك ما وفقوا اليهِ من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم اقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر . والى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمرّ اكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا بهِ أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

ادارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الادارة الاسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها الى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الامير اقامة الصلاة والفصل في القضايا واقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأن أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الامراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليهِ وسلم

(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليهِ وسلم

(٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي ولى فتحها بعد الردة

(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد

(٥) خولان وواليها يعلى بن أمية

(٦) زبيد ورِمَع وواليهما أبو موسى الأشعري

(٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل

(٨) نجران وواليها جرير بن عبد الله البجلي

(٩) جَرش وواليها عبد الله بن ثور

(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمي

اما العراق والشام فكانت لا تزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها

ولم يكن لأبي بكر وزير وانما كان عمر يلي القضاء وأبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره الى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفى عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم الاَّ التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالي ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحهُ ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذي فرضوا له في السنة ستة آلاف درهم (= بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً) ولما حضرتهُ

الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فاني لا اصيب من هذا المال شيئاً وان أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك الى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده فمن هذا يفهم ان المبدأ الذي اختطهُ أبو بكر هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيءٌ من التجارات عن النظر فيما وكل اليهِ من أمور العامة وأنهُ يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسهِ وكأن هذا المأخوذ كان فيهِ شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده الى بيت المال بعد وفاته

ارزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للمتازين وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحداً على أحد

ارزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويوزع ما بقي على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة أبي بكر

حمَّ أبو بكر لسبع خلونَ من جمادي الآخرة سنة ١٣ ومكث محموما

١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادي الآخرة سنة ١٣ (٢٢ اغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدتهُ سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يميل عنهُ قليلاً الى الجهة الشرقية



المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح في بلاد الفرس — بدء القادسية

٢ ﴿ عمر بن الخطاب ﴾

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موتهِ وذلك ما يعبر عنهُ بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فاذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنهُ أحب أن يستشير فيهِ كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن ابن عوف وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيهِ من رجل ولكن فيهِ غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنهُ يراني رقيقاً ولو أفضى الأمر اليهِ لترك كثيراً مما هو عليهِ ويا أبا محمد قد رمقتهُ فرأيتني اذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنهُ واذا لنت لهُ أراني الشدة عليهِ لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر بهِ فقال أبو بكر عليّ ذاك يا أبا عبد الله قال اللهمّ علمي بهِ أن سريرتهُ خير من علانيتهِ وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً قال أفعل فقال له أبو بكر لو تركتهُ ما عدوتك وما أدري لعله

تاركه والخيرة له الأ يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تمّ له ارأي دعا بعثمان بن عفان فأملى عليهِ (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين اما بعد) — ثم أغمي عليهِ فكتب عثمان — (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليَّ فقرأ عليهِ فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان افتُلِتُّ في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجهُ أسماء بنت عميس ممسكتهُ فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة واني قد ولّيت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ اغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمهُ حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيهِ هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنهُ ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في

بدء أمره مقتنعاً بصحة الرسالة فحارب الاسلام حرباً شديدة حتى كان ينال المسلمين منهُ أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن ايمانهُ فكانت بهِ للمسلمين قوة وذهب الى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقهُ بالدين الاسلامي وهناك أصابهُ من أذى المشركين ما كان يصيب اخوانهُ وكادوا يقتلونهُ لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنهُ مهاجر وقال من أراد أن تثكلهُ أمهُ فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعهُ أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم وقد صاهره عليهِ السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها . ولما لحق عليهِ السلام بربهِ كان لعمر أكبر الفضل في الاسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليهِ ويعينهُ وكان أبو بكر يحيل عليهِ فصل القضايا فكأنهُ كان قاضيه وان لم يتسم باسم القاضي وقد أفادتهُ صحبة أبي بكر الأناة في الأمور وكثيراً غيرها

اول خطاب له

بعد ان بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياستهِ التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليهِ (انما مثل العرب كمثل جمل أَنِف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأَنِف هو الجمل الذليل المواتى الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت واذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فانهُ يجب عليهِ أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة الى ما فيهِ خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسماً فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنهُ الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيهِ والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال

﴿ الفتوح في عهد عمر ﴾

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر بهِ وأقام المثنى بالحيرة وهي دار امارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهربراز فوجه الى المثنى جنداً يقوده بهمن جاذويه فسار اليهِ المثنى والتقى بهِ عند بابل وأوقع بهِ وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع

الطلب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت عليهِ أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبتهُ وندمهُ من أهل ازدة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضهِ الأخير فاستدعى عمر فقال له اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل بهِ اني لأرجو أن أموت من يومي هذا فان أنا مت فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنى وان تأخرت الى الليل فلا تصبحنَّ حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنّي أَني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وان فتح الله على امراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحدّه وأهل الضَّراوة بهم والجراءة عليهم ومات أبو بكر من يومهِ فبعد أن دفنهُ عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كأن أبا بكر قد علم أنهُ يسوءني أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره . كان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما في أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال — أيها الناس لا يعظمنَ عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها . وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الاَّ على النجعة ولا يقوى عليهِ أهله الاَّ بذلك أين

الطراء[١] المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانهُ قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره وولي أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحون — فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمّر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الاّ الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف . فسار أبو عبيد بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة — كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزر ميدخت ملكة واختارت هي رستم احد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعهُ رستم أن كتب الى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فاثاروا الناس من أعلى الفرات الى أسفله واجتمع جند عظيم قام في النمارق[٢] . لما رأى ذلك المثنى ضم اليهِ مسالحهُ وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلاً ثم سار الى النمارق فحارب جابان ومن معهُ وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان انكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بشهد منهُ ففعل

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد (٢) موضع قرب الكوفة من ارض العراق

فاجاز أبو عبيد ما فعل الرّبعي ولما علم القوم أنهُ الرئيس كلموا فيهِ أبا عبيد فقال ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة أيؤمنهُ صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا الى كسكر[١] لاجئين الى نرسي فاجتمع اليهِ الجند الذين معهُ وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر . وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاءوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبهُ لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الاّ مثل ما يأكل اوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثناعشر متراً من جلود النمر فسار اليهِ أبو عبيد حتى نزل المروحة[٢] موضع البرج والعاقول فبعث اليهِ بهمن اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما ان تدعونا نعبر اليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفي آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس اليهِ والسيوف أخذهم من خلفهم

---

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحضر الحجاج واسطا خسرو سابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمذار ونغيا وميسان ودست ميسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك باقرب من الكوفة

فتهافتوا في الفرات فأصيب منهم يومئذٍ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمي المثنى ومن معهُ الناس حتى عقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهمَّ ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف او تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة وحصل في هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معهُ من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم ينتهِ والذي زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعهِ الجسر عند ما رأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثنى ابن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود الاّ القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبدالله البجلي في قومهِ من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا اليهِ حتى يقابلوه على البُوَيب (١) وتقدمهم هو اليهِ فساروا اليهِ وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع قائد اسمهُ مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فارسل مهران الى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده او يعبر مهران اليهِ وكان الجواب طبعاً ان طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمحَ أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر

---

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

المثنى بالافطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلاً يستوفز ويستنتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فرَّ يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعهُ بالرمح وقال لا أبا لك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال اني بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفهُ المسلمون هولاَ لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفني قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعهُ فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمئة الف ومما يؤثر عن المثنى حكمهُ على نفسهِ في قطعهِ الجسر واحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فاني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغي احراج أحد الاَّ من لا يقوى على الامتناع . ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم الى أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً . وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبث السرايا للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين اولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جندٍ فأغاروا على صِفّين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسّوج سورا

فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيهِ قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين الى المثنى وقد غرّقوهم . كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين الى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنهُ مثل وانهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا انهما ما أرادا بذلك الاَّ المثل واعزاز الاسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران الى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيهِ مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمتنافسان في أمر سلطانها أين يُذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانهُ لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداذ وساباط وتكريت الاَّ المدائن والله لتجتمعان او لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهنَّ فبعد لأي وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن

---

(١) بينها و بين الكوفة ١٣ فرسخاً و بينها و بين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة

احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليهِ وتبارى الرؤساء في طاعتهِ ومعونتهِ وحينئذٍ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى او موضع ثغر فسمي جند الحيرة والأنبار والمسالح والأبلة . بلغ المثنى ذلك كلهُ فكتب بهِ الى عمر ولم يصل الكتاب الى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميتهِ حتى نزل بذي قار[١] ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلي حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل[٢] وشَراف[٣] الى غُضَيّ وغُضَيّ حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لا تدعوا أحداً له سلاح او فرس او نجدة او رأي الاَّ انتخبتموه ثم وجهتموه اليَّ والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف الى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فوافتهُ بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا الى المثنى فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صِرار[٤] فعسكر بهِ ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا اذا

---

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ( ) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذُبالة بينه وبين القرعاء ١٦ ميلا (٣) بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان (٤) موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق

ارادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان او بعبـد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في امارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليـهِ فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منهُ في رفق فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الاّ أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليهِ وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ويقيم ويرميهِ بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح والاّ أعاد رجلاً وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث الى علي وكان قد خلفهُ على المدينـة والى طلحة وكان على مقدمتهِ ولما تكامل جمعهم قال لهم انّ الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيهِ اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منهُ شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهـذا الأمر ما اجتمعوا عليهِ ورضوا بهِ لزم الناس وكانوا فيهِ تبعاً لهم ومن أقام بهذ الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا بهِ لهم من مكيدة في حرب كانوا فيهِ تبعاً لهم أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمتُ ومن خلّفت (يريد علياً وطلحة) . وهذا الخطاب يبين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشوري ويوضح الأساس لذلك

النظام . ثم أجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأي أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي وكان في ذلك الجيش حد الأمة العربيــة فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف ولا ذا رأي ولا ذا سِطة ولا خطيباً ولا شاعراً الأ رماهم بهِ فرماهم بوجوه الناس وغررهم

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية — فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود[1] فانزل بها فسار حتى اذا وصل الى زرود نزل بهـا وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابتهُ وقبل وفاته أرسل الى سعد وصيته لأنهُ قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه ان يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيـهِ اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعبّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب اليَّ بالذي يستقرّ عليهِ أمرهم ففعل سعد ما أُمر بهِ فقدَّر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء فعرَّف على كل عشرة رجلاً وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى الحرب رجالاً فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجردانها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الامير ويليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الاَّ على تعبية وباذن عمر وهذا كتابهُ الذي أمره فيهِ بمبارحة شراف

(أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن بهِ على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه[1] الاَّ ان توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الاَّ ان تجادّوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونهُ من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونهُ قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحهُ فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم

(١) الدآدئ ما اتسع من التلاع وهي مسايل الماء

الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم أبداً الاَّ أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الأخرى كان الحجر من ورائكم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليهِ باليوم الذي يرتحل فيهِ من شراف . فسار سعد على تعبيته والكتب بينهُ وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيهِ — واكتب اليَّ أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانهُ قد منعني من بعض ما أردت الكتاب بهِ قلة علمي بما هجمتم عليهِ والذي استقر أمركم عليهِ فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية — فكتب اليهِ سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق [1] والعتيق وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاحٍ [2] الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر واما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحُضوض [3] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق [4]

---

(١) خندق سابور في برية الكوفة حفره سابور بينهُ و بين العرب خوفاً من شرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر و بنى عليهِ المناظر والجواسق ونظمهُ بالمسالح ليكون مانعاً لأهل البادية من السواد

(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقيه الفرات وغربيهِ بساتين

والحيرة وان ما عن يمين القادسية الى الوَلجة فيض من فيوض مياهم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاؤه مسلم الى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية — فكتب اليهِ عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضهُ بهِ على الوفاء بالأمانة قوله له اني قد ألقى في روعي أنكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليهِ فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان او قرفهُ باشارة أو لسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمهُ بهِ وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الأمان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا أني احذركم ان تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على توليـة رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونهُ لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليهِ أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانهِ سلهم ما جاء بهم وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليهِ النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ

ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معهُ ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كلهُ فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منهُ الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليهِ على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعنا كم والاّ قاتلنا كم فقال يزدجرد اني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا اياكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم واكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدي فقال أيها الملك ان هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وانما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا بهِ جمعوه لك ولا كل ما تكلمتَ بهِ أجابوك عليهِ وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الاّ ذلك فجاوبني لأكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك. أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر الأرض ولا نلبس الاّ ما غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض وان كان أحدنا ليدفن ابنتهُ حية كراهية أن تأكل من طعامنا

فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله الينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسهِ كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا الى أمر فلم يجبهُ أحد أول من ترِب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الاَّ كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له وانباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا ان ربكم يقول اني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت اذ لم يكن شيء وكل شيء هالك الاَّ وجهي وأنا خلقت كل شيء والي يصير كل شيء وان رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام فنشهد عليهِ انهُ جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليهِ ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليهِ الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منهُ أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلتهُ جنتي ومن بقي منكم أعقبتهُ النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف او تسلم فتنجي نفسك . فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت الاَّ من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك بهِ فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليهِ رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبهِ من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم

باشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقهِ فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليهِ ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين

فصل رستم من المدائن في تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ الف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامهُ ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامهُ وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسهِ ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانهُ لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليهِ الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم انا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً الاَّ أن يكون محارباً لصاحبهِ فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم ارباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعهُ ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم علمت ان أمركم مضمحل وانكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليهِ قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرّون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكّره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينهُ وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الأخبار الى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماتهُ ولم يكن سعد

معه المقاتلين لأنهُ لم يكن يستطيع أن يركب لحبون كانت بهِ فكان مقعياً بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمي بالرقاع فيها الأمر والنهي الى خالد بن عرفطة وهو أسفل منهُ وكان الصف بجنب القصر ثم قام في الناس الخطباء نخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك

وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الأسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح   ذات اللبان والبنان الواضح
أني سِمام البطل المشايح   وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللبب   مثل اللجين اذ تغشاه الذهب
اني امرؤٌ لا من يعنيهِ السبب   مثلي على مثلك يغريهِ العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعّب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة ان تؤكل حين فرّت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببني أسد وكان لهم في ذلك أعظم نخار ولرئيسهم طُليحة الأسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم الاَّ ان أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفها فنفس عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمئة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل

القتال الى ان مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم ارماث

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم الى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها الى العراق وأميرها هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص فقوي بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالأبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هـذه الابل في اليوم الثاني ما لقيت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيهِ أرجح

وفي اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل فقبع ونفض رأسهُ فطرح سائسهُ وولى مشفره فنفحهُ أحدهما بالسيف فرمى بهِ ووقع لجنبهِ ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب في العتيق فتبعتهُ الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوّى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يُسمع الاَّ صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس

وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعهُ هلال بن علفة حتى قبض عليهِ وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف بهِ الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي دِرفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولاً لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين الفاً

وبعد ان انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر هذا الكتاب (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دويّ النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضي منهم من بقي الاَّ بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) . كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً اخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفي اليوم الذي ورد فيهِ البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبدالله حدثني قال هزم الله العدو

وعمر يجري وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفهُ حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليهِ بامرة المؤمنين فقال الرجل فهلاَّ أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخي فقرئ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليهِ كتاب آخر من سعد يقول فيهِ (ان أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يفِ بهِ أحد علمناه الاَّ أهل بانقيا وبسما وأهل أُلّيس الآخرة وادعى أهل السواد ان فارسا اكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا الينا ولم يذهبوا في الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيهِ (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا ان أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انهُ استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا في أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبهُ سعد فأجمعوا على ان الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبهُ الاَّ خيراً وان من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وان يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم الاَّ القتال وان يخيّروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح — فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول

(أما بعد فان الله جلَّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات الاَّ في أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيهِ

في حالة ولم يرضَ منهُ الاَّ بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيهِ في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وان رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وان رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من اهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى انهُ استكره ممن لم يخالفهم اليكم او يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الاَّ ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذ اليهم وأبلغوهم مأمنهم وكتب جواب الكتاب الثاني

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم . وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى ان يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد ان يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الاَّ ان خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الى واحدة من اثنتين الاسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليهِ فهي والصوافي الأولى ملك لمن أفاء الله عليهِ وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رءوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال — ولم ينأتَ قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوّب معهم لأنهُ

كان متفرّقاً في السواد فكان يليهِ لأهل الفيء من وثقوا بهِ وتراضوا عليهِ

كان عمر يتخوّف أن يُؤتى المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخيّر فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها الى الأبلة لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيماً تفصل منهُ الجنود لحرب فارس الاَّ انها لم يتم تمصيرها الاَّ سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب بهِ الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذي قار وتلك الأمواه حين أمروا بالسير في جمادى الى القادسية وكان كلاماً أبدن فيهِ كالأوابد من الشعر لأنهُ ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى ورجب

أمر قضاه قد وجب يخبره من قد شجب

تحت غبار ولجب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببُرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربوهم حرباً

غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرّق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصمد الباقون الى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد ببابل أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت بهِ الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلتهُ الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى الجهة الشرقية لأنهُ لم يكن هناك مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها الى الشاطئ الثاني وكان سعد قد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كلهُ خوضاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما في المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الاّ أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجههِ وذهب بعياله الى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين وصلى فيهِ صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيهِ تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم السعد الصلاة

يوم دخول المدائن لأنهُ أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجنائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيهِ كل شيء أراد أن يعجب منهُ عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيهِ طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاتهِ كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة واشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمهُ على مستحقيهِ ثم قال أشيروا عليَّ في هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فرَ رأيك الاَّ ما كان من علي فانهُ قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبقَ الاَّ التروية انك ان تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق بهِ ما ليس له فقطعهُ عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليهِ وحربه وولى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرّن الخراج الأول على ما سقت دجلة والثاني على ما سقى الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء — تمصير الكوفة والبصرة — فتح الجزيرة — الأهواز — غزو فارس من البحرين — فتح فارس — فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم الى آذربيجان والباب والى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب بهِ ولنقاتلهم فان كانت لنا فهو الذي نريد وان كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذراً فحصّنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدّهم بالرجال والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا بهِ الحسك من الخشب الاَّ طرقهم فأرسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعيّن له أمراء تعبيتهِ ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر الفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون الى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى

وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأي عمر في ذلك الوقت أن يقتصر المسلمون على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني بهِ فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيهِ من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم الاَّ من حارب أو هرب منك الى عدوك فأدركتهُ وأجرِ لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين

وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغهُ تجمّع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليهِ فأجابوه الى

ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب واياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان [1] فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا الى الجبال فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء [2] يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت [3] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهلها على الجزاء

وبذلك صار السواد كلهُ في يد المسلمين فمهدوا طريقة ادارتهِ وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيراً فقال عمر والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم قالوا وخومة البلاد فكتب الى سعد

---

(١) كورة بها عدة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للقاصد الى همذان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليـهِ سعد ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة ـ فكتب اليهِ عمر ان العرب لا يوافقها الاَّ ما وافق إبلهـا من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيهِ بحر ولا جسر . فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيـا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا الى سعد بالخبر فأبلغهُ سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود اليها فأرسل سعد الى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا اليهِ ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضي الاقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فاصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن وجعل على بنـاء المدينة أبا الهياج بن مالك الأسدي وأوضح له مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينهِ وشماله ومن بين يديه ومن خلفهِ ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذي بناه له

فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليهِ الكوفة ينبئ عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسهُ بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وان نزلها المسلمون سنة ١٤ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الاَّ في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيهِ

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن اربعة حلوان[1] وماسبذان وقرقيساء والموصل[2] واميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينهُ أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة[3]

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر احداها يقودها سهيل بن عدي لفتح الرقَّة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لاخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ

(١) في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابله من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الاسلامية الكبرى

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حرَّان والرها والرَّقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك

وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر من شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما بلغهم توجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الى كورتهِ فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرُّها فصالحهُ أهلها على الجزية ثم حرّان فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم إرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

فتح الأهواز (١)

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وامدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين دُلُث ونهر تيرَى فهزمتهُ ودحرتهُ حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

(١) مجموع كور عدَّها ياقوت عشراً وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندي سابور وسوس وسرّق ونهر تيرى ومناذر

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومِهرِجان قَذَق[1] ماعدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين . ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف في حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه الى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الاهواز الى تُستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه الى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوّف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليهِ وفداً فيهِ عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له انك عندي لمصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أأن ظلمت الذمة أ لِمَظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم اذا انصرفوا الى رحالكم فانصرفوا وكتب الى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم او بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليهِ وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

---

(١) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان في تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له بهِ من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين الى فارس فتسرّعوا الى ذلك وفرّقهم أجناداً فحملهم في البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً. عبرت تلك الجنود فخرجوا في أصطَخْر[1] وبإزائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميّتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنهُ قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليهِ يعزله وأمره بأثقل الأشياء عليهِ وأبغض الوجوه اليهِ بتأمير سعد عليهِ وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معهُ نحو سعد وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسيّر جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابهُ جمع من ذوي النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقهِ حتى وافوا

---

(١) مدينة كبيرة بفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحوّل اردشير الى جور.

شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليهِ ليرجعنّ الى عمله فانصرف فمات في بطن نخلة فدفن بهِ وبلغ عمر خبره فمر بهِ زائراً لقبره وقال انا قتلتك لولا أنهُ أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليهِ بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس[١] وهو بمرو فكتب اليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والأهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب امراء الثغور الى عمر فكتب الى سعد امير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسى الاشعري وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الأهواز يقوده سهل بن

(١) فارس اسم لولاية واسعة واقليم منيع اول حدودها من جهة العراق ارّجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) اردشيرخرَّة (٣) دارا بجرد (٤) سابور (٥) قباذ خرَّة

عدي وامير الجندين معاً أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونهـا فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوي النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيهـا سجالاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه الى البلد فنهدوا الى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان الى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيهِ وقال أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحاط بها من البلدان . وأرسل أبو سبرة وفداً الى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا الى المدينة دخلوا على عمر وهو في المسجد نائم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هوذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز فقال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر انا واياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنـا ثم قال عمر ماعذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد اخرى فقال أخاف أن تقتلني قبـل أن اخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فاتى بهِ في قدح غليظ

فقال لو متّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هـذا فأتى بهِ في اناء يرضاه فجعلت يده ترجف وقال اني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر أعيدوا عليهِ ولا تجمعوا عليهِ القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء انما أردت أن أستأمن به فقال له عمر اني قاتلك قال قد آمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عليهِ الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا لمسلم فأسلم ففرض له في العطاء على الفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم الاَّ وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم وانهم لايزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه وقد رأيت انا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الاَّ بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنَسِح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجهُ من مملكتهِ وعز أمتهِ فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس . فقال عمر صدقتني والله وشرحتَ لي الأمر عن حقهِ ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند . فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند [١]

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل انحائها جمعهم يزدجرد يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل [٢] جنوبي همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليهِ محاربة المجتمعين بها وحشد اليهِ الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيماً متحصناً في حصون قوية ولا يخرجون الا اذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأي في الحروب ممن معهُ وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون الا ان يشاءوا وقد ترون الذي فيهِ المسلمون من التضايق بالذي هم فيهِ فما الرأي فتكلم عمرو بن ثبيّ وكان اكبر الناس يومئذٍ سناً وكانوا انما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فردّ رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا انما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدي فقال أرى ان تبعث خيلاً تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمشوهم فاذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فانا لم نستطرد لهم في

---

(١) مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ١٤ فرسخاً وهي أعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

طول ما قاتلناهم وانا اذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منـا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادّونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منـهُ رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتمّ ذلك الترتيب الحربي المتفق عليهِ فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليهـا القعقاع الفل الى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذٍ جاءهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما فيها وما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنهُ لم يكن بعده كبير حرب . ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليهِ بكاءً شديداً

وبعد انتهـاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار عليهِ بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية الى أصحابها وهم :

(١) الأحنف بن قيس التميمي ووجه الى خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه الى أردشير خرّة وسابور

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه الى أصطخر

(٤) سارية بن زنيم الكناني ووجه الى فسا ودرابجرد

(٥) سهيل بن عدي ووجه الى كرمان

(٦) عاصم بن عمرو ووجه الى سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه الى مكران فاستمدت الجنود للخروج الى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان (١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتهـا جيّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال اما أن تحمل عليّ واما أن أحمل عليك فقال أحمل عليك فوقف له عبدالله وحمل عليـهِ الفاذوسفان فطعنهُ فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائماً ثم استوى على الفرَس عرُيا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضهُ عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيهِ ذهب حيث شاء ولكم أرضهُ قال لكم ذلك فرضي أهل جيّ بالصلح الاَّ ثلاثين رجـلاً منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جيّ واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبـد الله بجيّ خليفة له وسار حسب أمر عمر الى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

---

(١) أقليم من نواحي الجبل كانت قاعدته جيًّا ثم صارت اليهودية

فتح أذرَبيجان (١)

بينا نعيم بن مقرن في همـذان اذ بلغهُ تجمع الفرس واحتشادهم في واج روذ بين همذان وقزوين فسار اليهم وقاتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرَّي (٢)

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار الى الرَّي فصالحهُ أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبهُ ملك جرجان (٣) بالصلح فصالحهُ وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب (٤)

كان قائد الجيش الذي وجه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمتهِ عبد الرحمن بن ربيعة فلما أطلَّ عبد الرحمن على الباب كاتبهُ ملكها شهربراز مستأمناً ليأتيهِ فأمنهُ عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له اني بازاء عدو كلب

---

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقاً الى أرزنجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببـلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها و بين نيسابور ١٦٠ فرسخاً والى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب اليها رازي (٣) مدينـة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهي ثغر عظيم

وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل آن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقي رجل قد أظلك فسر اليهِ فجوزه فسار الى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليهِ ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الاَّ أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة الى عمر فاجازه وحسنهُ وكان في كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب او لم ينب رآه الوالي صلاحاً على أن توضع الجزاء عمن أجاب الى ذلك الاَّ الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنهُ منهم وقعد فعليهِ مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فإِن حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا بهِ — وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بإِرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح خراسان(١)

كان يزدجرد قد سار الى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس اليها واطمأن في نفسهِ وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو مَن بقي من الأعاجم فيما لم يفتتحهُ المسلمون فدانوا له فوجه اليهِ الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطَّبَسَين فافتتح هَراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد الى مرو الروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستمده والى ملك الصُّغد وملك الصين . أما الأحنف فاتجه الى مرو الروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها الى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى اذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر النهر بمن معهُ في أهل فارس فعاد الأحنف الى مرو فنزلها وكتب اليهِ عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده . ولما عبر يزدجرد النهر أتتهُ جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج اليهِ الأحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا الى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم في ملكهم الاَّ أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا وغبطوا

---

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرْو وبها نيسابور وهراة و بلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون

فتوح أهل البصرة

كان ممـا فتحهُ أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فسا ودرابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران

ومما يستطرف من الأخبـار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فان عمر ولاَّه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث بهِ الى أمير المؤمنين فان له بُرُداً ومؤونة قالوا نعم قـد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومهِ ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فاذا عمر يغدي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع فلما دفعت اليـهِ قال اجلس فجلست في أدنى الناس فاذا طعام فيهِ خشونة طعامي الذي معي أطيب منهُ فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعتهُ فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليـهِ فاذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من أدم محشوتين ليفاً فنبذ اليَّ باحداهما فجلست عليها واذا بهو في صفة فيها بيت عليهِ سُتَيْر فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليهِ خبزة بزبت في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى

الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أو ما يكفيكِ أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلاً وطعامي الذي معي أطيب منهُ وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلاً منهُ ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعُسّ من سلت فقال أعطِ الرجل قال فشربت قليلاً ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين انا رسول سلمة بن قيس قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدّثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف أسعارهم قلت أرخص أسعار قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الأ بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى اليهِ رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصهُ بها سلمة فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرتهِ ثم قال لا أشبع الله اذا بطن عمر ثم قال كفّ ما جئت بهِ أم والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت ما بارك الله لي فيما اختصصتني بهِ اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني واياك فاقرة فقسمه فيهم

ولست في حاجة الى أن انبهكم الى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبيّن لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم الرجال نفساً ثم تبيّن كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه

الحلية شيء قد طابت بهِ أنفسهم ومع ذلك لم يرضَ الأ أن يردّها عليهم فكيف لا تكون قلوبهم بين يديهِ يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى ما نريد قصهُ عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائياً بين أيدي المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الأرض يحدّها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد إرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقع التي زاحفوا فيها اعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون في أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائماً وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم



المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح في بلاد الروم — فتح حمص — فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك في اول حياة عمر في أثنائها جاء الخبر بموت أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش كلهُ والقواد كلهم تحت امرته . بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل[1] من أرض الأردنّ وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد

(١) من بلاد الاردن بين حوران وفلسطين

وهناك التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم الى دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا الى دمشق[1] وخالد على المقدمة فحاصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحيـة ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجـانيق وهم معتصمون بالمدينـة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليهِ شيء من أمر العدو عيونهُ ذاكية وهو معنى بمـا يليهِ فاتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فبلغهُ ذات ليلة ان الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهد بمن معهُ من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وامثاله وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليهِ هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة الاَّ أنبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منهُ أحصن مكان يحيط بدمشق اكثره ماء وأشده مدخلاً وتوافوا لذلك فلم يبقَ ممن دخل معهُ أحد الاَّ رقي أو دنا من الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الى الباب ومال الى الحبال بشر

---

(١) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الاسلاميـة في عهد الدولة الأموية

كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليهِ فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معهُ أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الاَّ أنيم ولما شد خالد على من يليه و بلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت الى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم الاّ وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحاً وبعد ان تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد الى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً بهِ

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفي الصباح رأوا الأرض خلوًا من توذر ومن معهُ فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعهُ وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج اليهِ محارباً وبينا هما يتحاربان قدم

خالد فأصاب الروم السيف من بين ايديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد الى دمشق وعاد خالد الى أبي عبيدة فلحقه بعد ان انتهى من هزيمة جند شنس الى حمص

فتح حمص (١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم الى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنهُ لم يصبهم شيء تراجعوا الى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم ارسل خالداً الى قِنّسرين فلما نزل بالحاضر (٢) زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا الى خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما . ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص

---

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها و بين حلب في نصف الطريق

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافاً من العرب

ثم فتحت قيسارية [١] على يد معاوية بن أبي سفيان

وفتحت أجنادين [٢] على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون هو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج. أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليهِ كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله ان هذا لعمرو أو انه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فاذا مرّ بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلتهُ فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا اموره فارجع فآتيك بهم الآن فان رأوا فيّ الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والامير وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلاً فساره وقال اذهب الى فلان ورده اليّ فرجع اليهِ الرجل وقال لعمرو اذهب فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق [٣] ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها و بين طبرية ثلاثة ايام وكانت قديماً من امهات المدن (٢) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين (٣) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق والا كانت دليلاً على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركاً جنده من غير راعٍ لهم خصوصاً اذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم ان أرطبون انهزم من الناس فأوى الى ايليا ونزل عمرو أجنادين

فتح بيت المقدس

كانت ايلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولي لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولي على فلسطين وايليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولي لعقده عمر بن الخطاب فكتب اليهِ عمر بذلك فسار الى الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سَرْعَ ما لُفتّم عن رأيكم اياي تستقبلون في هذا الزي وانما شبعتم منذ سنتين سرْعَ ما ندَّت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامقة وان علينا السلاح قال فنعم اذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءتهُ رسل أهل ايليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتاباً هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انهُ لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى

أهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسهِ وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليهِ مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليهِ مثل ما على أهل ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هـذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية) شهـد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبـد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص الى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقـال له صلّ موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً فلما قضى صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيـهِ مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليهـا ردماً كثيراً فشرع في ازالتهِ وتناوله بيده يرفعهُ في ثوبهِ واقتدى بهِ المسلمون كافة فزال لحينهِ وأمر ببناء المسجد ثم ولى امراء الشام بعد أن قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين احداهما قصبتها الرملة والأخرى قصبتها ايلياء — ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة

التي عامل بها سلفه مغلوبيهم من الوفاء والعدل .فاذا قارن ذلك بما أصيب بهِ أهل ايلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معهُ المهاجرون والأنصار فسار حتى اذا نزل بسرَغ [١] لقيه امراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع لي المهاجرين الأولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا عليهِ فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيهِ الله وما عنده ولا نرى أن يصدك عنهُ بلاء عرض لك ومنهم القائل انهُ لبلاء وفناء ما نرى ان تقدم عليهِ فلما اختلفوا عليهِ قال قوموا عني ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليهِ قال قوموا عني ثم قال اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليهِ منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانهُ بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم اني مصبح على ظهر فأصبحوا عليهِ فلما اجتمعوا قال أيها الناس اني راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح افراراً من قدر الله قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جَدِبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام

وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس فلما أُخبر الخبر قال عندي من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليهِ واذا وقع وأنتم بهِ فلا تخرجوا فراراً منهُ لا يخرجنكم الاَّ ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك بهِ خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء الاَّ بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منهُ في الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعهُ الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير الى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الاموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (الا واني قد وليت عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاَّني الله من أمركم — الى أن قال — فمن علم عِلم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الاَّ بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالاً فأذّن فأمره فأذن فما بقي احد كان ادرك رسول الله صلى الله عليهِ وسلم و بلال يؤذن له الاَّ بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره صلى الله عليهِ وسلم ثم رجع عمر الى المدينة

وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي . ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص في محاضراتنا أحببنا ان نرجئ تفاصيل فتحها الى الوقت الذي نتكلم فيهِ عن تاريخها ليكون الكلام نسقاً

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام ومصر وأديرت البلاد على مقتضى العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة بما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيماً لكثير من المدنية الاسلامية أحببنا ان نورد عليكم منها جملاً لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً في ذلك برسول الله صلى الله عليهِ وسلم وسلفه أبي بكر الصديق



المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر في عماله — معاملة عمر للرعية — عفتهُ عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح — رأي عمر في الاجتماعات — وصفه و بيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضياً بها ٧٥ سنة لم يتعطل فيها الاَّ ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولي الحجاج استعفاه فأعفاه ومن طرفه في القضاء أن عدي ابن ارطاة دخل عليهِ فقال اني رجل من أهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت وهو الذي قال حين تزوج امرأة من بني تميم ثم نقم عليها شيئاً فضربها

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت بهِ ... فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... اذا طلعت لم تبق منهنَّ كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص السهمي حسبما جاء بكتاب القضاة الذين ولوا مصر فهو أول قاضٍ قضى بها في الاسلام

وولى أبا الدرداء بالمدينة وهو من الصحابة . ومن أعرف من ولاَّهم أبو موسى الأشعري ولما كان العهد الذي ولاَّه بهِ مما يبين لنا شيئاً من نظام القضاء وأصوله أحببنا ايراده وودنكموه

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعـد فان القضاء فريضة [1] محكمة وسنَّـة متبعة . فافهم [2] اذا أدلى اليك فانهُ لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس [3] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح [4] جائز بين المسلمين الاَّ صلحاً أحلَّ حرماً أو حرَّم حلالا . لا يمنعنك [5] قضاء قضيتهُ اليوم فراجعت فيهِ نفسك وهديت فيهِ لرشدك

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضي بهـا وهي لا تعدو ما حده الله وهذا ما اشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسولُ الله وسار عليه وهو ما اشار اليـه بالسنة المتبعة (٢) يريد ان من يدلي بحجته مهما كان مصيباً بليغاً فان كلامهُ لا ينفعه اذا لم يكن لـكلامه نفاذ الى قلب القاضي وذلك لا يكون الا بالتنبه لما يقال من الخصوم (٣) هذا اساس المساواة التي بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فان القاضي اذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وان نجا من مغبتها اليوم فانهُ ليس بناج غداً (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له لأن الخصم اذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور (٥) يريد بذلك ان القاضي لا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم بهِ في قضيته بل اذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه ان يحكم بما تجدد له من التفسير فيما يشابهها من القضايا وانما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضي

أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم [١] فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنّة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد الى أقربها الى الله وأشبهها بالحق . واجعل [٢] لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي اليهِ فان أحضر بينته والاّ استحللت عليهِ القضية فانهُ أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون [٣] عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد أو مجرباً عليهِ شهادة زورٍ أو ظنيناً في ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . واياك [٤] والغلَق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به

---

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو ان يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من اجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من اوجب الواجبات على القاضي ان يكون عارفاً باسرار التشريع حتى يمكنه هذا الالحاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهداً لا مقلداً غيره في تفسير او تأويل (٢) يشير بذلك الى جواز التأجيل اذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذي ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه (٣) يشير بذلك الى اصل عام وهو ان الاصل في الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض الا اذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة اشياء الاول الجلد في الحد ويظهر انهُ يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً الثاني المجرب عليه شهادة الزور الثالث الظنين في الولاء او النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون له نسب في قبيلته فينتسب الى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون في زمننا كذلك (٤) يشير بذلك الى ما يجب على القاضي من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم او ارتفاع اصواتهم بل يجعل لكل انسان حريته في الدفاع عن نفسه

الدخر فمن صحت نيتهُ وأقبل على نفسهِ كفاه الله ما بينهُ وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسهِ شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم الاَّ سهلاً مجرداً عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعني انهُ مستقلٌ تمام الاستقلال في قضائهِ لا يمنعهُ شيءٌ ان يحضر الى مجلسهِ الأمير فمن دونه

سيرة عمر في عماله

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالي في نظره فرداً من الأفراد يجري حكم العدل عليهِ كما يجري على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لا يعدله شيءٌ من أخلاقهِ . اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جرَّه الى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منهُ يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منهُ ان كان هناك داعٍ الى القصاص أو عامله بما تقضي بهِ الشريعة او عزله

وسواس الأمم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم يرَ القصاص من العمال يرى ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيءٍ من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من

الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقرّ فلم يكن هناك ما يدعو الى مراعاة هذه السياسة

كان اذا بعث عاملاً على عمل يقول اللهمّ اني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمهُ أميره فلا امرة عليهِ دوني . وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهمّ أشهدك على أمراء الأمصار أني انما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وان يعدلوا فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليَّ . وكان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول اني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليهِ وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل واني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمّروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليهِ وسلم وأنا شريككم . وخطب مرة فقال أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعهُ اليَّ فوا الذي نفس عمر بيده لأقصنهُ منهُ . فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيتك ان كان رجل من امراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته انك لتُقصُّهُ منهُ قال اي والذي نفس عمر بيده اذا لأقصنهُ منهُ وكيف لا أقصهُ منهُ وقد رأيت رسول الله يُقِصّ من من نفسهِ الا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمّروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وكان للوصول الى ما يريدمن عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم موسم الحج ومن كانت له شكوى او مظلمة هناك فليرفعها واذ ذاك يحقق عمر بعد ان يجمع بين الاثنين حتى ترد الى المظلوم ظلامته ان كانت وكان العمال يخافون ان يفتضحوا على رءوس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أي انسان كان

وقد استحضر عمر اليهِ كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل واكبر عمل بشكاية قدمت اليهِ من بعض الأفراد فقد استحضر سعد ابن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينهُ وبينهم فوجده بريئاً . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير على البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الأثر الصالح في الفتوح الاسلامية وكان بعض من معهُ بالبصرة قد اتهمهُ بتهمة شنيعة فوجه اليهِ ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمهِ القليلة ان عزل وعاتب واستحث وأمّر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم ما في يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليهِ عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضهُ الله لمثلهم . وشكى اليهِ عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيهِ فأمره أن يقدم عليهِ مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كافٍ ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لا يدري علامَ استعمل فاختبره عمر في ذلك اختباراً يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الاجابة في بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك

فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني ولقد ساءني حين عزلتني فقال لقد علمتُ ما أنتَ بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين

ولم يمضِ عامل زمن عمر موثوقاً بهِ من عمر في كل أيامهِ الاّ القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله الى كل شكوى ليحققها في البلد الذي حصلت فيهِ وكان ذلك العمل موجهاً الى محمد بن مسلمة الذي كان يثق بهِ عمر ثقة تامة وكان محلاً لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سرياً وانما كان يسأل من يريد سؤالهُ علناً وعلى ملأ من الأشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير في أنفس الشهود لأن يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل انسان الحق أن يرفع اليهِ شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل الاّ قليلاً وربما وجد هذا العمل مجالاً للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف مَن من عمالهِ يستحق أن تقع بهِ تلك العقوبة اذ ماذا يعمل برجل ولاَّه وهو يعرف مقدار عطائهِ ورزقهِ ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها . لم يرَ عمر أمام ذلك الاّ هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة . ولى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معهُ بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال خرجت

بهِ معي وتجرت فيـهِ قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال . وكانت التجارة هي التكأة التي يتكئ عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية

معاملتهُ للرعية

على قدر ما كان عليـهِ عمر من الشدة على عماله كانت رأفتهُ ورقتهُ على عامة الناس من رعيتهِ والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظمى فكان يقول لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنهُ آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيهِ بقديد فلا يغيب عنهُ امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي . قال الحسن البصري قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيتهُ دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنـا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النـار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره ان يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام

فقال أأدنو قالت ادنُ بخير أو دعْ فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا وبين عمر فقال أي رحمكِ الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل عليّ فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيهِ كبة شحم فقال احمله عليّ قلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين او ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملتهُ عليهِ فانطلق وانطلقت معهُ نهرول حتى انتهينا اليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذرّي عليّ وأنا احرّك لكِ وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأتتهُ بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معهُ فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً انك اذا جئتِ أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول ان لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفهِ أن يكون مقصراً بحق من ولي عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكني عمر مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فان عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمتهِ وعونهِ وتأييده . لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس الاَّ دِرّته وهي عصاً صغيرة كالمخصرة كانت دائماً في يده أنى سار وكان الناس يهابونها اكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيهِ قال مرّ عمر بن الخطاب في السوق ومعهُ الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمِط الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة تريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق الى منزلهِ فأعطاني ستمئة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها . فعمر كان مؤدباً حكيماً ولعل درّته لم يسلم من خفقها الاَّ القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد ان عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمهُ بين الناس فازدحموا عليهِ فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص اليهِ فعلاه عمر بالدرة وقال انك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك . والذي أغضب عمر منهُ هو مزاحمتهُ الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بديلاً

كانت الرعية مع هذا تهابهُ مهابة شديدة . روى أسلم ان نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانهُ قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليهِ أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً منهم مني

عفتهُ عن مال المسلمين

كان يحبب عمر الى الناس عدله وتسويتهُ ويزيده اليهم حباً عفتهُ وأمانتهُ فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيماً لمن رتع فيهِ حتى انه كان يقتر على نفسهِ تقتيراً ربما وجد مساغاً لاعتراض قصار النظر . كان عمر يرى انه لا ينبغي ان يأكل الأ مما يأكل منهُ أقل رعيتهِ لا يتجاوز ذلك الى ما فوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسدد منهُ احتال له حتى اذا أخذ عطاءه سدد منهُ ولما رأى بعض الصحابة ما يعانيهِ عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها اياه في رزقهِ فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها ان لا تخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوءنهم قالت لا سبيل الى علمهم قال أنتِ بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان

يلبسهما للوفد والجمع قال فأي الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصببنا عليهِ وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعهُ في الصيف فاذا كان الشتاء بسطنا نصفهُ وتدثرنا بنصفهِ قال يا حفصة فأبلغيهم ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلغنّ بالترجية وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعهُ الآخر فسلك سبيله فأفضى اليهِ ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وان سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما

وكان يتحاشى ان ينتفع احد من آل بيتهِ بشيء ليس له فيهِ حق روى مالك في الموطأ انهُ خرج عبدالله وعبيدالله ابنا عمر بن الخطاب في جيش الى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث بهِ الى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان بهِ متاعاً من متاع العراق ثم تبيعانهِ بالمدينة فتؤديان رأس المال الى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك ففعل وكتب الى عمر بن الخطاب ان يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك الى عمر قال أكلُّ الجيش أسلفهُ قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما أديا المال وربحهُ فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبدالله وراجعهُ عبيدالله فقال رجل من جلساء

عمر يا أمير المؤمنين لو جعلتهُ قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبدالله وعبيدالله نصف ربح المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام.

ولما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربهُ وسير اليهِ عمر الرسل مع البريد بعث أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من احفاش النساء ودستهُ الى البريد فأبلغه لها فأخذ منهُ وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى بهِ البريد اليهِ أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انهُ لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع بهِ ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها الى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيتهِ وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالاً للعدول عن الجادة . وكان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الاَّ أضعفت عليهِ العقوبة

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر اذا نزل به الأمر لا يبرمهُ قبل ان يجمع المسلمين ويستشيرهم فيـهِ ويقول لا خير في امرأ برم من غير شورى وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليهِ رأيهم فعل به . ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين ان يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليهِ ورضوا به لزم الناس وكانوا فيـهِ تبعاً لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيـدة في حرب كانوا فيهِ تبعاً لهم . فجعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع لما أخذ به الامام من رأي أولى الرأى . وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع الى رأيه . رأى مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهنَّ فعزم ان يجعل للمهر حدًّا لا يتجاوزه النـاس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقـد قال الله تعالى (وآتيتم احداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منهُ شيئاً) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق اذا رأوا منهُ انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبتهِ أيها الناس ان أحسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا فسرَّه ذلك . وكان له خاصة من كبار أولى الرأي منهم العباس بن عبـد المطلب وابنـه عبدالله وكان لا يكاد يفارقهُ في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم

رأي عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل الى ان تكون مجتمعات الناس عامة يهوي اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم الى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس ان عمر قال لناس من قريش بلغني أنكم تخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال مَن صحابة فلان مَن جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله ان هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان قد قسموا الاسلام أقساماً أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانهُ أدوَم لألفتكم وأهيب لكم في الناس . وفي الحق ان ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثيراً لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيت فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم ان كثرة المجالس تدعو بدون ريب الى كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة في الدين والذي خافهُ عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيتهُ حباً جماً ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربهُ الى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلاً بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ اكثر من مما له ولا ضعيف

يخاف أن يضيع منــهُ ماله كان حكيماً يضع الشيء في موضعهِ يشتد حيناً ويلين حيناً حسبما توحي اليهِ الظروف التي هو فيهــا عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم السير فيهِ فصيرها أمة حرّة لا تستطيع أن تنظر الى خسف يلحقها من أي انسان ولذلك نقول ان عمر أتعب من بعــده فان النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيــا بأسرها والاَّ فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيتهِ ولا يرى لنفسهِ من الحقوق الاَّ كما لأدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها . العربي تستدعي سياستهُ حكمة عالية فانك ان اشتددت معهُ أذللتهُ فهلك وان لنت معهُ ليكون رجلاً نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريتهِ فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيهِ اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير الاَّ في رأس عمر بن الخطاب بعــد صاحبيهِ نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منــهُ أحد العقاقير فربما أهلك صاحبهُ لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جُمح من قريش فولدت له عبدالله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنــة جرول من خزاعة فأولدها عبيدالله وقد فارقها في هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في المدنة

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصماً وهذه طلقها

وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها

وتزوج لُهَيَّة وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر

وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها الى عائشة فقالت الأمر اليك فقالت أم كلثوم لاحاجة لي فيهِ فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم انه خشِن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة الى عمرو بن العاص فأخبرته فقال اكفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منهُ قال ما هو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبتَ بي عنها أم رغبت بها عني قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تَعلَّق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهتهُ وقالت يُغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً



المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — اول قضية نظر فيها
كتبه الى الأمصار — اول خطبة له — الفتوح في عهده

مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيتهِ الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنهُ ليس بمكنة انسان أن يرضي الخلق كافة فان عمر اذا كان قد أرضى العرب بما صنعهُ لهم وأرضى عامة العجم بما فاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوي السلطان عليهم لأنهُ ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من ابناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضروا عدداً منهم الى المدينة وكانوا يختلفون الى الهرمزان ملك فارس الذي أضاع عمر ملكه وأقامهُ بالمدينة كواحد من الناس لا فضل له على أحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمهُ فيروز ويلقب بأبي لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً في السوق لقيهُ ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجاً كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان في كل يوم قال عمر وايش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال قد بلغني انك تقول لو أردت أن أعمل رحاً تطحن بالريح فعلت قال نعم قال

فاعمل لي رحاً قال ان عشت لأعملنَّ لك رحاً يتحدث بها من في المشرق والمغرب ثم انصرف عنهُ فقال عمر لقد توعدني العبد آنفاً ثم انصرف عمر الى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله التوراة قال عمر اللهَ انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهمَّ لا ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك الى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يداً في مقتل عمر أو أنهُ كان عالماً بما تم عليهِ الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فماذا يدعو كعباً الى انباء عمر بهذا النبأ والجواب عن ذلك سهل فانه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيماً فان كثيراً منهم يرون بعد ذلك ان توراتهُ فيها علم كل شيء وأنهُ صادق في كل ما يخبر بهِ فلا يتردد سامعهُ لحظة في تصديقهِ بما يوحي بهِ اليهِ وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الأخبار الاسرائيلية التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنهُ

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر الى صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسوونها فاذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهنَّ تحت سرته وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن ابي

البكير الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هوذا قال تقدم فصلِّ بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلني قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والأنصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب
وما بي حذار الموت اني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعي له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته . وروي أن طعنه كان في يوم الاربعاء لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة من متوفى أبي بكر . والصحيح الأول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ الى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه

٣ ﴿ عثمان بن عفان ﴾

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب اليه أن يعهد الى خليفة من بعده فتردد وقال ان أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد ابا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالماً شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ان كان خيراً فقد أصبنا منه وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر اني لسعيد

ثم كرر عليهِ القوم بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحرا كم أن يحملكم على الحق وأشار الى علي ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم انهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله

فليختاروا منهم رجلاً فاذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه ان ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته . ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر الا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وهو عنكم راض اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيهِ الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم وقال لصهيب صلِّ بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما فان رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليهِ الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المِسْوَر بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله ابن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف أيكم يخرج نفسه

منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبهُ أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راضٍ ثم تتابع القوم على الرضا وعلي ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطني ميثاقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة فقال عبد الرحمن أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغيّر وأن ترضوا من اخترت لكم وعليَّ ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليهِ يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل الاَّ أمره بعثمان حتى اذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو اليــهِ الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الأمر فقال الزبير نصيبي لعلي . وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لي فأختار قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعلي أحب اليَّ أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا اسحاق اني قد خلعت نفسي منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار اليَّ لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنهُ ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور الى علي فجاء فناجاه طويلاً ثم أرسل الى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث الى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والامراء حتى التج المسجد بأهله فقال أيهــا الناس أن الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد

علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ودعا علياً فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال نعم فبايعهُ عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك علي تأثر وخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفاً ولما بعث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبي بكر وزوجهُ عليهِ السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها الى الحبشة ثم رجع الى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر اليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كل مشاهده ولكنهُ لم يحضر بدراً خلفه عليهِ السلام لتمريض رقية التي

توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثم زوجهُ بنتـه الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بهـا على يده اليسرى وكان له في جيش العسرة الى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليهِ السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ولما توفي عليــهِ السلام كان لأبي بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الامور . ولما قتـل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمـل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبـد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعهُ جفينة والهرمزان وهم نجيٌّ فلمـا رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأي شيءٍ قتل فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فاذا هو على الصفة التي وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منهُ الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة

وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمهُ سعد بن أبي وقاص الى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل اليهِ من أتى به وأخذ منهُ السيف وسجنهُ حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق فقال عليٌّ أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلاً حسناً لتلك المشكلة

كتب عثمان الى الأمراء والأمصار

كتب عثمان الى أمراء الأمصار كتاباً عاماً هذه صورتهُ (أما بعد فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكنّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء الا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب الى أمراء الأجناد بالثغور (أما بعد فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغني

عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه)

وكتب الى عمال الخراج (أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الاّ الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب الى العامة من المسلمين بالأمصار (أما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن امركم فان أمر هذه الامة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم امرٌ تكلفوا أو ابتدعوا

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعة ان صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (انكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم اين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال عز وجل واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات

الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً

الأمصار والأمراء لاول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عثمان هذه

(١) مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبدالله الثقفي

(٣) صنعاء وأميرها يعلي بن مُنْيَة حليف بني نوفل بن عبد مناف

(٤) الجَنَد وأميرها عبدالله بن أبي ربيعة

(٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي وهذه الخمس في الجزيرة العربية

(٦) الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي

(٧) البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي

الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازي أهل الكوفة الريّ وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف

بالريّ وكان بالكوفة اذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبهُ في كل اربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الاسلامي في تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو واعادة من شق العصا الى الطاعة ففي عهد امارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليهِ فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدي ما كانت صولحت عليهِ وسير سلمان بن ربيعة الباهلي الى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد امارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان[١] سار اليها بجند كثيف فيهِ الحسن والحسين ابنا علي والعبادلة ابناء عباس وعمر وعمرو ابن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفي سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر[٢] حتى وصل بلنجر وهي اكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مدداً لأخيهِ فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان . وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن اخوه سلمان

---

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الري وقومس والبحر و بلاد الديلم والجبل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الابواب المعروف بالدر بند

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد امارة عبدالله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفي عهد امارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطَّبَسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار الى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس الى طخارستان (١) ثم الى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار الى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب الى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد الى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم فبلغ عمّورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان الى أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس (٢)

---

(١) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون و بينها و بين بلخ ٢٨ فرسخاً والسفلى غربي جيحون أيضاً الا انها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا واكبر مدينة بطخارستان طالقان

(٢) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الابواب

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجه ام حرام بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم في البحر الاّ ان عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين

كتب عمر الى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليهِ فكتب اليهِ عمرو (اني رأيت خلقاً كبيراً يركبهُ خلق صغير ان ركُن خرَّق القلوب وان تحرّك أزاغ العقول يزداد فيهِ اليقين قلة والشك كثرة هم فيهِ كدودٍ على عود ان مال غرق وان نجا برق) فلما قرأه عمر كتب الى معاوية (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيهِ مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل وسار الى قبرس وأمده من مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحاً على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن ارادهم من ورائهم وعليهم ان يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك اسطولاً جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه احد ولم ينكب ولكنه خرج في يوم طليعة في قارب فانتهى الى المرقى من ارض الروم فنذر به

فتكاثروا عليه وقاتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الاسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره اليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار اليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الاسطول . وسير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس الى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهى أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار

وفي عهد امارة عبد الله بن سعد بلغه مجيء ملك الروم باسطول عظيم فيه ستمئة مركب فسار اليه ابن سعد باسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام باسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر باسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومهِ واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم . ففي عهد عثمان صارت الخلافة الاسلامية دولة بحرية بما صار اليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الاسلامية التي كان يشن الروم عليها الاغارة من وقت لآخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الاحوال الداخلية والفتن

الاحوال في الداخلية

لا بد ان نبسط القول فيما كانت عليهِ أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث

روى الطبري عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا بأذن وأجل فشكوه فبلغهُ فقال ألا اني سننتُ الاسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنِيّا ثم رَباعيا ثم سديساً ثم بازلاً ألا فهل ينتظر بالبازل الاَّ النقصان ألا وان الاسلام قد بزل ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا اني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا الى النار — فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طَوْل ولا مزية في الاسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً اليهم وأمَّلوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة . وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملتهُ قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال ان أخوف

ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ما يُبلّغك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس فكان أحب اليهم من عمر وروى الطبري بسنده قال لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع اليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نجحت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرّها أحقاباً طويلة وهم الى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم اذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزه . كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوي الرءوس النابغة فلا يجدون سبيلاً الى نزاع أو شر الى ما وقر في أنفسهم من الألفة الاسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين

الرعية وظل العدل وارف فوق رءوسها

ولى عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معهُ عبدالله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالاً لأجل ولما حل الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبدالله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعداً عن امارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ولما قدم عقبة كان محبباً الى الناس رفيقاً بهم . حدث في زمنهِ أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورّع بن أبي مورع الأسدي وشبيل بن أبيّ الأزدي فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانياً ثم أسلم وكان معروفاً بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبهُ في ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن

يجيب قوماً موتورين بما أجبت أي شيء أستتر به انما يقال هذا للمريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب . ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليهِ بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليهِ وهو يقيء الخمر فقال عثمان ما يقيء الخمر الاّ شاربها فأرسل عثمان الى الوليد فأقدمهُ المدينة وأفتى عليّ بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعهُ أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله اني قد بعثت اليكم وأنا كاره ولكني لم أجد بدّاً اذا أُمرت أن آتمر ألا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها والله لأضربنّ وجهها او تعييني واني لرائد نفسي اليوم . ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب الى عثمان (ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعرب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها) فكتب اليهِ عثمان (أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليهِ تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الاّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد الى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم أنتم وجوه الناس من ورائكم والوجه

ينبئ عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبساً شملتهُ نار فانقطع الى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والاذاعة فكتب سعيد الى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان في بعض الأحيان يجلس للناس جلوساً عاماً ولا يحجب عن مجلسه أحد فبينما هو ذات يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون اذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيدالله فقال سعيد بن العاص ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا الملطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تمنى له سوادنا ثم ثار اليهِ جماعة من سفهائهم فيهم الأشتر النخعي وعمير بن ضابئ ونظراؤهما فاراد أبو الشاب أن يمنع عنهُ فضربوهما كليهما في مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولا هم لهم الا الوقيعة في سعيد ومن ولاه فكتب أشراف أهل الكوفة الى عثمان بذلك وطلبوا منهُ اخراج هؤلاء النفر من الكوفة فأمر بنفيهم الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبي سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ثم قال لهم ذات يوم انكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم

بالاسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً وان قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم أن أئمتكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وأن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعيــة في حياتكم وبعد موتكم فردّوا عليهِ رداً دل على تمكن الفتنة في رءوسهم فردّ عليهم معاوية ردًّا شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة مه ان هذه ليست بأرض الكوفة والله ان رأى أهل الشام ما تصنعون وأنا امامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمري ان صنيعكم ليشبه بعضهُ بعضاً وكتب الى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يودّ بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد فأدبهم عبد الرحمن تأديباً شديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم في الوقيعة بعثمان وعمــاله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدي وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي . وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد اليــهِ ليبلغهُ أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج اليــهِ أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا يدخلها علينــا والياً أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعري حسب طلبهم

هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء أهل الحلم وضعف

سلطان الأمراء وقوة الطاعة لم يبقَ لها في نفوس القوم من أثر

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج أهلها على أبي موسى الأشعري عاملهم واستعفوا عثمان منهُ فعزله عنهم وولى بدله عبدالله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين . لثلاث سنين من امارته بلغهُ أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حُكيم ابن جبلة وكان حكيم رجلاً لصاً اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة الى عثمان فكتب الى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منهُ رشداً فكان لا يستطيع أن يخرج عنها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبدالله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليهِ وكان يلقي الى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منهُ الناس ذلك ويقول لهم عجباً لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم الى ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن أمر خلافته فبلغ شيء من خبره عبدالله بن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب في جوارك فقال ما يبلغني ذلك فاخرج عني فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار الى مصر

وهناك وجد مهده بعد أن نفث ما نفث بالعراق

أما الأمر في مصر فقد كان أشد مما في العراق فان ابن سبأ لما جاءها ألقى الى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصى محمد ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ووثب على وصيهِ وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الأمر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليهِ رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي بهِ هؤلاء الناس الاَّ أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا انا لفي عافية مما ابتلى بهِ الناس فأتوا عثمان فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا فقال لا والله ما جاءني الاَّ السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليهِ أن يبعث الى الأمصار من يستقصي أخبارها ويعلم علم ما فيها فانتدب لذلك رجالاً سيرهم الى الأمصار فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة واسامة بن زيد الى

البصرة وعبدالله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وفرّق رجالاً سواهم في البلاد الأخرى فأقبل جميعهم الا عماراً فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم أما عمار فقد ورد الى عثمان كتاب من عبدالله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيهِ انه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا اليهِ منهم عبدالله بن السوداء وخالد بن مُلْجَم وسودان ابن حمران وكنانة بن بشر وكانَ من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان محمد بن أبي حذيفة وكان الذي دعاه الى ذلك أنه كان يتيماً في حجر عثمان فكان عثمان والي أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولي فقال يا بني لو كنت رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليهِ أن منعهُ الولاية والثاني محمد بن أبي بكر وقد كان من الاسلام بالمحل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالَّة فلزمهُ حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الى هذا فصار كما يقول سالم بن عبدالله بن عمر مذمماً بعد ان كان محمداً وانما مال اليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب انه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان وكان قذفاً

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط الاّ أنهُ كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أباذر فقال يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله الا أن كل شيء لله كأنهُ

يريد أن يحتجنهُ دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال فلا تقله قال فاني لا أقول انهُ ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهودياً ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق بهِ وأتى بهِ معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس فكتب معاوية الى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز اليهِ أبا ذر فأرسله اليهِ فلما قدم عليهِ ورأى المجالس في أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنهُ لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً فقال يا أبا ذر عليَّ أن أقضي ما عليَّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكناً من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنهُ رأي فائل فأمر أبا ذر أن يخرج الى الربذة فيقيم بها ويقال ان أبا ذر هو الذي طلب منهُ ذلك فسيره وأجرى عليهِ رزقاً وعلى رافع بن خَديج مثله وقد توفي أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين الى الاسلام . أما الحال في المدينة فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سبباً لكثرة الحديث في

عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصهُ وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل الى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعاً بالموسم فقدموا عليهِ عبدالله بن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الاذاعة اني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب هذا الأَّ بي فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء لا والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء وما هي الاَّ اذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء اليها قال فأشيروا عليَّ فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع في السرّ فيلقى بهِ غير ذي المعرفة فيخبر بهِ فيتحدث بهِ في مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم اذا أعطيتهم الذي لهم فانهُ خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الاَّ الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال فما الرأي قال حسن الأدب قال فما ترى يا عمرو قال أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ان الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعاً اللين . فترون أن جميعهم أشاروا عليهِ باستعمال

الشدة مع هؤلاء الذين لا همّ لهم الاّ اذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرتم بهِ عليّ قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منهُ ان هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وان بابهُ الذي يغلق عليهِ فيكفكف بهِ اللين والمؤاناة والمتابعة الاّ في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب أحدها فان سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحنّ وليست لأحد عليّ حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله ان رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم واذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الأمراء الى أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا بهِ وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معهُ الى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بشيء وان كان فيهِ قطع خيط عنقي فعرض عليهِ أن يرسل له جنداً يقيمون معهُ بالمدينة للمحافظة عليهِ فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية ان يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض الا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى اذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري وأقره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس

ولتحقق عليهِ فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل اليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبرا ولم يضطغنا فلما رآهما اولئك القادمون أخبروهما بما يريدون فقالوا انا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى تقدم فنحيط بهِ فنخلعه فان أبى قتلناه فرجع الرجلان الى عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليهِ بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً ان هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم الا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها عليّ عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم الا واني قدمت بلداً فيهِ أهلي فأتممت لهذين الأمرين أوَكذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمى واني والله ما حميت حمى قبلي والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا الاّ ما غلب عليهِ أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً الاّ من ساق درهماً وما لي من بعير غير راحلتين وما لي من ثاغية ولا راغية واني قد وليت واني اكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي اكذلك هو قالوا اللهمّ نعم

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها الاّ واحداً ألا وان القرآن واحد جاء

من عند واحد وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا اني قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليهِ وسلم والحكم مكي سيره رسول الله صلى الله عليهِ وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل الا مجتمعاً محتملاً مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولي من قبلي أحدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم أشد مما قيل لي في استعماله أسامة أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا اني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه واني انما نفّلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفّل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددتهُ عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا اني أحب أهل بيتي وأعطيهم فاما حبي فانهُ لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم وأما اعطاؤهم فاني انما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذٍ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفنى عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا واني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددتهُ عليهم وما قدم عليَّ الا الأخماس ولا يحل لي منها شيء فولى

المسلمون وضعها في أهلهـا دوني ولا يتفلت من مال الله بفلس فمـا فوقه وما أتبلغ منه ما آكل الا من مالي

وقالوا أعطيت الأرض رجالاً وان هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصـار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار بلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيهِ فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف وأعطى بني عثمان مثـل ذلك وقسم في بني العـاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف

فا كتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسهِ ولم يفعل شيئاً مع ذلك الوفد بل أعادهم الى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليهِ . فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعـة أمراء وعددهم بين الستمئة والألف وأميرهم جميعاً الغافقي بن حريب العكي ولم يجترؤا أن يعلموا النـاس بخروجهم الى الحرب وانما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي وكانت أهواء أهل الامصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضياعه كانت ببلدهم

وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون علياً لتماليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم . ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هنالك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة واتفقوا جميعاً أن يقدموا روّداً ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما علياً وطلحة والزبير وقالا انما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا الاّ لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان الى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردّاً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة الاّ والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر اخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم

نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلي ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا اليه قال والله لا أقوم معكم الى أن قالوا فلم كتبت الينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتاباً فنظر بعضهم الى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا النــاس) . ثم تركهم علي وخرج من المدينة . ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال انما هما اثنتان أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا اله الا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتــاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منهُ أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره . كان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي ابن أبي طالب لم يفعل ما يمكنهُ لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما مراسلات يطلب اليهِ فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنهُ ومن ذلك ما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل أن عثمــان كتب الى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطُّبيين وبلغ الأمر بي أشده ثم تمثل بهذا البيت

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل   والا فأدركني ولمــا أمزقــ)

وكانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلي ضلعاً في هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة تبدي عما في القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحــة المسلمين وقد أدت الحال الى أن

ترك علي المدينة رأساً في هذه الفتنة التي نظن أنهُ لم يكن في امكانه قمعها الا أنهُ كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل ما في النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت أُلفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعلوا ما فعلوا . لوكان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الاعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرقت كلمة المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليهِ حتى منعوه الماء فكان لا يصل اليهِ منهُ شيء الاّ خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليهِ الحصار لما بلغهم أن جنداً من الأمصار أقبلت لنصر عثمان . وفي اثناء الحصار ولّى عبدالله بن عباس موسم الحج وكتب معهُ كتاباً مطولاً يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيهِ فسار ابن عباس أميراً على هـذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسوّر من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنـهُ أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً . دخل عليـهِ جماعة فيهم محمد بن ابي بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معهُ وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارّة نائلة بنت الفرافصة واتقت

السيف بيدها فتعمدها ونفح اصابعها فأطنّ اصابع يدها ثم اهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت واخرجوا من فيهِ ثم اتوا بيت المال فانتهبوه واذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم



المحاضرة الثامنة والعشرون

اسباب مقتل عثمان – بيت عثمان – علي وكيف انتخب – ترجمته – اول خطبة له – اول اعماله

اجمال الاسباب التي ادت الى قتل عثمان

بعد أن اتينا على تفصيل الحوادث التي ادت الى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث

السبب الأول

مهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريدو السوء سبباً للفتن والثورات فاذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فان من يتصفح احوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات

الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في وجههِ وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهٍ حتى كانوا يلقبونه في بعض الاحيان نَعثلا ونعثل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للغض منهُ ويقول في لسان العرب أنهم لم يجدوا فيهِ عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أُثِرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التي أدت بهم الى مثل هذا ومن غير نظر الى ما تحدثهُ هذه الكلمات بين العامة خصوصاً اذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثاني

كان عثمان معروفاً بخلق الحياء واللين اما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليتهِ وفي اسلامه حتى قال في حقه عليهِ السلام (الا استحيي من رجل تستحيي منهُ الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الاغضاء عن كثير مما يكره اما اللين فان الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخلُ من هذا دعاه الخلق الاول الى التسامح مع من يناله منهم اذى في حق نفسه فلا يوجه الى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وان حسن عند الحكماء فانهُ لا يحسن ابداً في سياسة الرعية بل لابد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم . انظروا الى ما فعله عمر مع سعد بن

أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل اليهِ مدلاً بمركزه فانه خفقهُ بالدرة وقال جئت لا تهاب سلطان الله في أرضهِ فأحببت ان أعلمك أن سلطان الله لا يهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنهُ ضعفاً او ذلة . والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا اليهِ وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة . أشار عليهِ ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحاً باب الفتنة الذي يخيفهُ . ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليهِ مشيروه من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسهِ أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون الى بلادهم فما زادهم ذلك الاَّ فساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليهِ فكلما أعجزهم باب عدلوا الى غيره

السبب الثالث

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قريش فان عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها الاَّ باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا مما حببهُ اليهم ولكن ترتب عليهِ ما حذره عمر فانه قد اجتمع اليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم وتقربوا اليهم حتى اذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس

اليهم فنبه بذلك ذكرهم والا فلما ذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً . صحيح أن علياً لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحماً وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه علي فلم تكن طلبات أهل الأمصار الا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة الى أولئك الأعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شأن اذا انتقلت الخلافة الى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه . لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم الى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير في الجماعات متى أُتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم في هذه الحال لا يصطبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له ان كان مؤلماً ويسرون ان كان ساراً . كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عرباً يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبدالله بن سبأ من الجهة التي يألفونها

وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم عليّ بن أبي طالب وصي رسول الله كما كان لكل نبي وصي وانهُ من اللازم أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحاً لعلي بن أبي طالب حتى علا بهِ الى درجة لم يطلبها علي لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل ادخاله في القلوب خصوصاً اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قِبَل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوي قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لأغراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب الى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل الى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلي بهِ هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نرَ من العمال من استمر موثوقاً بهِ من عُمَر حياته كلها الاَّ افراداً قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر الى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين واهدأها وكانوا يعيبون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لا لأنهُ ظالم او جائر وانما لأمر آخر وهو

أن النبي صلى الله عليهِ وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منهُ عثمان فعفا عنهُ ولم يعلموا أن الرسول كان اذا عفا فانما جرّ على الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان والياً لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هـذه المذام موجهة بحق لرفع جور وانما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن اولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الأمـة . واذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يُتجنى بهِ على أولي الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الأحيان فرقة عمليـة تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الآ لأن المسألة أُلبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بمـا يثبتهُ وما يختلقهُ الى غرض من الأغراض . ولو نظرنا الى المسئلة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليـهِ بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليهِ وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ثم نحكم بأنهم أخطئوا خطأً عظيماً ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم ولم يبقَ منهم من يمكننا الانتقام منهُ لسوء قصده او تبيين

الصواب له لخطئه وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها الاّ ان كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فانهم يبصّرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح. وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً. وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك ان كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه. ان الشر حينئذٍ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب ما فعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن الاّ بصعوبة واستتار. خرجوا بهِ بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته الاّ نفر قليل وصلى عليهِ جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ — ٢ تزوج عثمان بمكة رقيـة بنت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وولدت له ولداً اسمهُ عبد الله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم اختها

٣ وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الأصفر فمات

٤ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدّوسي فولدت له عمراً وخالداً وأبانا وعمر ومريم

٥ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات

٧ وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم . وقد توفي وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة — القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف — يعلى بن منية على صنعاء — عبد الله بن ربيعة على الجَنَد — عبد الله ابن عامر على البصرة — سعيد بن العاص على الكوفة — عبد الله بن سعد على مصر — معاوية بن أبي سفيان على الشام

٤ ﴿ علي بن أبي طالب ﴾

كيف انتخب

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب مشابهة لما كان عليهِ الحال في انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كانت أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا الى الجماعة وأجمع

رأيهم على انتخاب أبي بكر . وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لأنه كان قد عهد الى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته . وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد الى واحد من ستة يعيّنونه هم وبيّن الحدود في المخالف . أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر الاّ بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة . وأصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كثير منهم كان خارج المدينة منهم المرابطون في الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيماً بالمدينة

كانت الكلمة العليا في المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلاً ثم أجاب الى ذلك . ويقول الكوفيون أول من بايعهُ الأشتر وكان من المهم عنده أن يبايعهُ طلحة والزبير لأنهما زميلاه في الشورى وان تطلع الى الخلافة أحد دونه فهما . فروى الطبري عن الزهري أنه دعاهما الى البيعة فتلكأ طلحة فقال مالك الأشتر وسلّ سيفه والله لتبايعنّ أو لأضربنّ به ما بين عينيك فبايعهُ وبايعهُ الزبير . وروي أن علياً قال لهما ان أحببتما أن تبايعاني وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك انما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا .

وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال خلوا سبيله . وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال لا أبايع حتى يبايع الناس قال ائتني بحميل قال لا أرى حميلاً قال الأشتر

خل عني أضرب عنقه . قال علي دعوه أنا حميله انك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً . وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مُخَلَّد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفَضالة بن عبيد وكعب بن عُجْرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون الى عثمان. وهرب قوم من أهل المدينة الى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبدالله بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعهُ من عدا هؤلاء من أهل المدينة الاّ من فر ولحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة ولما ارسل الرسول عليه السلام كان علي مراهقاً وكان مقيماً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب الى الاسلام وكان له الشرف العظيم بيياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون في وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر أن يسلمها لأهلها و بعد الهجرة زوجه عليه السلام بينته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الاثر المحمود والمقام الذي لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعاً يخوض الغمرات ولا يبالي بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا

يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع الاَّ بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد ابو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم الاَّ أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الاحكام الشرعية ولما عهد عمر الى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الاغلبية له الاَّ أنها لم تصادفه وصرفت عنه الى عثمان فرضي و بايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى ان اسمهُ استعمل للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً ان لم تقم معنا فلمَ كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك . ولما انتهى امر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

اول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليهِ ثم قال ان الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بيَّن فيهِ الخير والشرّ فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها الى الله سبحانهُ يؤدّكم الى الجنة ان الله حرم حُرَماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانهِ ويده الاَّ بالحق ولا يحل أذى المسلم الاَّ بما يجب. بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا

الله عز وجلّ ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا بهِ واذا رأيتم الشرّ فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض

ولما أراد علي الذهاب الى بيتهِ قال له السبئية فيما قيل

خذها اليك واحذرن أبا حسن ... انا نمرّ الأمر امرار الرّسن

صولة أقوام كأسداد السُّفن ... بمشرفيات كغدران اللبن

ونطعن الملك بلين كالشَّطَن ... حتى يمرّن على غير عَنَن

فقال علي وذكر ما كان

اني عجزت عجزة لا أعتذرْ ... سوف أكيس بعدها وأستمرْ

أرفع من ذيليَ ما كنت أجر ... وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

ان لم يشاغبني العجول المنتصر ... أو يتركوني والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم اني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً لقدرةٍ على شيء مما تريدون قالوا لا قال فلا والله لا أرى الا رأياً ترونه ان شاء الله ان هذا الأمر أمر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً ان الناس من هذا الأمر ان حرّك على أمور . فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتد على قريش وحال بينهم وبين

الخروج وانما هيجهُ على ذلك هرب بني أمية وتفرّق القوم وبعضهم يقول والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لنترك هذا الى ما قال علي أمثل وبعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله ان علياً لمستغنٍ برأيه وأمره عناد لا نراه الاّ سيكون على قريش أشد من غيره

اول أعمال علي

رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل اليهِ بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولاً وابن عباس ثانياً فأبى ذلك اباءً تاماً كأنه قد وقر في نفسهِ أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن بلوا شيئاً من أمر المسلمين وان الابقاء على واحد منهم يوماً كاملاً نقص في دينهِ. ولو كان الأمر قد استتب وبايعهُ أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء لأن الخليفة هو الذي يعطي الولاة سلطانهم فهو حرٌّ في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع انهُ قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال على الامصار فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة . وعمارة بن شهاب الى الكوفة . وعبيد الله بن عباس الى اليمن . وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر وسهل بن حنيف الى الشام

فأما سهل فانه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام قالوا ان كان عثمان بعثك فحيَّهلاً بك وان كان غيره بعثك فارجع . قال أو ما سمعتم بالذي كان . قالوا بلى فرجع الى علي

وأما قيس بن سعد فانه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها فرقاً فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتى وقالوا ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم والاَّ فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع علي ما لم يُقد اخواننا وهم في ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتى أتى البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر . وأما عمارة فانه سار حتى اذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو الى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً وان أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن فجمع يعلى كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته الى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل في جميع الامصار الكبرى الاسلامية

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع اليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرضَ ان يدخل في بيعته لأسباب (١) أنهُ يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) انه آوى قتلته في جيشه (٣) أنه كان بين الرجلين نفور أدى الى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن امارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد

الامارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً في بيعة نتيجتها اذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للامارة عليهم ولم يرَ لعلي بيعة توجب عليهِ طاعة يضطر اليها اضطراراً

أرسل علي الى معاوية سبرة الجهني يطلب اليهِ أن يبايع فلما قدم عليهِ لم يكتب معاوية بشيءٍ ولم يجبهُ حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافه فدعا برجل من بني عبس فدفع اليهِ طوماراً مختوماً عنوانه

من معاوية الى علي

وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعهُ حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل الى علي فسلمهُ الطومار ففضهُ فلم يجد فيهِ شيئاً ثم سأل الرسول ما وراءك قال اني تركت قوماً لا يرضون الاَّ بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألست موتوراً كترة عثمان اللهمَّ اني أبرأ اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان الاَّ أن يشاء الله ومن الغريب أن علياً لما أمر الرجل بالرجوع أمنهُ فاراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل اني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل الاَّ بشق الأنفس

أحب الناس أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهل القبلة أيجسر عليهِ أم ينكل عنهُ وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليهِ ودعاه الى القعود وترك الناس فدسوا اليهِ زياد بن حنظلة التميمي فجلس اليهِ ساعة ثم قال له علي يا زياد تيسر فقال لأي شيء قال تغزو الشام فقال زياد الأناة والرفق أمثل

ومن لا يصانع في أمورٍ كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو على ذلك اذ فجأه ما هو أشد عليهِ من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وأنهم توجهوا الى البصرة . وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة في هذه الأوقات وقد علمت وهي بمكة أن عثمان قتل وانه قد بويع لعلي بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها (ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أنْ عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعدوان ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا

المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذي اعتدوا به عليهِ كان ذنباً لخلص منهُ كما يخلص الذهب من خبثهِ أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله ابن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طالحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمهِ ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية الاَّ من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قِبَل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما ان الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيهِ الأحداث وآووا فيهِ المحدثين واستوجبوا فيهِ لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيهِ الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في اصلاح هذا وقرأت لاخير في كثير من نجواهم الاَّ من أمر

بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس تنهض في الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا الى معروف تأمركم بهِ ونحضكم عليهِ ومنكر تنها كم عنهُ ونحثكم على تغييره . ثم سألا طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع علياً قال بلى واللجّ على عنقي وما أستقيل علياً ان هو لم يحل بيننا وبين قتله عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان الى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأي واحد فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج اليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معهُ في ميسرة المربد ووقف الآخرون في ميمنتهِ فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنهُ صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنى ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرّت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حُكَيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معهُ فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل . وفي غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا الى أن زال النهار ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم الى الكف فيأبون حتى اذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولاً الى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فان كانا قد بايعا كرهاً فالأمر أمرهما والاَّ فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولاً هو

كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم جمعة فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين فلم يجبهُ أحد من القوم الاَّ ما كان من أسامة بن زيد فانهُ قام فقال اللهمَّ انهما لم يبايعا الاَّ وهما كارهان فوثب عليهِ سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليهِ لولا أن قام نخلصهُ من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة واخذ بيده صهيب الى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب الى البصرة . وكان علي لما علم بخبر كعب كتب الى عثمان يعجزه ويقول والله ما اكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل وان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب الى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الأمر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد الى علي. وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معهُ عدد عظيم ممن كانت له شركة في دم عثمان ثم نادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة الا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم أذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم الى أهل الشام والى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم بهِ . واستمروا منتظرين ما تأتيهم بهِ الأقدار

روى الطبري عن علقمة بن وقَّاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليهِ أخلاها وهو ضارب

بلحيتهِ على زوره فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس اليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك الى زورك ان كرهت شيئاً فأجلس فقال يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا اذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً انهُ كان مني في عثمان شيء ليس توبتي الاَّ أن يسفك دمي في طلب دمهِ قلت فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالاً فان يك شيء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف في هذا الأمر فأمنعهُ . فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فان حدث بهِ حدث كنت تخلفهُ في عياله وضيعته قال ما أحب أن أسال الرجال عن أمره



المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمل — صِفّين

أمر علي

لما بلغ علياً مسير من سار الى البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغهُ أنهم فاتوه فبعث الى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا الى معاونتهِ على المخالفين عليـهِ . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس الى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيباً وكان آخر خطبته أما اذ كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا

جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة . فتكلمت رسل علي وأغلظت لأبي موسى القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لأهل الكوفة يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الأمر من ينفر اليه والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم بهِ فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن اني غادٍ فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فنفر من أهل الكوفه تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلتهُ الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلجوا داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمراً فيهِ صلاح الاَّ آثرناه على ما فيهِ الفساد ان شاء الله . ثم ان علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة قالت أي بني اصلاح بين الناس . فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاءا أخبرا أن مقصدهما كمقصد عائشة فقال لهما القعقاع ما هذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركاً للقرآن وان عمل كان احياءً للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمئة رجل الاَّ رجلاً فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطالبتم ذلك الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعهُ ستة آلاف وهم على

رجل فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم بهِ هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. ولا أرى دواء لهذا الأمر الاَّ التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودركٌ بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وان أنتم أبيتم الاَّ مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثأر وبعثة الله في هـذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وايم الله اني لأقول هـذا وأدعوكم اليهِ واني خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل فان هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم أحسنت وأصبت فان جاء عليّ بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع الى علي فأخبره فأعجبهُ ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلنّ غداً أحد أعان على عثمان بشيءٍ في شيءٍ من أمور الناس وليغن السفهاء عني أنفسهم . فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض ان اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح الاَّ علينا فقال لهم ابن السوداء ان عزكم في خلطة الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذاً من أنتم معهُ لا يجد بدًّا من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير

عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون . لما وصل علي الى البصرة بعث الى القوم ان كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل . قام السبئيون في الغلس ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ما هذا قالوا طرقنا أهل الكوفة ليلاً فقالا قد علمنا أن علياً غير منتهٍ حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منهُ يخبره بما يريدون فقال له ما فجئنا الاّ وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بدّاً من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فانهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول

نحن بني ضبة أصحاب الجمل   ننعي ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل   ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمهُ أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل انسان من خلفهِ وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمي فيهِ من النبل فجاء محمد بن أبي بكر

وعمار بن ياسر فقطعا عرضة الرحل واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة . وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعهُ حتى اذا كان بوادي السباع غافله فقتله

قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبدالله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الموقعة مرّ علي بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه انما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة في البيت التي نزلت فيهِ فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الاَّ ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندي على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها الاَّ ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليهِ وسلم في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها علي أميالاً وسرح بنيه معاً يوماً

بعد انتهاء الموقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمَّر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبي سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التي سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف

بعضهم بازاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيماً مهيباً

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين امام يرجع اليهِ الأمر في تحقيق هذه القضية واقامة الحد على من يستحقهُ . ان اعطاء الحق للأفراد في أن يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته او اتهم بالهوادة فيهِ مفسدة للنظام الذي أسس عليهِ الاسلام واذا كانوا لا يرون لامامة علي صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين اولاً للنظر في أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في اقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس الى أمرهم من غير أن يكون لهم امام يرجعون اليهِ ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت تبينت ولم يكن عند علي بن أبي طالب من الأناة ما يمكنهُ من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان . حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير في قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشهِ أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليهِ وان من الخطأ العظيم أن يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى الى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيهِ من

كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لا يحسن في نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق انما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم في تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظاً لأنفسهم على أن مجرد وجودهم في جيشهِ كافٍ لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وان كان هو ينكر ذلك انكاراً تاماً وهو عندنا الصادق في قوله . والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنهُ لا يكفي لبراءة الانسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة من براءتهِ وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب بهِ من خرج عليهِ من قومهِ بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليهِ الى حظيرتهِ والكي لا يكون الاّ آخر الدواء

امر صِفّين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع امراً وهو الحرب في صِفين

انصرف علي من البصرة الى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولاً الى معاوية بن ابي سفيان يطلب اليهِ البيعة فشخص جرير الى دمشق وأنهى الى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره . وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم . والشام مجمع اجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من

قوتها فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم فجاء جرير علياً وأخبره بما عليه أهل الشام فلم يرَ علي الا المسير والقتال . خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فخرج اليه بأهل الشام

أخذ عليّ بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة . هناك قدم طلائعه امامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان في سهل صِفين وتواقفت الجنود الاسلامية بعضها امام بعض

اختار عليّ ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون اليه الطاعة وهم بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشَبَث بن رِبعي التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يا معاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك واني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها فقال له معاوية هلاّ أوصيت صاحبك بذلك فقال ان صاحبي ليس مثلك ان صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا قال يأمرك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من

الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة امرك قال معاوية ونطلّ دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك ابداً فقام شبث فقال يا معاوية اني قد فهمت ما رددت . انهُ والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب انك لم تجد شيئاً تستغوي بهِ الناس وتستميل بهِ أهواءهم وتستخلص به طاعتهم ألا قولك قتل امامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد ابطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التي اصبحت تطلب ورب متمني أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله مالك في واحدة منهما خير لئن اخطأت ما ترجو انك لشر العرب حالاً في ذلك ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صَلي النار فاتقِ الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر أهله . ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة الاَّ رد شديد وأمره اياهم بالانصراف فأتوا علياً واخبروه بالخبر

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٣٦ فلما أهلّ المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعاً في الصلح واختلفت بينهما الرسل في ذلك فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن خصفة وشبث بن ربعي وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حمقه سبباً في عدم النجاح . لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال انا أتيناك ندعوك الى أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدما. ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ان ابن

عمك سيد المرسلين أفضلها سابقة وأحسنها في الاسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبقَ أحد غيرك وغير من معك فانتهِ يا معاوية لا يصبكَ الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل . فقال معاوية كأنك انما جئت متهدداً ولم تأتِ مصلحاً هيهات يا عدي كلا والله اني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وانك لمن المجلبين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عزّ وجلّ هيهات يا عدي قد حلبت بالساعد الأشد فقال شبث وزياد أتينـاك فيما يصلحنا واياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما لا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا واياك نفعه — وقال يزيد بن قيس انا لم نأتِ الاّ لنبلغك ما بعثنا بهِ اليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننّا أن لنـا عليك بهِ حجة وأنك راجع به الى الألفة والجماعة. ان صاحبنا من قد عرفتَ وعرف المسلمون فضله ولا أظنهُ يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميلوا بينك وبينه فاتقِ الله يا معاوية ولا تخالف علياً فانا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منهُ . فقال معاوية أما بعد فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتم اليها فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فانا لا نراها ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليهِ أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم بهِ ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة . فقال له شبث أيسرك يامعاوية أنك أمكنت من عمار تقتله فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سُمية ما قتلتهُ بعثمان

ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لا تصل الى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية انهُ لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق . وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي الاَّ بمثل ما انتهت اليهِ لأنهُ كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها . وأرسل معاوية الى علي حبيب ابن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شُريق فدخلوا عليهِ فتكلم حبيب فقال أما بعد فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عزَّ وجلَّ وينيب الى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليهِ فقتلتموه فادفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليهِ رأيهم فقال له ما أنت لا أمَّ لك والعزل وهذا الأمر اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك ان أبقيت عليَّ أحقُرة وسوءًا اذهب فصوّب وصعد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط ان كلمتك فلعمري ما كلامي الاَّ مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبت بهِ قبل فقال علي نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضهُ الله اليهِ واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر

فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما ان توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل اشياء عابها الناس عليهِ فساروا اليهِ فقتلوه ثم أتاني الناس وانا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم فقالوا لي بايع فان الأمة لا ترضى الاَّ بك وإنَّا نخاف ان لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني الاَّ شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلا غرو الاَّ خلافكم معهُ وانقيادكم له وتدَعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً ألا اني أدعوكم الى كتاب الله وسنّة نبيهِ واماتة الباطل واحياء معالم الدين . فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول انهُ قتل مظلوماً ولا أنهُ قتل ظالماً قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منهُ برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول

لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادي ألا ان أمير المؤمنين يقول لكم اني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليهِ واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليهِ فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا الى حق واني قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام الى امرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش . وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا

وقائد من هنا حتى اذا مضت سبعة ايام قال علي لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي

أصبحت الأمة في أمر عجب   والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب   ان غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشئوم لا يزال المسلمون يعدّونهُ شؤماً من لدن ذلك الحادث الى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كلهُ ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم الى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنهُ مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر بهِ في ذلك الوقت الأشتر النخعي فقال له علي ائتِ هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فذهب اليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معهُ فأخذ لا يعمد لكتيبة الاَّ كشفها ولا لجمع الاَّ حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل الى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة

أبت لي عفتي وأبى بلائي   واقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدي او تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار . وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى اذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلي يمده بالرجال لما رأى من ظفره . وبينا هم في هذه الشدة الشديدة اذا بالمصاحف قد رفعت على رءوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام مَن لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب الى كتاب الله فقال لهم علي يا عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال ويحكم انهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها وما رفعوها لكم الاّ خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعى الى كتاب الله عزّ وجلّ فنأبى أن نقبله وقال مِسْعر بن فَدَكي التميمي وأشباه له من القراء أجب الى كتاب الله اذا دُعيت اليهِ والاّ ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان انه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزّ وجلّ والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك . ثم طلبوا منه أن يبعث الى الأشتر ليترك القتال فأرسل اليهِ رسولاً فقال الأشتر للرسول ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي اني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليهِ حتى ارتفع

الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم والله ما نراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليهِ فليأتك والاَّ والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للأشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسعهُ الاَّ المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليهِ قال له معاوية نرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليهِ فقال له الأشعث هذا الحق ثم رجع الى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو ابن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وانا قد رضينا أبا موسى الأشعري فقال علي قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنهُ فأبوا الاَّ اياه فاضطر علي للسير على ما رأوا

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم — نتائجه — الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليهِ علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليٌ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من

المؤمنين والمسلمين انا ننزل عند حكم الله عزّ وجلّ وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله عزّ وجل بيننا من فاتحتهِ الى خاتمتهِ نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عزّ وجلّ وهما أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا بهِ وما لم يجدا في كتاب الله عزّ وجلّ فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليهِ وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على ما في هذه الصحيفة وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلّا القضاء الى رمضان وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراضٍ منهما وان توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وأن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيهِ مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وان رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه الا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيهِ إلحاداً وظلماً ألهمّ انا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة) . ويلي ذلك أسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧

وبهذا العقد انتهت واقعة صِفين التي قتل فيها من شجعان

المسلمين وأنجادهم تسعون الفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور . ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حلّ بالأمة وانما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة علي تنصره لأنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه وليّ عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى اليه قتلته

يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعليّ يرى لنفسه من الفضل والمسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلاً عنه ولماذا ؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الاسلام الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك واذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم الأمر الا رغماً لأنه لم يجد له انصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه . كان اذا تكلم عن معاوية او كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخطابهم بأشد ما يخاطب به انسان ولا

ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلامية ومثله لا ينال الاّ بالأناة وشيء من المصانعة والسهولة وهـذه اشياء لم يرَ علي أن يتنزل اليها أما معاوية فانه بدون ريب كان يرى نفسهُ عظيماً من عظماء قريش لانه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب واكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما ان علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعـة النسبية ثم كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن علياً لا ينظر اليه بتلك العين التي كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى ان انضمامه الى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة . وجد أمامه شبهـاً تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) انه لم يستشر في تلك البيعـة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت امرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتي ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي (٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخـذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم — كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع في المذلة والمهانة

شخصان ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما الى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رءوسهم

من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب اولاً أن تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى وكلا الأمرين لا يرضى بهما علي . اما قتلة عثمان فلأنهُ اذا أراد انتزاعهم من جيشهِ لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه واما الثانية فلأنهُ لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه . أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليهِ الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي .

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الى دمشق . اما جند علي فان الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضهُ عليهم يقرءونهُ حتى مر بهِ على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديّة وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال لا حكم الاَّ لله ثم شد بسيفه فضرب بهِ عجز دابتهِ ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا اليهِ

واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي الى صِفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصِفين حتى فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم امامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معهُ حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذي كان رسول علي الى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين الى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عزَّ وجلَّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فبعث اليهم علي عبدالله بن عباس وقال له لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج اليهم ابن عباس فأقبلوا عليهِ يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عزَّ وجلَّ ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليهِ وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيهِ والاصلاح له فهو اليهم كما أمر بهِ — وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيهِ حكم في الزاني مئة جلدة وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فان الله عزَّ وجلَّ يقول يحكم بهِ ذوا عدل منكم فقالوا له أوتجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين . وقالوا ان هذه الآية بيننا

أَعَدْلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حربهِ وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمهُ في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم الى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينهُ كتاباً وجعلتم بينكم وبينهُ الموادعة والاستفاضة وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الامن أقرّ بالجزية . ثم جاء علي فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انتهِ عن كلامهم ألم أنهكَ ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صِفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيي ولما أبيتم الاّ ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن وان أبيا فنحن من حكمهما بُراء قالوا له نخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء فقال إنّا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم بهِ الرجال قالوا نخبرنا عن الأجل لمَ جعلتهُ فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبّت العالم ولعل الله عزّ وجلّ يصلح في هذه المدنة هـذه الأمة ادخلوا مصركم رحمكم الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا ان التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك والاّ فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبي المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن علياً كان اماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعتهِ فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن

مرتكب الكبيرة كافر فماذا يكون معاوية بغى على الامام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع ان قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصاً فاللين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه الاَّ لله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم لجند معاوية سواء بسواء . فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة . أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج الى النظر فان ادعى انه له شبهاً في نفس امامة الامام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيهِ التحكيم وليس تحكيماً للرجال في دين الله وانما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليهِ حكم فان القاضي الذي ترفع اليهِ قضية سرقة لا يطلب منهُ الاجتهاد في أن السارق تقطع يده او لا تقطع وانما يطلب منهُ الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليهِ حتماً أن يحكم بقطع اليد فان قالوا ان التحكيم من علي شك في أمامتهِ والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحتهِ كان هذا باطلاً أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمهِ انكاراً او تمسكاً بشبه فانه لا طريق أمامهُ الاَّ أن يرفع الأمر لقاض أو لمحكمين يكون حكمهما قاطعاً لنزاع خصمه . وعلى الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت

أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان. والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها الاَّ غاوٍ في نظرهم والاَّ فكيف يؤول فعلهم. كانوا بالأمس يرون في علي أنهُ أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونهُ هذه المباينة ويرون انهُ ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث علي اربعمئة رجل عليهم شريح ابن هانيء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي امورهم وأبو موسى الأشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء بهِ ولا بما رجع بهِ ولا يسأله أهل الشام عن شيء واذا جاء رسول علي جاء أهل العراق الى ابن عباس فسألوه ما كتب اليك أمير المؤمنين فان كتمهم ظنوا بهِ الظنون فقالوا ما نراه الاَّ كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء بهِ ويرجع لا يعلم بما رجع بهِ ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون. وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام

المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاءا لأجله وهو اصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسى أشهد — قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية اولياؤه — قال بلى — قال عمرو فان الله يقول ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليهِ سلطاناً فلا يسرف في القتل انهُ كان منصوراً فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فان تخوّفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فان لك بذلك حجة تقول اني وجدتهُ ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وقد صحبهُ فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولي اكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتقِ الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح انما هو لأهل الدين والفضل مع اني لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيتهُ علي بن أبي طالب واما قولك ان معاوية ولي دم عثمان فولّه هذا الأمر فاني لم أكن لأولّيه معاوية وأدع المهاجرين الأولين واما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانهِ كله ما ولّيته وما كنت لأرتشي في حكم الله عزّ وجلّ ولكنك ان شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمستهُ في هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل على انهما قد اتفقا على خلع المتنازعين

واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذٍ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبقَ الاّ اعلام الناس بما اتفقا عليهِ فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى في كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليهِ ثمَّ قال ايها الناس إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع عليهِ رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هـذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثم نحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليهِ وقال ان هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانهُ ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا — ويروي المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب في نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذي ثبتّهُ انما هو حَكَمهُ والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمعا عليهِ لا ما رضي بهِ أحد الحكمين ولم ينقل أحد ان أبا موسى رضي في خطابهِ ببيعة معاوية

ومن الوقت الذي جرى فيهِ عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بأنه لا يؤدي الى نتيجة لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل الى ما يريد من أي طريق يسلكه وقرينه يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو

مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمهُ الأ أن يصل الى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان .
قال المغيرة بن شعبة لبعض من معهُ من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال له يا أبا عبدالله أخبرني عما أسألك عنهُ كيف ترانا معشر المعتزلة فإنا قد شككنا في الأمر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة فقال عمرو أراكم يا معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمراً فقال له أراكم أثبت الناس رأياً فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة الى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن علي ليرضى بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لأن أقل ما في الحكم أن ليس لعلي امامة وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليهِ أحداً فزادت آماله في أن يكون خليفة المسلمين

رأى علي أنه لا بد له من معاودة الكرة الى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فانه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه انسان فقال له ان الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم الا لله وعلي يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبدالله بن وهب

الراسبي نخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور هذه الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة . ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبدالله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تمّ عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي اليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت .

وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله الاَّ الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فان المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم الاَّ ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد الاَّ ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... مكان الهدى أو أنني غير مهتد
وهل أنا الاَّ من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد

ألا ان هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمها وكلاهما لم

يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام وأصبحوا في معسكركم ان شاء الله يوم الاثنين . وكتب الى الخوارج يدعوهم الى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا اليهِ (أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والاّ فقد نابذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هنالك كتب الى ابن عباس يأمره أن يرسل اليهِ جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليهِ جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . هنالك بلغهُ أن الناس يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا الى ما أحببت . بلغ علياً وهو في مقامهِ بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولاً ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علامَ تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا سر بنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدوّنا من أهل الشام فلم يجد بدّاً من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل اليهم أن ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما أنتم عليهِ من أمركم فبعثوا اليهِ كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها علي وهم يسمعون فرفع راية مع أبي أيوب الانصاري ونادى من جاء هذه

الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن انه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم. فانصرف منهم جمع وخرج الى علي جمع وبقي مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحا الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معهُ ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم علي فدفعوا الى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فاذا برءوا فخذوهم معكم الى الكوفة

ولما تمّ لعلي الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصِداً فارجع الى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفى لنا على عدونا. فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد انفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم فأقاموا هناك أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا الاّ رجالاً من وجوه الناس قليلاً وترك العسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير. وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط. وهو في كل يوم يلقي عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يمر ولا يحلي ضعف سلطان امامهم في أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم

هـذه كانت حال أهل العراق مع امامهم. أما حال أهل الشام مع

امامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائماً في علو الى ما كان يستعين به من الحيل

كان مما يهم معاوية أن يستولي على مصر لأنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح . كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليهِ أهل مصر فلما تم الأمر لعلي ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلاً سياسياً خبيراً بالامور فاستقامت له الامور بمصر الا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلّد الانصاري فبعث اليهم قيس اني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم . كان أثقل شيء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليهِ عليٌّ بأهل العراق ويقبل اليهِ سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبهُ معاوية ومنّاه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعهُ ولا يبدي له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتاباً لا يستبين مراده منه الا أنه قال له أنا كافّ عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منهُ التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منهُ المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله ييأس منهُ واستنبط وجه الحيلة في اخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانهُ لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده بخربتى يجري عليهم اعطياتهم

وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليهِ منكم لا يستنكرونه في شيءٍ وكانت لعليّ جواسيس بالشام فبعثوا اليهِ بالخبر فاتهم قيساً وكتب اليهِ يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذٍ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجري عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون عليَّ وعليك من الذي أفعل بهم ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم اسود العرب فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم — فأبى عليّ الا قتالهم وأبى قيس أن يقاتلهم وكتب اليهِ ان كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث اليهِ غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب الى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته والخروج من مصر فبعثوا اليهِ إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر الى ما تصير اليهُ امورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منهُ وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم صبر معاوية ومن معهُ من أهل الشام لعلي وأن علياً ومن معهُ رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل اليهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذٍ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال ما لمصر الا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب اليهِ بعد التحكيم فاستقدمهُ وولاه مصر وكتب اليهِ ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم . والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الأشتر الى مصر بل مات بالقلزم ويقال انه سم في شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب علي الى محمد بن أبي بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر الى عملك واني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤنة وأعجب اليك ولاية منه . ان الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنهُ وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة واكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منهُ يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله وإياك على ما لا ينال الاّ برحمته)

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوي بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له همٌّ الاَّ مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا اليهِ بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز الى مصر عمرو بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليهِ العثمانية وكتب الى ابن أبي بكر (أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البِطان فاخرج منها فاني لك من الناصحين) فكتب محمد الى علي يعلمهُ بذلك ويطلب منهُ مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج اليهِ محمد في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل وفرّ الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال انه أحرقه بالنار بعد ذلك . أما علي فلم ينجح في اخراج الجنود لاغاثة مصر الاَّ بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا الاَّ قليلاً حتى بلغ علياً ما كان فأرسل اليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن ابي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف علي ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير الى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي فكتب الى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليهِ فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة : يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل أمرئ منكم في بيتهِ وأغلق بابه انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء انا لله وانا اليهِ راجعون ماذا منيت بكم عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون انا لله وانا اليهِ راجعون

ووجه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف للاغارة على هيت والأنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلي فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا الى معاوية فخرج علي في طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبدالله بن مسعدة الى تيماء وأمره أن يصدق من مرّ به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه اليه علي جيشاً يقدمهُ المسيب بن نجية الفزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديداً وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها

ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب الى اليمن وكان واليها عبيدالله بن عباس لعلي فلما علم بمسير بسر اليهِ فرّ الى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيدالله . وكان بسر عسوفاً أسرف في قتل من رآه من شيعة علي

هكذا كانت الحال في تلك الأزمنة الثقيلة التي كانت الى الفوضى اقرب

ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلي فارقهُ وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لأن علياً اتهمهُ بمال أخذه من مال المسلمين



المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته واخلاقه — الحسن بن علي — مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور — النقود الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن مُلْجَم والبرَكَ بن عبدالله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر النـاس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخواننا الذين كانوا دعاة النـاس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننـا فقال ابن ملجم أنا اكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرَك أنا اكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا اكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه اليـهِ حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعـدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل على صاحبِهِ الذي توجه اليهِ وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيهِ صاحبه . فأما ابن ملجم المرادي وكان عدده في كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من اخوانه شيئاً كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم علي يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قَطام ابنة الشِّجنة قتل علي أباها واخاها

يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفي لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب قال هو لك مهر أما علي فلم أرك ذكرته لي وأنت تريديني قالت بل التمس غرته فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ما جئت هذا المصر الا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر . ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلي يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه . ودخل الناس على علي فقالوا له ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده . وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر الا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته

أما البرك بن عبد الله فانه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودووى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد . وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو ابن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه

عمرو فقالوا اراد عمراً واراد الله خارجة .

بيت علي

تزوج علي بن ابي طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى

(٢) ام البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) اسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيي ومحمداً الأصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمر ورقية

(٦) امامة بنت ابي العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولدت له محمدا الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) ام سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من امهات شتى منهن أم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة

وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتى وكان النسل من ولده لخمسة الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية والعباس وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل احوالهم هذا السؤال . كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تيم بن كعب والثاني من بني عدي وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الاسلام وعلوّ شأنه حتى اذا آلت لبني عبد مناف وليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته في آخر عمره ولم يصف الأمر لثانيهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول صلى الله عليهِ وسلم فهم عشيرته الادنوْن وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الاسلام ذلك الى ما امتاز بهِ ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لا بد لذلك من أسباب . أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فانا سنجيب عنهُ الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الظروف التي أحاطت بهِ

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي :

الشجاعة — الفقه — الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليهِ وأول ما عرف من شجاعتهِ بياته موضع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ليلة

الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه او يؤثر في نفسهِ ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفى مكانه يبارز الأقران فلا يقفون له ويفرّق الجماعات بشدّة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى اذا جاءت خلافته جرّده على مخالفيه ففعل به الأفاعيل وكان الناس يهابون مواقفته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيهِ بالمجهول صحب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم منذ صبوته وأخذ عنهُ القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معهُ الى أن توفي عليهِ السلام كل هذا كسبهُ قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون الى رأيه اذا خالفهم في بعض الأحيان واكثر من عرف ذلك عنهُ عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبهِ ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضي جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفهُ شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منهُ الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحي اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جوادّ الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب نخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرماها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء. وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الانساني نخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الأعلى ونما به الى مشهد النور الأجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم الى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم الى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً

هذه الصفات العالية مع ما منحهُ من شرف القرابة للرسول صلى الله عليهِ وسلم ومصاهرته له جعلتهُ يرى لنفسهِ فضلاً على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويرى بذلك له الحق في ولاية الأمر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا ينحدر عني السيل ولا يرقى الى الطير . وقال فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه صلى الله عليهِ وسلم حتى يوم الناس هذا . وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لايميلون الى شخص يرى

لنفسهِ التفوّق ومزيد الفضل وانما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم . جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقهُ عليهِ غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيءٌ شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ. روى أنه لما بويع عتب عليهِ طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما فقال لهما — لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا تخبراني أي شيءٍ لكما فيهِ حق دفعتكما عنهُ وأي قسم استأثرت عليكما به أم أي حق رفعهُ اليَّ أحد من المسلمين ضعفت عنهُ أم جهلتهُ أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية اربة ولكنكم دعوتموني اليها وحملتموني عليها فلما أفضت اليَّ نظرتُ الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعتهُ وما استسنَّ النبي صلى الله عليهِ وسلم فاقتديتهُ فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلتهُ فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فان ذلك أمر لم أحكم أنا فيهِ برأيي ولا وليتهُ هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قد فرغ منهُ فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمهِ وأمضى حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق وألهمنا واياكم الصبر . وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأي علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أم خطأ فلما آل الأمر الى علي كان

يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله الاَّ أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين . كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليهِ أضيق . بويع وولاة الامصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فأشار عليهِ مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فناوءوه وكانوا عليـهِ يداً واحدة . أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفـة وثقتهم في أنفسهم انه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان . ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيـد الله بن العباس على اليمن وعبد الله ابن عباس على البصرة ففيمَ قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منـهُ تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فارهفوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة . كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلي يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليهِ وفرقتـهُ له فترك البصرة وذهب

الى مكة . وليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معهُ وأما علي فكان معظم الأمة عليهِ فضلاً عن أن كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس . وعلى الجملة فان أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائهِ عن رأي الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعدلها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجد جنداً لا يركن اليه وخصماً قوي الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم يرَ خيراً لنفسه ولا لأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحهُ على شروط رضيها الطرفان وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون

شيئاً من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في احوالهم الاجتماعيـة سواء في ادارة امورهم الداخلية أو في حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الاسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم لا زال مستعملاً لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء . وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ما ليس فيهمـا عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا في الفتيـا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني اكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وانما هي سلطان أساسه الدين

لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينـة بل كان يختار الخليفة

من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بني عبد مناف . وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليهِ وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه ازيادة في بيعة علي لأنه أباها لما عرض عليهِ الأمر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور الا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك وكان أكثرهم اهتماماً بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الاَّ بعد ان يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من اعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه . وشورى عامة من كل من له رأي من المسلمين يعرض عليهم الأمر في المسجد بعد ان يدعو الصلاة جامعة فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته. وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومهُ . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الاَّ أنه لم يكن أحد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأي صغير القدر لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع الاّ شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم لأن عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقـة بين علي ومعاوية لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الامصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معهُ من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم الاّ برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين . لم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير في طريقهِ وفي بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره ان يكون لعماله حجاب حتى انه أرسل لسعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم اليهِ

القضاء

كان القضاء معتبراً من عمـل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم ان كانت هناك حاجة الى الاستفتاء . ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة الاّ من عهد عمر بن الخطاب فانه بعث قضاة الى الأمصار ووضع لهم نموذجاً يسيرون عليهِ واستمر الحال

على ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين . ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة الى الأمير أن يولي فلاناً قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة . وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منهُ ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبهُ علي بن أبي طالب الى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تُمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفهُ ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم الى أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيهِ اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معهُ حاجته الى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيهِ غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم اذا أشكل عليهِ أمر وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءا والثاني جزءا وقد

لا يحفظ أحدهم ما يحفظهُ الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عند غيره لذلك كانوا يسألون هل عندكم شيءٌ في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوي ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع اليهِ من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوي والأقضية

لم يكن القاضي في أحكامهِ موكولاً الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وانما كان موكولاً الى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والوافعات . حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ما ذكرنا أمر لا بدَّ منهُ ولذلك عدَّه المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكأن القضاة كانوا نواباً للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطي للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعو اليه ما دام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون

للتنفيذ لأن من حكم عليهِ كان يبادر بتنفيذ ما قضي عليهِ بهِ من الحقوق فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين

ويظهر لنا ان قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد لسكر ولم يبلغنا ان قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها. وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة . ولم يبلغنا أيضاً ان قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيهِ النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دوّن لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال ان هذا تخلف . وهذا التوبيخ كان في نظرهم

أمضّ من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والاقدام ويرون في الاحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين الا أنهُ لم يسوِّ بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد ان كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر وهي ان يكرّ المحارب على خصمهِ ثم يفر ثم يكر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاماً رأى قواد الجنود من المسلمين ان هذا النظام لا يصلح معهُ حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامناً وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفهِ أو يتقدم عنه . وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيهِ أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكان يجعلون على الفرسان خاصة أميراً . وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليهِ من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبهُ عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع وأقم بمن معك

في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك الاَّ من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح واذا وطئت أرض عدوّك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخفَ عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو مِن أهل الأرض مَن تطمئن الى نصحهِ وصدقهِ فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيهِ غلبة أو ضيعة ونكاية فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذكِ حرّاسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ)

الخراج وجبايته

، كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالاً مستقلين عن العمال والقواد وقليلاً ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل الى دار الخلافة ليصرف في مصارفه

وكانت هناك ايرادات ثابتة اوعادية وايرادات غير ثابتة . أما الاولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانا شيئاً مقدراً كما جعل عمر في السواد وأحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الارض . أما الاراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب فهذه ارض عشر ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين . والعشر هو عشر ما يخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا برأي فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأي ما الارض والعلوج الاّ مما أفاء الله عليهم فقال عمر ما هو الاّ ما تقول

ولست أرى ذلك والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق . فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر فأرسل الى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال اني لم أزعجكم الا لأن تشتركوا معي فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي. معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به الا الحق قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم واني أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيتهُ غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبقَ شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها

من رجال يلزمونها أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرِ عليهم ما يتقوون بهِ رجع أهل الكفر الى مدنهم . فقال قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل اليهِ عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذٍ وزن المثقال

وأرادوا منهُ أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليهِ في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح فقال عمر اذاً أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم . وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضي والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيهِ كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقوَ الجيوش على السير في الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً في عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليهِ ولا ممن لا قدرة له على العمل. روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج ص٧٢ قال مرّ عمر بن الخطاب بباب قوم وعليهِ سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفهِ وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما ألجأك الى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل الى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنهُ الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب احوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهماً في السنة ولا تنقص عن اثني عشر. روي أن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قال من ظلم معاهداً أو كلفهُ فوق طاقته فأنا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقد بينت

الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب الزكاة فيما دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبهُ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده . وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الامام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم الى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري الى عمر ان تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليهِ عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيما دون المئتين شيء فاذا كانت مئتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فأشاروا عليهِ به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مرّ عليهِ بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منهُ ألفاً ثم مر عليهِ راجعاً في سنته فقال أعطني ألفاً أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم فرجع التغلبي الى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليهِ فقال من أنت قال رجل من نصارى

العرب وقص عليهِ قصته فقال عمر (كُفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي الى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه اليهِ من مرَّ عليك فأخذت منهُ صدقة فلا تأخذ منهُ شيئاً الى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً واني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب

وقد اتبع المسلمون سنة عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الاسلامية الى بلاد المسلمين . قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملوني على عشور الأبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليهِ الناس قال فقال لي لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية اكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة الى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف الاَّ أنهم لم يكونوا يتركون في بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منهُ بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد الى بيت المال ليصرف في مصارفهِ

النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها اذ ذاك البداوة ولما جاء الاسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأبي بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنهُ نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كلاً منها = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧ . نقل المرحوم علي مبارك باشا في خططهِ عن المقريزي قال وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنهُ زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله الاَّ الله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافتهِ دراهم ونقشها الله اكبر

الحج

كان من الأعمال الكبرى لامام المسلمين اقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيهِ أمراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الأحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونهُ بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان اكثرهم تولياً لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانهُ حج سنيهِ كلها لم يتخلف أبداً الا أنهُ حصل خلاف في السنة الأولى من حكمهِ فقيل انهُ أناب عنهُ عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنهُ مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلي أناب عنهُ كل سني خلافته لما شغل بهِ من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيماً وفائدة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض وان الخلفاء يجيئهم من الأخبار ما لا يمكن أن يكون بواسطة الولاة .

الصلاة

كانت اقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه او بواسطة نائبه وكان في كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى بهِ الجمعة ولا ينصب منبر في غيره فلم تكن تقام الأ جمعة واحدة في المصر يقيمها الخليفة ان كان أو الوالي ولم يبلغنا أنهُ تعددت المنابر في البلد الواحد في عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة في الأمة العربية خصوصاً الحجاز ونجد فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان اكثر النشء الذي نشأ فيعهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد الاَّ القرآن فانهُ جمع في صحف في عهد أبي بكر وفي عهد عثمان كتبت منهُ مصاحف عدة أرسل بها الى الأمصار ليكون كل مصحف اماماً لأهل المصر الذي أرسل اليهِ . أما سنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فلم تجمع في كتاب. وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليهِ من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة انما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها وأما العلوم الصناعية فان الأمة كانت لا تزال فيها على بداوتها وان كان قد نبغ منها من امكنهم انشاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية — معاوية وترجمته — انتخابه — حال الامة حين انتخابه — زياد

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهليـة يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبـد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد . والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهليـة من اكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص . وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلهـا يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس الى الصلح في ذلك اليوم ورهن لسدادها ولده أبا سفيان . وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطنان متعاديين في الجاهلية كما يظنهُ بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية وانمـا كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحياء المتقاربة وقد أشرنا الى ذلك فيما مضى . ولم يكن هـذان البطنان مختلفين فيما بهِ الشرف في الجاهلية الأولى بل

كان كل منهما قد أخذ منهُ قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس الى الله أجابه من بني عبد شمس جمع كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنهُ كثير من أولئك الاَّ أن بني هاشم وبني المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيتهِ . وكان يزاحم بني عبد مناف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزي بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش الا أنه لم يكن فيهم من بني هاشم الا أبو لهب . جاءت الحروب الاسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الاَّ عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الاكبر لقريش في بدر من بني عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم في أحد والأحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس. ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلاً عظيماً في نفسهِ ذا شرف يخشى على قومهِ أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفاً له وتحبباً اليهِ ما لم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فسوَّى بين بيته وبين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن وفي ذلك اليوم

أسلم معظم المتأخرين عن الاسلام من رجالات قريش وذوي النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح . وكان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أسرّ الناس باسلامهم وكان يقابلهم قائماً فاتحاً ذراعيه معانقاً لهم كما فعل بصفوان بن أمية والحارث بن هشام وغيرهم ولم يرَ رسول الله أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحقاً بهم يعيرون به في مستقبل أيامهم

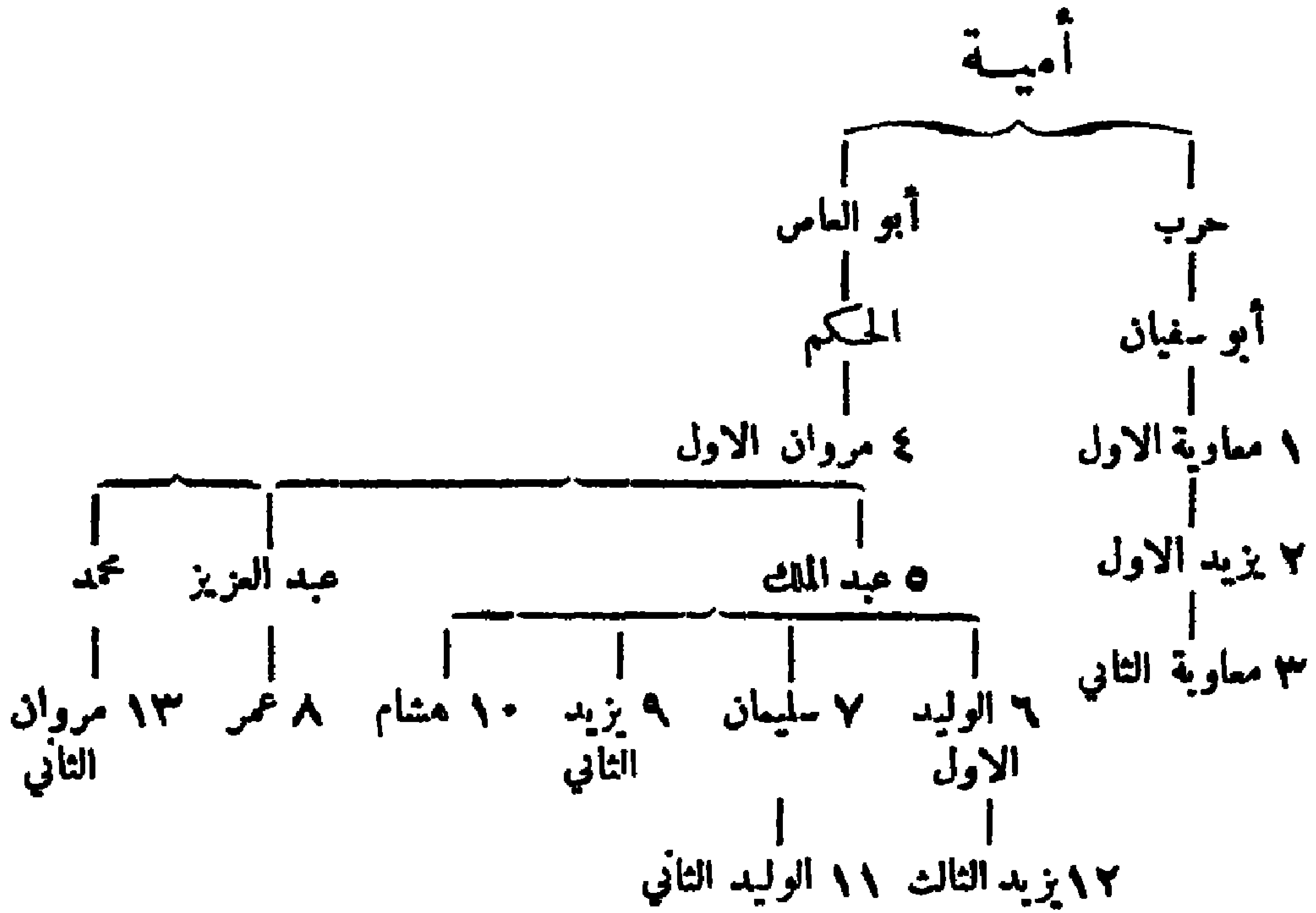
وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شاباً من بني عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسناً ثم سيرهم الى ثغور الشام وكانوا كلهم في شوق الى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للاسلام حتى يكتب لهم في نصرته ما يمحو ما كتب عليهم في مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبي سفيان فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الأربعة التي توجهت لفتوح الشام وكان الوالي على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملاً على احدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً الى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحس منهُ بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله . وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولي على الكور عمالاً من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهفوها بالطاعة

وعلى الجملة فان بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة في الاسلام وقد قال عليهِ السلام (الناس معادن خيارهم في الجاهلية

خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) فاتصلت له السيادتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبي العاص بن أمية وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة على الشكل الآتي



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثـاني عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدئ من اليوم الذي بويع فيهِ معاوية بيعة عامة في ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهي بمقتل مروان الثاني ابن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقينَ من ذي الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ ﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سـنة وفي يوم الفتح

كانت سنه ٢٣ سـنة وفي ذلك اليوم دخل في الاسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد اسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مدداً لأخيهِ يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت امرة أخيهِ وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الأردن . ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد دمشق وما معها . وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع علي بالمدينـة فرأى أن لا يبايعهُ لأنه اتهمهُ بالهوادة في أمر عثمان وايواء قتلته في جيشهِ وبايعهُ أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان من وراء ذلك أن حاربه علي بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مرَّ ذكره فلما اجتمع الحـكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معـاوية بالخلافة فصار معاوية امام أهل الشام وعلي امام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنـه الحسن بن علي الخلافة الى معاوية وحينئذٍ اجتمع على بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وانما انتخبهُ أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة . فلما قتل علي وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر اليهِ فبايعهُ في ربيع الأول سنة ٤١ فبيعتهُ اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق الآ أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج

حال الامة عند استلام معاوية الأمر

تولى معاوية أمر الأمة وهي أقسام ثلاثة القسم الأول شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الاسلامية . القسم الثاني شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونهُ ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر . القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين عن الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعهُ وقتال شيعة علي لأن كلاً قد ألحد على زعمهم في الدين ومع ما بينها من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في ادارة شؤنها وافاضة ثوب الأمن

عليها . أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منهُ يداً في السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايتهُ في الحلم لا تدرك وعصابتهُ فيهِ لا تنزع ومرقاتهُ فيهِ تزل عنها الاقدام

كان الذي يهم معاوية ويقلقهُ أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلوا في الدين غلواً عظيماً وفهموا كثيرًا منهُ على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبهم استعراض الأنفس وأخذ الأموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الاشجعي معتزلاً في ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فان أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وان أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما ان أبالي اذا أرواحنا قبضت ماذا فعلتم بأوصال وأبشارِ
تجري المجرة والنسران عن قدر والشمس والقمر الساري بمقدارِ
وقد علمتُ وخير القول أنفعه أن السعيد الذي ينجو من النارِ

فلما قتل ابن أبي الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الأسدي فسار حتى قدم النخيلة في ١٥٠ وانضم اليهِ فل ابن أبي الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثرة اكفني أمر ابنك فصار اليهِ أبوه فدعاه الى الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليهِ فقال يا أبتِ أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني الى ابني فرجع الى معاوية فأخبره فقال يا أبا حوثرة عتا هـذا جداً ولما نظر حوثرة الى أهل الكوفة قال يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج اليهِ أبوه فدعاه الى البراز فقال يا أبتِ لك في غيري مندوحة ولي في غيرك عنك مذهب ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذي الجموع حوثرة فعن قليل ما تنال المغفرة

فحمل عليهِ رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله . ثم توالت الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لا بد من تولية العراق رجالاً ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشتدون في طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما زياد ابن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان والياً له على فارس وقتل علي وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً في استقدامه فأتى المغيرة زياداً وقال له ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن أحد يمد يده الى هـذا الأمر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغني عنك معاوية فقـال زياد أشر عليَّ وارم

الغرض الأقصى فان المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص اليهِ ويقضي الله . وكتب اليهِ معاوية بأمانه بعد عود المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل الى علي وبما بقي عنده فصدقهُ معاوية وقبض منهُ ما بقي عنده

وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقهُ بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب الى زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان اياه فلما علم بذلك علي كتب الى زياد يقول له (اني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسباً وان معاوية يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفهِ وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل علي رأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفى مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان وان كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد الى عائشة أم المؤمنين يقول لها : من زياد بن أبي سفيان . وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت اليهِ: من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد . وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجراً فجاء الى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يا بني قل لأبيك انى سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك الى المدينة ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليهِ وسلم فان أذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وان منعتك فأعظم به فضيحة

في الدنيا فترك زياد الحج

وفي السنه الخامسة والاربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الاول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وانما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما في هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد أحببنا ايرادها قال :

أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفي بأهله على النار ما فيهِ سفهاؤكم ويشتمل عليهِ حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيهِ الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقيـة ولا تظنون انكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليـهِ من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيـامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب . حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً اني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بمـا صلح أوله لين في

غير ضعف وشدة في غير عنف واني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعدُ فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فاذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فاياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دَبْر اذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته . اني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس. أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن

ثلاث لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبّانه ولا مجمّراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليهِ تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنهُ لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل فاذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي

فقام اليه عبد الله بن الأهتم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود . فقال الأحنف قد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نثني حتى نبتلي فقال صدقت . فقام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى وابراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد انا لن نصل الى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوضاً

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد اليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فاذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن انساناً يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى انساناً الا قتله فأخذ ذات ليلة اعرابياً فأتى به زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني

الليل فاضطرتها الى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة ثم أمر به فضربت عنقه . وكان زياد اول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط اربعة آلاف . وقيل له ان السبيل مخوفة فقال لا أعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فان غلبني فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه . قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة . ووجه يوماً بجُبَينة بن كُبَيش الأعرجي الى رجل من بني سعد يرى رأي الخوارج فجاء بجبينة فأخذه فقال اني اريد أن أحدث وضوءاً للصلاة فدعني أدخل الى منزلي قال ومن لي بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتى به بجَبينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال انك قد قلت قولاً فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم استطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً

ولا نفعاً لنفسه ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منهُ ما ترون . وكان زياد يبعث الى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن اتياني الاً الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجـدة أنه يرى رأي الخوارج فدعاه فولاه جنديسابور وما يليهـا ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مئة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى أنكر منهُ زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسهُ فلم يخرج من حبسهِ حتى مات

وفي سنـة ٥٠ أضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة بعـد موت المغيرة بن شعبة فصار والي المصرين وهو أول من جمعا له فسار الى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصتـهِ فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولنَّ لا أدري من جليسي ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما منا من حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسهُ حتى صار الى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة علي رأسهم حجر بن عدى الكندي وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فان غبَّ البغي والغيّ وخيم ان هؤلاء جمّوا فأشروا وأمنوني فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا

لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعهُ نكالاً لمن بعده ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان . وأرسل الى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث اليهِ جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجُّون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق هـذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم. فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأي الاّ طاعتك ومافيهِ رضاك قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا اكثر أصحابه عنهُ وقال زياد لصاحب شرطته انطلق الى حجر فأتني بهِ فان أبى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتوني به وبمن معـهُ فبعد خطوب طويلة جيء بهِ فلما رآه زياد قال له مرحباً أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجني براقش. فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني على بيعتي فأمر به الى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلاً فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنهُ جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح الا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليـهِ والبراءة من عدوه وأهل حربه وأن هؤلاء النفر الذين معهُ هم رءوس أصحابه على مثـل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بهـا وبحجر وأصحابه الى معاوية فسير بهم حتى انتهوا الى مرج عذراء عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك

حنة وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية فيهِ وفي أصحابه فقدم عليهِ وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئاً الاَّ صارت بنا الأمور الى ما هو أشد منهُ لغيرنا قتل حجر . وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حجراً وكانت تتشيع

ترفع أيهـا القمر المنير   تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب   ليقتـله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعـد حجر   وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البـلاد له محولاً   كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بني عدى   تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً   وشيخاً في دمشق له زئير
فان تهلك فـكل زعيم قوم   من الدنيـا الى هلك يصير

وتوفي زياد سنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة اعلان حكم عرفي فان أخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمهِ بالسقيم أمر ليس جارياً على القانون الشرعي الذي يقصر على المسئولية على المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليـهِ الاداريون لتخفيف آلام الجرائم وارهاب الناس حتى يأمن النـاس شرّهم وفائدة ذلك في الغالب وقتيـة . ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم

المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبهِ ومن نبش قبراً دفنتهُ فيهِ حياً . ومن ذلك عقوبته للمدلج بالقتل. كل هذه قوانين عرفية شديدة وآها لاثقة لأهل العراق وقد أفادت في اصلاح حالهم لأن الأمن ساد وقلَّ خروج الخوارج في زمنـهِ ولكنهُ ضحى في سبيل الوصول الى ذلك شيئاً كثيراً والتاريخ انما يعطي الانسان صفة السياسة والحكمة اذا تمكن من اصلاح الفاسد بقليل من العسف لا تقول ذلك هضماً لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاة العراق اسرافاً في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيـده فقال انهُ لا يحتجب عن طالب حاجة وان أتاه طارقاً بليل ولا يحبس عطاءً ولا رزقاً عن ابانه ولا يجمِّر لهم بعثاً وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالي على الأمة وصدقها فيها لا تجد سبباً للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين ان زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعـد بهِ من العقوبات الاَّ قليلاَ لأن علمهم بصدقه في الايعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على ما فيهِ من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً وذلك أنهم قوم لا يصلحهم الاَّ الشدة واذا وليهم وال فيـهِ لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا الى الأمراء والخلفاء من غير أسباب مبينة واضحة



المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيدالله بن زياد — الفتوح في عهد
معاوية — بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياستهُ أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال ان فلاناً يرى رأي الشيعة وان فلاناً يرى رأي الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيهِ يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان ويرون أن في الاقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر . وقد فزع الخوارج في عهده الى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لانهُ كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة اليهِ وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيهِ بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا

المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً — ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب — قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم ثم قد صدق ذلك عندي جماعتكم . قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فان حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم الى السجن فلم يزالوا فيهِ نحواً من سنة وسمع اخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد بأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليهِ في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في أهل الكوفة خطيباً فقال (أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى واني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لي ان رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر الا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام ارادة الحجة والاعذار) فقام اليهِ معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمي لك أحد من هؤلاء القوم فان كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فان كانوا منا كفيناكهم وان كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ما سمي لي أحد منهم ولكن قد قيل لي ان جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أصلحك الله فاني أسير في قومي وأكفيك ما هم فيهِ فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه . فنزل المغيرة وأرسل الى الرؤساء

وقال لهم ليكفني كل امرئ من الرؤساء قومه والا فوالذي لا اله غيره لأتحولنّ عما كنتم تعرفون الى ما تنكرون وعما تحبون الى ما تكرهون فلا يلم لائم الا نفسه وقد أعذر من أنذر نخرجت الرؤساء الى عشائرهم فناشدوهم الله والاسلام الا دلوهم على من يرون انه يريد ان يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في احدى دور عبد القيس قام صعصعة ابن صوحان العبدي وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدي فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه نخطبهم خطاباً حسناً قال في آخره (ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا امامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فاياكم أن تؤووهم في داركم أو تكتموا عليهم فانه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لي ان بعضهم في جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فان كان حكي لي ذلك حقاً تقربت الى الله بدمائهم فان دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدي . ولما بلغ من في محبس المغيرة اجماع أهل المصر على نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها أقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي اذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فيا ليتني فيكم على ظهر سابح شديد القُصَيْرَى دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم فيسقيني كأس المنية أولا
يعز عليَّ أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد اذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مُشيحاً بنصل السيف في حَمَس الوغى يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعزّ عليَّ أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
فيا رب جمع قد فللت وغارة شهدت وقِرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه الى سورا فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا الى الصراة فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال ان هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأي فمن ترون أبعث اليهم فقام اليهِ عدي بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم. فقام معقل بن قيس فقال انك لا تبعث اليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر الاَّ وجدته سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً ولا أرى أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني اليهم فاني أكفيكهم باذن الله فقال اخرج على اسم الله فجهز معهُ ثلاثة آلاف رجل وتخيروهم من نقاوة شيعة علي وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الروّاغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى اذا أصبح خرج عليهِ الخوارج فشدوا عليهِ وعلى من معهُ فما ثبت لهم انسان ثم أن أبا الروّاغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم

الكرة الكرة . فعادوا الى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضاً وانكشفوا فقال لهم أبو الرّواغ انصرفوا بنا فلنكن قريباً منهم لا نزايلهم حتى يَقدَم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع الى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل ان الله لا يستحيي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا مثلك انا ما لم ندع المعركة فلم نهزم وانا متى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنحن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريباً منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله ان لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس درءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليهِ وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنهُ أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض الأرض يا أهل الاسلام ونزل معهُ أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفي اثنائه بلغ الخوارج أن جيشاً من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا ان يقفوا حذار ان يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم الاَّ عند الصبح فعاد متبعاً آثارهم وأبو الرواغ على مقدمتهِ في ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليهِ شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقي معهُ نحو مئة رجل فعطف عليهم وهو يقول

ان الفتى كل الفتى من لم يُهَل ... اذا الجبان حاد عن وقع الأسل
قد علمت أني اذا البأس نزل ... أروع يوم الهيج مقدام بطل

ثم عطف وعطف معهُ أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم الى مكانهم الذي كانوا فيهِ ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ في آثارهم . قال المستورد لأصحابه ان الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلاً قبل أن يلتقي بأصحابه فساد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد ان خدعه ولم يكن الا قليل حتى التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى يا عباد الله الأرض الأرض فنزل معـه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثـاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة . وبينا هم على تلك الحال اذ طلعت عليهم مقدمة أصحاب أبي الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسـة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيـد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرّا ميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة .

قال الشعبي ما ولينا والٍ بعد المغيرة مثله وان كان لاحقاً بصالح من كان قبله من العمال . وأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حباً للعافية غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيهِ والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيـا معاوية ويذل يوم

القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكروني لو قد جربوا العمال بعدي . قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبريء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر . وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليهِ لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاة العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة أخرى . وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن أدية وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ابن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كنَّ في الأمم قبلنا فقد صرنَ فينا . أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين وذكر خصلتين أخريين . فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليهِ الا ومعهُ جماعة من أصحابه فقام وركب وترك رهانه . فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبهُ ابن زياد في الكوفة فأخذ بها فقدم بهِ على ابن زياد فأمر بهِ فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا بهِ فقال كيف ترى قال أرى انك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل الى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلاً بالأهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدتهُ ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمهُ الخوارج فقال شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيدالله والياً على البصرة حتى توفي معاوية

وفي مصر كان الوالي عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متى بدأنا في تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائماً من بني أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف فان رأى منهُ خيراً وما يعجبهُ ولاه مكة معها فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معهما المدينة فكان اذا ولى الطائف رجلاً قيل هو في أبي جاد فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق . وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فان معاوية لم يحج بنفسهِ الا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمهُ هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية

الفتوح في عهد معاوية

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة والذي كان انما هو ارجاع الناكثين من أهل تلك البلاد الى الطاعة وغزا عبدالله ابن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند القيقان [١] مرتين وفي

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان

المرة الثانية استعان القيقـان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بنّة ولاهور(١) وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم . كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثـاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغوناتس الذي ولي من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيهـا الحياة تغير على البلاد الاسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو اليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل في زمنـه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنـان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منهـا جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما في البرّ فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتيـة وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو .

---

(١) مدينة ~~بكابل~~ بنجاب

وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبدالعزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق　　شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلاً بلوتُ فلا النعماء تبطرني　　ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه　　ولا أضيق به ذرعاً اذا وقعا

ثم حمل على من يليهِ فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال

فان يكن الموت أودى به　　وأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه　　فإما صغيراً واما كبيرا

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الأغريقية بسفنهم . وفي اثناء الحصار توفي أبو أيوب الانصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليهِ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوَّج فيهِ خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة الى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان في أفريقية ففي سنة ٥٠ ولى معاوية عقبة بن نافع وكان مقيماً ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا اذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دحلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلّد فاستعمل على أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به . وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون الى الآن فان الخلف كان من الولاة عوضاً عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفئ اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للآن فانه ما ولى انسان عملاً بعد رجل آخر الا اجتهد أن يسيء سمعته ويبين للناس انه لم يكن يحسن

أن يسير فيما ولى سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في ادارته حتى يكون للاول الاسم العظيم وحده والأمة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح او تسود

عاد عقبة الى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذر اليهِ ووعده باعادته الى عمله وتمادى الأمر حتى توفي معاوية وسنبين لكم في خلافة يزيد ما كان منهُ حين أعيد الى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية ان يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فانهُ دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أوَ ترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لي بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق اليه في ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة الى الكوفة وذاكر من يثق اليهِ ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد فأجابوا الى بيعتهِ فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل الى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعاً وان الناس قد أبدع بهم خصلتان اذاعة السر واخراج النصيحة الى غير أهلها وليس موضوع السر الا أحد رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليهِ بطون الصحف ن أمير المؤمنين كتب اليّ يستشيرني في البيعة ليزيد وأنهُ يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم . وعلاقة أمر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع بهِ من الصيد فالق أمير المؤمنين وأدّ اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم لك لا تعجل فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة . فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليهِ ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وأنك تخوف خلاف الناس عليهِ لهنات ينقمونها عليه وأنك ترى له ترك ما ينقم عليهِ لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة . فقال زياد لقد رميت الأمر بحجره اشخص على بركة الله فان أصبت فما لا ينكر وان يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضي الله بغيب ما يعلم . فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف

عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معهُ الى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منهُ . فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنهِ يزيد فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له اني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك . فقام مروان في الناس فأخبرهم . فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو . فكتب مروان الى معاوية بذلك فأعاد اليهِ الجواب يذكر يزيد . فقام مروان فيهم فقال ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل . وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب الى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا اليهِ الوفود من الأمصار فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راعٍ مسئول عن رعيتهِ فانظر من تولي أمر أمة محمد . ثم ان معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمعت الوفود عنده اني متكلم فاذا سكتّ فكن أنت الذي تدعو الى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته

فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليهِ ثم قال يا أمير المؤمنين انه لا بدَّ للناس من والٍ بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبــة والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فولِّهِ عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ اليهِ ونسكن في ظله . ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للأحنف بن قيس ما تقول يا أبا بحر فقال نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنــا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلمهُ لله وللأمة رضا فلا تشاور فيهِ وان كنت تعلم فيهِ غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوسق له اكثر النــاس وبايعوه فلما بايعهُ أهل العراق وأهل الشام سار الى الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحهُ وقال من أحق منهُ بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتثّ أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم أنشد متمثلاً :

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمر أطعني وانطلق
انك ان كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرّك مني من خلق
دونك ما استسقيتهُ فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية الى مكة وقضى بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذي

يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصاتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونهُ لا يمارضكم في شيء من ذلك . فقال له ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهنَّ . قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قبض ولم يستخلف احداً فارتضى الناس أبا بكر . قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف . قال فاصنع كما صنع أبو بكر فانهُ عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفهُ وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيهِ . قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فاني أحببت أن أتقدم اليكم أنهُ قد أعذر من أنذر اني كنت أخطب فيكم فيقوم اليَّ القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد عليَّ أحد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليهِ كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسهِ فلا يبقينَّ رجل الاَّ على نفسهِ . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد عليَّ كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معهُ حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليهِ ثم قال ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضي الاَّ عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة ثم الى الشام . ويروى ان ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على اني أدخل

فيما تجتمع عليهِ الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها

وتقول ان فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وانه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختـار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور امامها وقد فعل معاوية ما يظهر معهُ أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطلب وفود الأمصار فحضروا عنـده وأجابوه الى طلبتهِ من بيعة يزيد ابنه والذي ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنهُ استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعـة يزيد وهم من سادة الأمة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعة أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لا جرم ان كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس أنهُ اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في الاسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد ان كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا ان هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو في الغالب الى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعـل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس . أما رأينا في ذلك فان هذا الانحصار كان أمراً حتماً لا بد منهُ لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فانهُ كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيـل الخلافة واذا انضم الى ذلك اتساع المملكة

الاسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافهـا وعدم وجود قوم معينين يرجع اليهم الانتخاب فان الاختلاف لا بد واقع ونحن نشاهـد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فانهم تنـافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا لها باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين . ان أعظم من ينتقد معاويه في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل علي ويسوقون الخلافة في بنيهِ يتركها الأب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم الى غيرهم . والنتيجة ان ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منهُ مع الحال التي كانت عليها البلاد الاسلامية

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

ان الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنـة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماماً يأخذ كل انسان ما له ويعطي ما عليه فان تأخر في واجب مما عليـه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجه عن حقيقته التي تدعو الناس الى التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فان الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليهـا شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا

ا شديدة قاهرة حتى سهل اهراق الدماء ألا ترون الى زياد وما كان يفعله فانه قتل ذلك الاعرابي الذي أخذ مدلجاً مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال ان في قتلك صلاحاً للرعية . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلاً ليناً يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن انها تصلح القلوب وانما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلي على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره وكان يعلم يقيناً أن هذه الاقوال مما تهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندري ما الذي حمله على أن جعل ذلك فرضاً حتماً في كل خطبة كأنهُ ركن من أركانها لا تتم الاّ به

من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة الى البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعاً حتى اذا وصل الى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب الى الأمراء والعمال في اسرع وقت يمكن

وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة بريداً . وروى ياقوت في معجم البلدان أنه انما سميت خيل البريد بهذا الأسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنهُ رسل بعض جهات مملكته فلما جاءتهُ الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مرّوا بهِ من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم

لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل بُرِيَت أي قطع فعرب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت أنهُ روى هذا عن بعض من لا يوثق بهِ ولكنهُ صحيح في القياس والنظر

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وانما اتخذه بعد أن كان ما كان من ارادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنهُ أمر لعمرو بن الزبير بمئة ألف درهم وكتب له بذلك الى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المئة مئتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنهُ أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنهُ كان كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الانصاري ثم أبو ادريس الخولاني ومعنى ذلك أنهُ كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاضٍ خاص

بيت معاوية

تزوج (١) ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيرًا (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخت

فاختة غزا قبرس فماتت معهُ هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائباً فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى اليهما وصيته الى يزيد وكان فيها (يا بني اني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعهُ أحد فأنظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فان عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مئة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم واني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر الاَّ أربعة نفر من قريش الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبقَ أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنهُ فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد صلى الله عليهِ وسلم . وأما ابن أبي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة الا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها فظفرت به فقطعهُ ارباً ارباً واحقن دماء قومك ما استطعت) .

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ ابريل سنة ٦٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر واكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليهِ ثم قال : ن امعاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله بهِ الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد ألا انه قد مات وهذه اكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيامة فمن كان يريد يشهده فعند الأولى وصلى عليهِ الضحاك وكان قد أرسل الخبر الى يزيد فقال في ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب بهِ فأوجس القلب من قرطاسهِ فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم قال الخليفة أمسى مثبتاً وجعا
ثم انبعثنا الى خوص مزمّمة نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسهُ توفي على شرف توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعهُ كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقي الغمام بهِ لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليهِ

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الاول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة — حصار مكة — الفتوح في عهد يزيد — بيته ووفاته

٢ ﴿ يزيد الاول ﴾

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمهُ ميسون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ . وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى في حجر الامارة ولما شب في خلافة أبيهِ كان يرشحهُ للامارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرماً بالصيد وهذا مما أخذه عليهِ الناس اذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الاسلامي بعد

كيفية انتخابه

عهد اليه أبوه بالخلافة من بعده بعد ان استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة الا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر . فلما توفي معاوية لم يكن ليزيد هم الاَّ مبايعتهم له فأرسل الى الوليد بن عتبة بن ابي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) . فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل الى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة

وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فان مثلي لا يبايع سراً ولا يجتزى بها مني سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف . وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب الى مكة وقال اني عائذ بالبيت ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بافاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معهُ بنيـهِ واخوتهُ وبني أخيهِ الاَّ محمد ابن الحنفية فانهُ أبى الخروج معهُ ونصحهُ فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فانهُ قال اذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون اليهِ ويأتونهُ ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيهِ ولا يزال يشير عليهِ بالرأي وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بالبلد . لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صُرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا الى الحسين يستقدمونه ليبايعوه فكتبوا اليهِ نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم (أما بعـد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت اليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي

مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب اليّ بحالكم وأمركم ورأيكم فان كتب اليّ أنهُ قد اجتمع رأى ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت بهِ رسلكم أقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) . ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف فان رأى الناس مجتمعين عجل اليهِ بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصاري فأقبلت اليهِ الشيعة تختلف اليهِ . ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال) . وكان النعمان حليماً ناسكاً يحب العافية . ثم قال اني لا أقاتل الاَّ من يقاتلني ولا أثب على من لا يثب عليّ ولا أنبّه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي لا اله الاَّ هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمهُ بيدي ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا معين أما اني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديهِ الباطل . فقام اليهِ رجل من شيعة بني أمية وقال له انهُ لا يصلح ما ترى الاَّ الغشم ان هذا الذي أنت عليهِ رأي المستضعفين فقال أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب اليّ من أن أكون من الأعزين في معصية الله ونزل . فكتب ذلك الرجل الى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف . فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن

زياد أمير البصرة فجعله والي المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد الى الكوفة وخطب في أهلها فقال (أما بعد فان أمير المؤمنين ولاَّني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فانا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشفيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسهِ) . ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم اليّ بريء ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافتهِ أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منهُ الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافتهِ من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعهُ الينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من العطاء وسير الى موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانئ بن عروة المرادي فأجاره متكرهاً وصارت الشيعة تختلف اليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانئ فاستقدم هانئاً فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

فقال هانئ وما ذاك فقال يا هانئ ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى لك . وقد أراد هانئ أن ينكر فلم

يجد الى الانكار سبيلاً فطلب منهُ ابن زياد أن يسلم اليه مسلماً فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل الى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد الاّ ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الاشراف وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية . ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبقَ مع ابن عقيل في المسجد الاّ ثلاثون رجلاً فحار في أمره اين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل اليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث اني أراك تعجز عن أماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فانهم أصحاب ابيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل . ففعل ذلك ابن الأشعث . ولما جيء بمسلم الى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانيء بن عروة المرادي

أما أمر الحسين فانهُ لما عزم على المسير الى الكوفة جاءه عمر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق واني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيهِ عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وانما الناس عبيد الدرهم والدينـار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليهِ ممن يقاتلك معـهُ فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع . فقال قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عبـاس أعيذك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخـالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد النـاس عليك . فقال الحسين فاني أستخير الله وأنظر ما يكون . ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال يا ابن عم اني أتصبر ولا أصبر اني أتخوف عليك في هـذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم اقدم عليهم فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعاتك فاني أرجو أن يأتيك عنـد ذلك الذي تحب في عافية . فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عبـاس فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليهِ فلم يفد كلامه شيئاً . ثم سار بأهله وأولاده

فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله الحسين عن خبر النـاس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميـة والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء . ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليهِ فيهِ بالله لما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيهِ الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقابله عبـد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام أن تنتهك أنشدك الله في حرمة قريش أنشدك الله في حرمـة العرب فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً والله انها لحرمة الاسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأتِ الـكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية فأبى الا أن يمضي

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتـل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله الا رجعت من مكانك فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثارنا أو نذوق كما ذاق مسلم . فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله لما انصرفت فوالله ما تقدم الاَّ على الأسنة وحدّ السيوف ان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً فأما على هذه الحال التي تذكر فلا أرى أن تفعل فأبى أن يرجع . ولما ترك شراف قابلتهُ خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن اقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى فقد جئتكم فان تعطوني

ما أطمئن اليهِ من عهودكم أقدم مصركم وان لم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منهُ فلم يجيبوه بشيءٍ في ذلك ثم قال له الحر انا أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى تقدمك الكوفة على عبيدالله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد فقال له أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكني والله ما لي الى ذكر أمك من سبيل الاَّ بأحسن ما يقدر عليهِ . ثم صار الحر يراقبهُ حتى لا يتمكن من الانصراف الى المدينة فسار الحسين يتجه الى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمهُ عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الى الحسين رسولاً يسأله ما الذي جاء به فقال الحسين كتب اليَّ أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن اذ عرضت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا فعل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعهُ هو ومن معهُ الماء . وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع الى المكان الذي خرج منهُ وليس بصحيح انه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد فلم يقبلوا منهُ تلك العودة وعرضوا عليهِ أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما كان من الأمر فلم يكن الاَّ القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذي لم يكن فيهِ أحد من أهل

الشام وهذه الفئة القليلة الحسين ومن معهُ وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلاً ولم يكن الاَّ قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معهُ وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلاَ وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلاَ ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها الى ابن زياد ومعها بنات الحسين واخواته ومعهم علي بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان الى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنهُ ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبي خير من أبيهِ وأمي خير من أمهِ وجدي رسول الله خير من جده وأنا خير منهُ وأحق بهذا الأمر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وأما قوله جده خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً ولكنهُ انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ قل اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ثم أمر بالنساء فأدخلنَ دور يزيد فلم تبقَ امرأة من آل يزيد الاَّ أتتهنَّ وأقمنَ المأتم وسألهنَّ عما أخذ منهنَّ فأضعفهُ لهنَّ ثم قرَّب اليهِ علي بن الحسين وجهزهنَّ بعد ذلك الى المدينة وقال لعلي يا بني كاتبني بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هـذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في العواقب فان الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منهُ

واكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى في آخر حياتهِ الخلاص منهم . أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار الى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربهُ هل كان الاَّ من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب وعلى الجملة فان الحسين اخطأ خطأً عظيماً في خروجهِ هـذا الذي جرَّ على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها الى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك الاَّ أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها . غاية ما في الأمر ان الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدتهُ فحيل بينهُ وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ويزيد بهِ نار العداوة تأجيجاً وقد ذهب الجميع الى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا . والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي أنهُ لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفهُ الاَّ اذا كان معهُ من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنهُ لا بدَّ أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فانهُ خالف على يزيد وقد بايعهُ الناس ولم يظهر منهُ ذلك الجور ولا العسف عند اظهار هذا الخلاف

وقعة الحرّة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معهُ بل حدثت حادثة هي في نظرنا أذهى وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليهِ وسلم ومهبط الوحي الالهي وهي التي حرمها عليهِ السلام كما حرم ابراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة احداهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمتهما معاً في سنة واحدة

أما حادثة المدينة فانه في عهد امارة عثمان بن محمد أبي سفيان عليها أوفد الى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبدالله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيداً مئة ألف درهم وكان معهُ ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر ابن الزبير مئة ألف فلما قدموا الى المدينة قاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبدالله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري الى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزوم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم أنكم لا طاقة لكم بأهل الشام فلم تجد نصيحته نفعاً فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا الى يزيد يستغيثون به. فلما جاءه كتابهم قال متمثلاً

لقد بدلوا الحكم الذي في سجيتي   فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمَّر عليهِ مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معهُ اثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادعُ القوم ثلاثاً فان أجابوك والاَّ فقاتلهم فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنهُ واستوص بهِ خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار الاَّ بعد أن عاهدوهم ان لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوًّا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلماً بوادي القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدواً فانتهره وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليهِ عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم. ثم دخل عليهِ مروان فقال ايه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد

الملك فلما كلمت من رجال قريش رجلاً شبيهاً به قال مروان اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال ان أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل واني أكره اراقة دمائكم واني أؤجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منهُ وانصرفت عنكم وسرت الى هذا المحل الذي بمكة وان أبيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديداً جداً ولكن انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد ان قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمهُ بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣

وان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية. انهم فتقوا فتقاً وارتكبوا جرماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فانه كان من الممكن أن يأخذهم

بالحصار فان المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال ان أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لانه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين . بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لأباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا وانا نعوذ بالله من الرءوس التي اذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل

حصار مكة

وثالثة الحوادث التي معظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فان مسلماً لمـا انتهى من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة رَوْح بن زِنباع الجذامي وقد أدركت المنيـة مسلماً بالمشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند الى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليهِ نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمنع البيت . فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً انكشف فيها أصحابه فعاد راجعاً الى مكة فأقاموا عليهِ يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال . هذه ثلاث حوادث كبرى داخليـة حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد ان بسطنا أمامكم هذه الحوادث ومن آثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل ان الذي يتحمله جزء

صغير منها لأنهُ خليفة بايعهُ معظم المسلمين وخالف عليهِ قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وانما الذي عليهِ تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لهم النصر

الفتوح في عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار اليها ولما وصل الى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقهُ في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنهُ ودخل المنهزمون المدينة فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أَرَبة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الاسلامية حتى هزمتهم ثم رحل الى تاهرت . فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقيتهُ البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يا رب لولا

هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفاً منهُ ولما وصل الى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منهُ بما نال من العدو وأنهُ لم يبقَ أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيهِ فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منهُ . كان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأساء الى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فاني أخاف عليك منهُ فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر . وكان في القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعهُ الجيش فاضطر الى مبارحة القيروان والمسير الى برقة والمقام بها. أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين واستولى على أفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنهُ تسع

وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد عبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر وعتبة وحرب وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى



المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثاني — عبد الله بن الزبير — حال الشام — مروان الأول — عبد الملك – تغلبه على ابن الزبير وقتله – الحجاج بالعراق

٣ ﴿ معاوية الثاني — عبد الله بن الزبير ﴾

بعد موت يزيد كانت بيعتان احداهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنه احدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيهِ الاَّ انهُ بعد قليل من خلافتهِ نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليهِ ثم قال (اما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفهُ أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيّب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافتهِ

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم يرَ من نفسهِ القدرة على لم شعثها واصلاح أمرها

أما ابن الزبير فان يزيد مات وحضين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحضين بعث الى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهـذا الأمر هلمَّ فلنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام فان هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لا أهدر الدماء والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحضين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لا أفعل فقال له الحضين قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك الى الخلافة وأنت لا تريد الا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل الى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد

هذا حال الشام لا امام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة ان مهاجرنا اليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم وما يحصى ديوان مقاتلتكم الاَّ سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مئة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم الاَّ تسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مئة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافهُ عليكم الاَّ وهو في سجنكم وان يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس

عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونهُ لدينكم وجماعتكم فانا أول راضٍ من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونهُ لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيهِ المسلمون وان كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم الى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم. فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلمّ فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنهُ يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيظن ابن مرجانة أنّا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل الى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليهِ . ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منهُ وخلعوه ودعا بعضهم الى بيعة ابن الزبير فاجابهُ الى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الأزد فأجاره حتى هرب الى الشام . واختار أهل البصرة والياً عليهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببّة فبايعوه وأقبلوا بهِ الى دار الامارة وذلك أول جمادي الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصرين الى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده . وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبقَ الاَّ الشام

حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم . وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعو له وأمير حمص النعمان

ابن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي . وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالداً ابني يزيد لانهم قالوا انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان الى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيهِ حق بني أميــة وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وانه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له ان قرأ الضحاك كتابي على الناس والا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن ابي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو الى ابن الزبير وكلب تدعو الى بني أمية

خرج الضحاك بجموعهِ فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلونَ من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعتهُ سار بالناس من الجابية الى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٥ . ولما بلغ خبر

الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فتبعهُ جماعة من أهلها فقتلوه . ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان تطلبه فقال الشابان لزفر انج بنفسك فانا نحن نقتل فمضى وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك

أريني سلاحي لا أبا لك انني | أرى الحرب لا تزداد الاَّ تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنهُ | مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب | اذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلاً | ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى | وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا | وتترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط | لحسان صدعاً بيناً متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا | ومقتل همام أمني الأمانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه | فراري وتركي صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى | من الناس الاَّ من عليَّ ولا ليا
أيذهب يوم واحد ان أسأته | بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تَنحِط الخيل بالقنا | وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبن غارتي | تنوخاً وحيي طيء من شفائيا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار الى مصر فافتتحها وبايعهُ أهلها ثم عاد الى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان في سلطانه فانه توفي في رمضان سنة ٦٥ وكان

قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة ابن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً. وكان في عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومديراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب الى ابن الزبير فيبايعهُ لولا عبيدالله بن زياد فانه أشار عليهِ أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتمّ له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولي أمر الأمة من بعده ابنه

٥ ﴿ عبد الملك ﴾

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد ابن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ولما شبّ كان عاقلاً حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ما ذاكرت أحداً الاَّ وجدت لي الفضل عليهِ الاَّ عبد الملك فاني ما ذاكرته حديثاً الاَّ زادني فيهِ ولا شعراً الاَّ زادني فيهِ

ولي الخلافة بعد أبيهِ بعهد منهُ وكانت الحال في البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب فان الحجاز بهِ عبد الله بن الزبير وقد بايعهُ أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في

طاعتهِ وشيعة تدعو الى آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان النـاس له واجتمعت الكلمة عليهِ ٠

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحهُ فاذا فرغ من الجزيرة توجه الى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغهُ موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليهِ أبوه ويحثه على المسير الى العراق فسار حتى اذا كان بعين الوردة قابلتهُ جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هـذا الذنب الا اذا قاموا للمطالبة بثاره وقتلوا قتلتــه وكان رئيسهم كبير الشيعـة بالكوفة سليمان بن صُرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون النـاس سرًّا الى ما عزموا عليهِ حتى تم لهم ما أرادوا سنــة ٦٥ فخرجوا حتى اذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صُرد رئيس الشيعة ومعظم من معهُ ونجا قليـل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف . ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام فقـال ان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان ابن صُرد ألا وان السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتـل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الأزدي وعبد الله بن وال البكري ولم يبقَ بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وثوبهُ بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج عنها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبهُ باسم محمد ابن الحنفية زاعماً انهُ هو الذي أرسله للأخذ بثار الحسين ولقبهُ بالامام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجود . كان يود أن يتبعهُ على رأيه ابراهيم بن الأشتر لقوة بطشهِ وسمو شرفهِ فأرسل اليهِ المختار من يعرض عليهِ ذلك فقبل على شرط أن يكون هو وليّ الأمر فقالوا له ان المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعتهِ فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه اليهِ المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية الى ابن الأشتر يسأله فيهِ أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي الى ابراهيم بن مالك الأشتر) فقال ابراهيم قد كتبت الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب اليّ فلم يكتب اليّ الاّ باسمهِ واسم ابيهِ قال المختار ذاك زمان وهـذا زمان قال ابن الأشتر فمن يعلم ان هذا كتابهُ فشهد جماعة ممن مع المختار انهُ كتابه فتأخر ابراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليهِ وبايعهُ واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي يبناه ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يا لثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنـا ثم بعث العمال الى أمصار الكوفة وكان من أهمّ الأمور لديهِ انتخاب جيش يوجههُ الى قتال ابن زياد الذي أرسله عبـد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتـلاً ذريعاً ومنهم

عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت في بيعته البصرة .
وكان عمل المختار سبباً لتغير ابن الزبير على محمد ابن الحنفية ومن معهُ من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليهِ فحبسهم فأرسل اليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج الى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد الى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب الى الطائف وأقام بها

ثم ان المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم ابراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد ان ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الأشتر العمال الى البلاد الجزرية

بعد ان تم الأمر للمختار ولى ابن الزبير اخاه مصعباً على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد ان حمد الله وأثنى عليهِ طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انهُ كان من المفسدين — وأشار نحو الشام — ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض — وأشار نحو الحجاز — ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون — وأشار نحو الكوفة — وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون امراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا

راضين عن المختار وطلبوا منهُ أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعهُ أشراف المصرين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قابل مصعباً عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلاً فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن ابي ربيعة

ان من أعجب العجائب عندي   قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم   ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حيث يقول

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه   حصان عليها عقد در يزينها
نهتهُ فلما لم ترَ النهي عاقه   بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك الى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على مقدمته ابراهيم ابن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وان الأولى بالطف من آل هاشم   تآسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالاً من قبله . قال بعض الشعراء في مقتل مصعب

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب   فمات كريماً لم تذم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه   فعاش ملوماً في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله   يشاوره مراً ومراً يعانقه
فولى كريماً لم تنله مذمة   ولم يك وغداً تطّبيه نمارقه

بذلك لم يبقَ خارجاً عن سلطان عبد الملك الا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً الى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبدالله بن الزبير فسار اليهِ في جمادى الأولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان الى الحجاج وكان ممن فارقهُ ابناه حمزة وخبيب . ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبقَ معهُ الاَّ قليل لا يغنون عنهُ شيئاً دخل على أمهِ أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبقَ معي الاَّ اليسير ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليهِ تدعو فامض له فقد قتل عليهِ أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال

يا أماه أخاف ان قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني . قالت يا بني ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامضِ على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الاّ الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة فانظري يا أماه فاني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر الى الله فان ابنك لم يتعهد ايثار منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرتهُ ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي ألهمّ لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني فقالت أمه لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرتَ سررت بظفرك اخرج حتى أنظر الى ما يصير اليهِ أمرك فقال جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي قالت لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثتهُ ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنهُ بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك في جميع الأمصار الاسلامية واجتمعت عليهِ الكلمة وبقي الحجاج والياً على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين فسار الى الكوفة في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فاجتمع اليهِ الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد

بعضهم أن يحصبهُ ثم كشف اللثام عن وجههِ وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة اني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم[1] قد لفها الليل بسواق حُطَم[2]

ليس براعي ابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم[3]

ثم قال :

قد لفها الليل بعَصْلَبي[4] أروع[5] خراج من الدّوّي[6]

مهاجر ليس بأعرابي

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عُرُدٌّ[7] مثل ذراع البكر أو أشدُّ

لا بدّ مما ليس منهُ بدُّ

اني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشِّنان[8] ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء[9] وفتشت عن تجربة وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم[10] عيدانها فوجدني

---

(١) يعني فرساً او ناقة (٢) الحطم الذي لا يبقى من السير شيئاً (٣) الوضم كل ما قطع عليهِ اللحم (٤) الشديد (٥) ذكي (٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دوياً بالليل ويريد بها الغمّاء الشديدة (٧) شديد (٨) واحدها شن وهو الجلد اليابس فاذا ضرب بهِ نفرت الابل فضرب ذلك مثلاً لنفسه (٩) الذكاء حدة القلب (١٠) مضغها لينظر أيها أصاب

أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم[1] في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون واني والله ما أقول الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة واني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه . يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نهية[2] أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبقَ أحد في المسجد الا قال على أمير المؤمنين السلام . ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يَرْعَشُ كِبراً فقال أيها الأمير اني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني فتقبله بدلاً عني فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه :

---

(١) الايضاع ضرب من السير (٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

هممت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال له أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار ان في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين يا حرسي اضربن عنقهُ فجعل الرجل يضيق عليهِ أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقهُ بزاده ففي ذلك يقول عبد الله ابن الزبير الأسدي

تجهز فاما أن تزور ابن ضابئٍ   عميراً واما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما   ركوبك حولياً من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه   رآها مكان السوق أو هي أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة اصلاحاً حقيقياً أبداً وانما تضع على المرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعهُ ويطير بهِ وتتبين حال أهل العراق وسكونهم الى هذه الذلة يجيئهم الحجاج في بضعة عشر راكباً وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليهِ قولاً ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصهُ عليكم ان هذا الخضوع وقتي

وبعد ذلك ذهب الى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتى برجل يشكري فقال أيها الأمير ان بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منهُ وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداكوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج

الحجاج حتى نزل رستقاباذ في أول شعبان سنة ٧٥ ومعهُ وجوه أهل البصرة وكان بينهُ وبين المهلب ١٨ فرسخاً فقام في الناس فقال ان الزيادة التي زادكم ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام اليهِ عبد الله بن الجارود العبدي وقال انها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك أثبتها لنا فكذبهُ وتوعده فخرج عليهِ ابن الجارود وتابعهُ وجوه الناس فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برءوسهم الى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف الى البصرة

في سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان فغزا رُتبيل وقد كان مصالحاً وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج الى ابن أبي بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك عظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز اليهم جنداً كثيفاً فجهز عشرين ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة وجد في ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كملاً وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يرى رجلاً تذكر منهُ شجاعة الا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس ان الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أخياركم فايا كم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا الى معسكركم فعسكروا به مع الناس فعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل اول بلاد رُتبيل وصار كلما حوى بلداً بعث اليهِ عاملاً وبعث معهُ أعواناً ووضع البرد فيما بين

كل بلد وبلد وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى اذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول في أرض رُتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله . وكتب الى الحجاج بما كان وبرأيه فكتب اليهِ الحجاج أما بعد فان كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيهِ وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم في الاسلام عظيماً لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن انك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين اني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيتهُ رأي مكيدة ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه الا ضعفك والتياث رأيك فامضِ لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال في كتاب آخر ان لم تفعل فان اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس نخله وما وليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث الى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان لى العراق مصمماً على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعتى همدان يقول

شطت نوى من داره بالايوان ايوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان ان ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً الى الليل يسلي ما كان انا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الايمان بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدّبى من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الارنان فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان فانهم ساقوه كأس الذّيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إنا اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين . ولما بلغ الحجاج خبره بعث الى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود اليهِ فهاله الأمر وبادر بارسال الجنود الشامية اليهِ والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود اليهِ سار بها حتى نزل تُسْتَر وقدم بين يديهِ مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ وأنت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعهُ أهلها وكان دخوله اليها في آخر ذي الحجة سنة ٨١ . ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثى على ركبتيهِ وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال لله درّ مصعب ما كان أكرمهُ حين نزل بهِ ما نزل. وكان ذلك العمل مما قوّى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل

منهم عدد وافر فمضى ابن الأشعث الى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دير قرّة وخرج ابن الأشعث حتى نزل دير الجماجم . قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وان أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذٍ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فانا أمرنا أن نسمع لك ونطيع . ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مئة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣ ففيهِ هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادي من رجع فهو آمن . وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله . وجاءه رجل فقال الحجاج اني أرى رجلاً ما أظنهُ يشهد على نفسه بالكفر . فقال أخادعي أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الاوتاد . كان الحجاج قد أمر فنودي بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو أمانه فلحق بهِ كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له انهُ لحق بقتيبة فأرسل اليهِ يأمره أن يبعث اليهِ بالشعبي

فأرسله فلما قدم سلم عليهِ بالامرة ثم قال أيها الأمير ان الناس قد أمروني أن أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنهُ الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام الاّ حقاً والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليهِ أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا . فقال له الحجاج أنت والله أحب اليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف . فلما مشى قليلاً ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا . فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الأمير خلفا . قال انصرف يا شعبي . وجيء اليهِ بأعشى همدان فقال ايه يا عدو الله انشدني قولك بين الأشج وبين قيس باذخ . قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحهُ بها أولها

أبى الله الاَّ أن يتم نوره ويطفئ نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق في كل موطن ويُعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلاًّ بالعراق وأهله لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد الى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعهُ عند الحجاج فأمر بهِ فقتل وعلى الجملة فان فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الأشعث فقد تقلبت به الأحوال وانتهى أمره الى أن توجه الى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج الى رتبيل يأمره أن يرسل اليهِ ابن الأشعث ويتوعده ان لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرءوس الى الحجاج

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ الى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون لله في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا تخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فانهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة اكراهاً من غير أن يتقربوا الى قلوبها بشيء مما تحبهُ

من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج في هذه المدة لتكون صورة الأمة كلها ممثلة امام أنظاركم في ذلك العهد



المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام الى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة من الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا الى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه عرفوه بأنفسهم فأظهر لهم انه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل الى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليهِ وهو متبذل فقالوا انا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول في الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معَيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منهُ كفر ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهنَّ وكان لك في ذلك ما يدعوك الى التوبة فان أنت قلت كما تقول فلك الزلفة عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وان أنت أبيتَ الا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت امامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا.
فقال ابن الزبير ان الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر

الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هـذا فقال لموسى ولأخيهِ صلى الله عليهما في فرعون فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لا تؤذوا الاحياء بسب الأموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجادّ في المحاربة والمتبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيهِ طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فان كانا منهم دخلا في غمار الناس وان لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون ان الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً وقال جل ثناؤه وقولوا للناس حسناً وهـذا الذي دعوتم اليهِ أمر له ما بعده وليس يقنعكم الا التصريح والتوقيف ولعمري ان ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا اليّ من عشيتكم هذه اكشف لكم ما أنا عليهِ

فلما كان العشي راحوا اليهِ فخرج اليهم وقد لبس سلاحهُ وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم الى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة الى البصرة وطائفة الى اليمامة فكان ممن سار الى البصرة نافع ابن الأزرق في أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضى بهم الى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفيء . ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهر من نافع بن الأزرق القول باكفار القعَد وقتل

الاطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر الأمن أظهر ايمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنهُ وهم ككفار العرب لا نقبل منهم الا الاسلام أو السيف والقَعَد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنهُ هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بَيْهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله بن اباض المري . أما ابن اباض ومن نحا نحوه من النجدية فانهم كانوا يقولون ان عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرم منا كحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القَعَد حتى صار عامتهم قعدا وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبد الله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فانه قال أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تحل لنا الاقامة فيهم كما فعل المسلمون في اقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين . وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق واباضية أصحاب ابن اباض وبيهسية أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

اقام نافع بن الأزرق بالاهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فاذا أجيب الى المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا الى الأحنف بن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو الاّ ليلتان وسيرتهم ما ترى فقال الأحنف ان فعلهم في مصركم ان ظفروا بكم

كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع اليهِ عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عُبَيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عبيس ونافع بن الأزرق فولي أمر أهل البصرة الربيع بن عمرو الغداني وولي أمر الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بني يربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال فانهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنهُ الناس فقاتل من ورائهم في حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز . ومما قاله بعض الخوارج وهو قطري بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك اني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخَفِرات البيض لم يرَ مثلها ... شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك اني يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جِدّ لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعُجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جَدها ... وأحلافها من يَحصُب وسليم

وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى   تعوم وظلنا في الجلاد نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً   يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى   أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً   له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا   تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم   بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوارج الاَّ المهلب بن أبي صفرة فعرضوا عليهِ ذلك فرضي بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليهِ وأن يعطى من بيت المال ما يقوّي به من معهُ وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب فأجابوه الى ما شرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا الى منزل من الأهواز يقال له سلّى وسلّبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فان ذلك قوّاهم حتى قتل أمير الخوارج عبيدالله بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا الى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب الى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فانا قد لقينا الأزارقة المارقة بجد وجد فكانت في الناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا دريئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة

كأولها والسلام. فكتب اليه الحارث: قد قرأت كتابك يا أخا الأزد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزّها وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادّ أركان المشركين وأخا السياسة وذا الرياسة فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال أما تظنونه يعرفني الاّ بأخي الأزد ما أهل مكة الاّ أعراب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبدالله. فلما ولي مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة. وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيدالله بن معمر والخوارج بأرّجان وعليهم الزبير بن علي السّليطي فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا. ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريباً منهم فقال له مالك بن حسان ان المهلب كان يُذكي العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على أبعد من هذه المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفي ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منهُ بشيء فقال لمالك كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما انكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفي هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيرنا فتقاتلون معي تعذيراً ثم زحف الى الخوارج فقاتلهم قتالاً شديداً حتى انهزموا وقتل في الموقعة ابنه عبيدالله فكتب الى مصعب: أما بعد فاني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيدالله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم

وبالله أستعين وعليهِ أتوكل . ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا الى فارس فألح عليهم حتى أخرجهم الى أصفهان فأقاموا برهة ثم عادوا الى الأهواز وقد ارتحل عمر الى اصطخر . وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون في الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على اعادة المهلب الى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قَطَرِيّ بن الفجاءة المازني فخرج اليهم المهلب ولما أحس به قطري تيمم نحو كرمان فأقام المهلب بالأهواز . ولما استعد الخوارج كروا عليهِ فحاربهم المهلب ونفاهم الى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل . ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليهِ أن لا يفعل وقيل له انما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فاذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى الاَّ عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتى قابلهم بدرا بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب الى عبد الملك بهِ فكتب اليهِ عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيهِ بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم

وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه عامل لك على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز وقد بعثت الى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فاذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه ان شاء الله . فشق عليه أن فيّل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرضَ رأيه خالصاً حتى قال أحضره المهلب واستشره فيه . وكتب عبد الملك الى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ما هالهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامية وأتبعهم خالد داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة وأمدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة الى الأهواز

وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطري الأهواز وأمر أبي فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف الى أبي فديك فانهزم

[illegible] رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب [illegible] بعد فابعث المهلب في أهل مصره [illegible] لى الأزارقة ولينتخب من أهل

مصره وجوههم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم فانه أعرف بهم وخله ورأيه في الحرب فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً حسيباً صليباً يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم أنهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أي وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك. فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمره أن ينتخب من شاء وشق على بشر أن امرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليهِ ذنب ثم دعا عبد الرحمن ابن مخنف فبعثهُ على أهل الكوفة وقال له انك قد عرفت منزلتك مني وأثرتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذي عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند أحسن ظني بك انظر الى هذا الكذا والكذا يقع في المهلب فاستبد عليهِ بالأمر ولا تقبلنَّ له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به — فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر الى أهل الاسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجهل. وهكذا في كل زمان وفي كل أمة من يدوس المصالح العامة ارضاء لشهواته النفسية واهوائهِ الفاسدة ولا تهمه الأمة سعدت أم شقيت. رجل يكره رجلاً فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام ان هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه. خرج الجيشان حتى وصل رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس الا عشراً حتى بلغهم نعي بشر بن مروان وتوفي بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على

البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيهِ بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعاً حتى جاءهم الأسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً ووجههم الى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما تتابع مسير الجنود الى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فساروا الى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان . كان المهلب يخندق دائماً على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه . وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم انهُ زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديداً وكانت كرمان في أيدي الخوارج وفارس في يد المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم بهِ لا يأتيهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرَفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليهِ الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول فيهِ : أما بعد فانك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك . وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم اذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد واياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيهِ كل ابن في كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال رآه

الناس من صلاة الغداة الى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنيهِ في كتائبهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء الى الحجاج فأخبره الخبر على جليتهِ ثم استمرَّ المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حسبان ذلك أن رجلاً من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلاً كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوي الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطرياً وولوا عبد ربه الكبير وبقي على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً وكان من رأي الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأي المهلب فتركه الحجاج ورأيه . استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم ان قطرياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد ربهِ الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم الاَّ قليل وأخذ عسكرهم وما فيهِ وسبوا لانهم كانوا يسبون المسلمين . ولكعب الأشفري قصيدة طويلة يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص اني عداني عنكم السفر وقد سهرت فأودى نومي السهر

وهي من غر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له

أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرني عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا اذا أخذنا عفونا واذا أخذوا يئسنا منهم واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج ان العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منهُ الى الذي تحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منهُ شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال أكنت أعددت لي هذا الجواب قال لا يعلم الغيب الاّ الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب الى الحجاج الحمد لله الكافي بالاسلام فقد ما سواه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منهُ حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة في وقت امكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر

القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فكتب اليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فاذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وان كانت بقيت من القوم بقية نخلف خيلاً تقوم بازائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم ان شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني انك اليوم لست كما كنت انما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك الا على ما احتمل عليه أبوك . فأحسن الى من معك وان أنكرت من انسان شيئاً فوجهه اليّ وتفضل على قومك . وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه الى جانبه وأظهر اكرامه وبره وقال يا أهل العراق انكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الايادي

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم الا ريث يبعثهُ هم يكاد حشاه يقصم الضِّلَعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضَرَعا(١)

فقام اليه رجل فقال أصلح الله الأمير والله لكأني أسمع الساعة قطرياً وهو يقول المهلب كما قال لقيط الايادي ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سروراً فقال المهلب انا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن

---

(١) القحم آخر سن الشيخ والضرع الصغير الضعيف

دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبـة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة . فقال له الحجاج اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيـا ان شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيهِ وقال انهُ والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمتـهُ عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغير بن أبي صفرة وأشباهه . فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنأ فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الأمير اني كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس . فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك . قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب :

اني امرؤ كفني ربي واكرمني ... عن الأمور التي في رعيها وَخَم
وانما أنا انسان أعيش كما ... عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ما عاقني عن قفول الجند اذ قفلوا ... عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولاً ما تجهمني ... اذن الأمير ولا الكتاب اذ رقموا
ان المهلب ان أشتق لرؤيته ... أو امتدحهُ فان الناس قد علموا
أن الأريب لذي ترجى نوافله ... والمستعان الذي تجلى به الظلم
ألقائل الفاعل الميمون طائره ... أبو سعيد اذا ما عدت النعم

أزمان أزمان اذ عض الحديد بهم   واذ تمنى رجال انهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنهُ أصحابه ووقع عن دابتهِ في أسفل الشعب فتدهدى حتى خرّ الى اسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم لحاصر وهم في قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوا حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧

وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد ان ذاق النـاس منهم مرّ الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمي ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلاً ناسكاً مخبتاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ما أدرى ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا علواً وعتوا وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت ان خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب الى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليهِ فاتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الاربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معهُ اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا الى قتال أحد من الناس الا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم فانكم انما خرجتم غضباً لله حيث انهكت محارمه وعصى في الارض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها فان

كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون . ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا وتصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجوا الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا أرض الجزيرة ودخلوا أرض الموصل فقطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن

وما زالوا ينتقلون من جهة الى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عدّا وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس الى اخراجهم فاجتمع اليهِ القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه ولكنها لم تنل منهُ منالاً وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب اليهِ أن يرسل اليهِ جنداً من أهل الشام فوجه اليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ الفاً ومن الغريب ان الألف هزمت الخمسين . وكانت لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية الى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم غضوا الابصار واجثوا على

الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب في تعبية فثبتوا له حتى اذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قُدُماً وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جداً وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب في النهر. وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب و بين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة



المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح في الشرق — الفتوح في الشمال — الحج
السكة — ولاية العهد — وفاة عبدالملك و بيته وصفته
الوليد الأول — الاصلاح الداخلي

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التي حدثت ابان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبناؤها ففي سنة ٦٥ هـ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون الى موضعه وجعل الحجر الاسود عنده في تابوت في

سَرَقة من حرير وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثياب أو طيب عند الحجبة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب في ادخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد اسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الاحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لأن الأمة اذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها ان تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يدها عن الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف الا في بعض الاحيان

الفتوح في الشرق

بعد ان انتهى المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان ففي سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كِسّ وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه الى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد فنزل في عسكره وكان الملك يومئذٍ اسمه السبل في عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم ان العرب قد غدروا بهِ وأنهم خافوه على الغدر حين عتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قلعتهِ فأتى يزيد بن المهلب

القلعة وأحاط بها فصالحهُ الملك على فدية حملها اليهِ ورجع الى المهلب . ووجه المهلب ابنه حبيباً الى رَبِنجَن فوافى صاحب بخاري في أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكث المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت الى السُغد وما وراء ذلك قال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا الى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعاً شديداً وولى مكانه ابنه يزيد . ولما أخذ الفدية عاد الى مرو فتوفي بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فان صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم . ان بني الأم يختلفون فكيف بني العلاَّت وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فاني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلتهِ ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فانها أنفع في الحرب من الشجاعة واذا كان اللقاء نزل القضاء . فان أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتى الأمر من

وجههِ ثم ظفر فحمد وان لم يظفر بعد الأناة قيل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين واياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد . فقال له المفضل لو لم تقدمه لقدمناه . ومات المهلب وأوصى الى حبيب فصلى عليهِ وكتب يزيد الى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب اياه فأقره وتوفي في ذي الحجة سنة ٨٢ فقال نهار بن توسعة التميمي

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
اذا قيل أي الناس أولى بنعمة ... على الناس قلناه ولم نتهيب
أباح لنا سهل البلاد وحزنها ... بخيل كأرسال القطا المتسرّب
يعرضها للطعن حتى كأنما ... يجللها بالأرجوان المخضب
تطيف به قحطان قد عصبت به ... وأحلافها من حي بكر وتغلب
وحيا معد عوّذ بلوائه ... يفدّونه بالنفس والأم والأب

وفي ولايه يزيد لخراسان فتح قلعة نيزك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قد خرج عنها فلما جاء صالحهُ على أن يدفع اليهِ ما في القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد الى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيي بن يعمر العدواني ونص كتابه . إنا لقينا العدو فمنحنا الله اكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برءوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار . فلما جاء هذا الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد فقيل له يحيي بن يعمر فكتب الى يزيد فحمله على البريد

فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالأهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبي وكان فصيحاً قال من هناك فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال ففلان قال نعم قال فأخبرني عني أألحن قال نعم تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع ان وان في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فان أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع الى خراسان . وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل . وفي عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم غزا آخرون وشومان فظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال كان يعطي الناس كلما جاءه شيء وان غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وسيكون له ذكر جميل في خلافة الوليد

الفتوح فى الشمال

لم يكن من الممكن في عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على مَن بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدي عبد الملك اليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما انقشعت هذه السحابة واستقرّ الأمر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفي سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان

أمير جندها عبيدالله بن عبد الملك وفي سنة ٨٤ غزا عبدالله بن عبد الملك ففتح المصيصة .

الحج

كان الذي يقيم الحج عبدالله بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية . ابن الحنفية في أصحابه في لواء وابن الزبير في لواء ونجدة الحروري في لواء ولواء بني أمية قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت اليهم جميعاً فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتقِ الله فانا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله الى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلي ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني وما أطلب هذا الأمر الاَّ أن لا يختلف عليّ فيهِ اثنان ولكن ائتِ ابن الزبير فكلمهُ وعليك بنجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمتهُ بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع عليّ الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيراً الكف قال أفعل . ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعظمت عليهِ وكلمتهُ كما كلمت الرجلين فقال أما أن أبتدئ أحداً بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلتهُ قلت فاني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك . ثم جئت شيعة بني أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحداً الاَّ ان قاتلنا . ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعهُ نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعهُ الناس. وهذه حادثة غريبة في تاريخ

الحج وبعد قتله كان يقيمهُ عمال بني أمية

السكة الاسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وانما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطاً والدينار عشرين قيراطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش اسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها بالعراق وقد نقش عليها أولاً بسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك ان يعزل عبد العزيز ويولي مكانهُ الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيهِ عنزان فبينا هو على

ذلك اذ جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيهِ وما أجمعنا عليهِ

وعهد الى ابنيهِ الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما الى البلدان فبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربهُ أمير المدينة هشام بن اسماعيل المخزومي وطاف بهِ وحبسهُ فكتب عبد الملك الى هشام يلومهُ على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربهُ وانا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ اكتوبر سنة ٧٠٥) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ الى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليهِ الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لانهُ وُلد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام ابن اسماعيل المخزومي فولدت له هشاماً (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي فولدت له أبا بكر واسمهُ بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن

عثمان بن عفان فولدت له الحكم (٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة (٧) شقراء بنت سلمة بن حلبَس الطائي (٨) ابنة لعلي بن أبي طالب (٩) أم أبيها بنت عبدالله بن جعفر . وله من الأولاد عبدالله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات أولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوي العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولي أمر الأمة وهي في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنهِ الوليد وهي على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الأمة حية نشيطة لا تدين الاّ للقوة القاهرة التي هي فوق طاقتها والأهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منهُ الاّ الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك كان يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني وان ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح ان يكون سائساً . ومما عد من مساوي عبد الملك أنه قال مرة وهو على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقهُ وقد اعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون هذه المواقف قصد الشهرة حتى اذا أصابهم من جرّاء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذراً . ومما عد من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله اياه بعد ان أمنهُ وقالوا ان هذا أول

غدر حصل في الاسلام ومن سنّ سنة سيئة فعليهِ اثمها واثم من عمل بها الى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على ان كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحاً عالماً بالأخبار فقيهاً وقد قدمنا شيئاً من ذلك في أول خلافتهِ

٦ ﴿ الوليد الأول ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد الّا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفى أبوه عبد الملك بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيهِ . لما رجع من دفنهِ بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليهِ بما هو أهله ثم قال أيها الناس انه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار الى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة بالذي يحق عليهِ لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيهِ عيناه ومن سكت مات بدائه . ثم قام اليهِ الناس فبايعوه

الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الأموية ففيها قام باصلاح داخلي عظيم واشتهر في الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الأمم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد ان وطأ عبد الملك الأمور ومهدها فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فان الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة أهل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكناً ولم يوقظوا فتنة

الاصلاح الداخلي

كان الوليد ميالاً الى العمارة فاهتم في زمنهِ باصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب الى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب الى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقى منها أهل المدينة وأجرى اليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها . واصلاح الطرق من أهم ما يذكر لولاة الأمر في اصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق . ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وادخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتي ذراع في مثلها ومن أبى فلنقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع اليهم ثمنها فان لك في

ذلك سلف صدق عمر وعثمان وأرسل اليهِ الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد الى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منهُ أن يعينهُ فيهِ فبعث اليهِ بمئة ألف مثقال ذهب وبعث اليهِ بمئة عامل وبعث اليهِ من الفسيفسا باربعين جملاً فابتدئ بعمارته وأدخلت فيهِ جميع الحجر التي لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبقَ الا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأي بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً . أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فان الوليد احتفل له احتفالاً عظيماً حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الاسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها اذا تقابلوا . وبنى الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء

ومن الاصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل قائد ضريراً

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً الى رعيتهِ. ومما يدل على حسن معاملتهِ للعلماء انه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة فلما وصل المدينة دخل الى المسجد ينظر الى بنائه فأخرج الناس منهُ فما ترك فيهِ أحد وبقي سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجهُ وما عليهِ الاَّ ريطتان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل

الوقت الذي كان يقوم فيهِ قيل فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم اليهِ قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء أن لا يرى سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل يا أمير المؤمنين . وقليل من ذوي السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوي الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوي السلطان قليلاً أما العلماء فانهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلاً وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم وأما ذوو السلطان فانهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرفهم واجباً فيحاربونهم لقصد اذلالهم وحط درجتهم ولكن الذي يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فانه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبد العزيز الذي

أعاد سيرة سلف هذه الأمـة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم ابن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم اذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليـه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليهِ ثم قال اني انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليهِ وتكونون فيهِ أعواناً على الحق ما أريد أن أقطع أمرًا الاَّ برأيكم أو برأي من حضر منكم فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامـة فأحرج الله على من بلغـه ذلك الاَّ بلغني . فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه . وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج ان مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجئوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن فاستشاره فيمن يوليه على المدينة فاشار بعثمان بن حيان المري فولاه المدينة



المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح في عهد الوليد – ولاية العهد – وفاة الحجاج – وفاة الوليد — سليمان

الفتوح في عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر في الفتح الاسلامي وهم (١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي (٣) موسى بن نصير (٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فانه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج ابن يوسف وكان الحجاج قد ضم اليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج اليه فسار القاسم الى بلاد السند حتى أتى الدَّيبُل[1] فنزل عليه وكان به بدٌّ عظيم والبدّ منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بدٌّ وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة أيام. ولم يزل القاسم محاصراً للديبل حتى خرج العدو اليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف. ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم الى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم

---

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة الاّ فتحها حتى عبر نهراً دون مهران[1] فأتاه سمنية سربيدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار الى سهبان ففتحها ثم الى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته .

ثم ان محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقده فالتقى بداهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال في ذلك قاتل داهر

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
اني فرجت الجمع غير معرّد حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركتهُ تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتح راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بهافل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملاً ثم سار فتلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم اياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم . ثم تقدم الى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندري . ثم انتهى الى الرور[2] وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم وقال ما البد الا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج

---

(١) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

(٢) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شاطئ نهر مهران على البحر وهي متجر وفرضة بهذه البلاد وبينهم وبين الملتان أربع مراحل وبقرب من الرور مدينة بغرور

وبنى بالرور مسجداً . ثم سار حتى قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمهِ فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى اليهِ الأموال وينذر له النذور ويحج اليهِ السند فيطوفون بهِ ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله . وفي ذلك الوقت بلغتــهُ وفاة الحجاج فرجع عن الملتان الى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى النــاس ووجه الى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعــة وسالمهُ أهل سرست ثم أتى الكيرج فخرج اليهِ دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر . بعــد اتمام هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الاسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما قتيبــة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضــةً والعدو وقماً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الآ كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الآ كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ثم أخبر عمن قتل في سبيله انه حي مرزوق

فقال ولا تحسبنَ الذين قتلوا في سبيل الله آمواتاً بل أحياء عنـد ربهم يرزقون فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم واياي والهوينا

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معهُ ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه الى بلاده فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه الى بلاده فمضى مع ملك الصغانيان فسلم اليهِ بلاده وكان ملك أخرون وشومان قد أساء جواره وضيق عليه فسار قتيبة الى أخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد الى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب اليهِ يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب اليه اذا غزوت فكن في مقدم الناس واذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم

وفي سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحهُ وكان سبب ذلك انه كان في يد نيزك أسرى من المسلمين فكتب اليهِ قتيبة يأمره باطلاقهم ويتهدده فخافهُ نيزك فأطلق الأسرى فوجه اليـهِ قتيبة يطلب منهُ القدوم عليـهِ وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنهُ حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى الى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه رسول ولم يجر له خبر شهرين

وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفي ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون اكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوا الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه ان أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع اليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلتها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد الى مرو . ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكث وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار الى راميثنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم السغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع الى مرو وقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى الى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج بذلك فكتب اليه الحجاج أن صورها لي فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج أن ارجع الى مراغتك فتب الى الله مما كان منك وأتها من مكان كذا فخرج قتيبة عن مرو سنة ٩٠ فاستنصر ملك بخارى بالسغد والترك ومن حولهم ولكن قتيبة سبقهم الى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل

بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا عن هذا الموضع فلم يجبهُ أحد فمشى الى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هُرَيم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم فقال وكيع قدم يا هريم ورفع اليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هريم ودب وكيع في الرجال فانتهى هريم الى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هريم فنظر اليه هريم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله انك لأحمق فقال وكيع مغضباً أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال ما بعد هذا أشد منهُ وعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع الى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى اذا أعيوا أقعدهم ذأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال لهريم اني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما انثنوا حتى خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه . ولما تم الفتح كتب به قتيبة الى الحجاج . ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل أحصنهن ثم غزا سمرقند وهي مدينة السغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجداً وصلى فيه وكان معهُ في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهن ضريحهِ وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذي أقول

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الترك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مقسماً بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعاً الى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف الى مرو فأقام بها

وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش [١] وفرغانة [٢] حتى بلغ خُجَنْدة وكاشان مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالاً شديداً فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها . وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر [٣] وهي أدنى مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار الى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين

---

(١) اقليم متاخم لبلاد الترك واقليمها اكبر اقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت (٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ ف ومن ولايتها خجندة (٣) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

هناك مراسلات وأرسل اليهِ قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والأ بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك أيانا بالقتل فان لنا آجالاً اذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فانا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليهِ بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها الى المملكة الاسلامية فانتشر فيها الاسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم . كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم الى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

واما موسى بن نصير فانه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الاندلس وأدخل الاسلام في قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الاندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا ان شاء الله فانا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

واما مسلمة بن عبد الملك فان عزيمته ظهرت في حروب الروم فكان في كل سنة يسير اليهم بالجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معهُ العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية واذورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منهُ في حق أخيهِ عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيهِ فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس الى ذلك فلم يجبهُ الا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب اليهِ فاعتل فأراد الوليد أن يسير اليهِ فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك . ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وفاة الحجاج

في شوال سنة ٩٥ توفي بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنه ٥٤ سنة واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن

أبي كبشة وعلى خراجها يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فان فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبالِ بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها واذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد واذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء الكاذبة حتى يكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الاول فعسف أهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع . أسرف في القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره الى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد . قال له عبد الملك يوماً كل امرىء يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عني شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود . ومتى كانت هذه الصفات في ذي سلطان أهلك الحرث والنسل الا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبهُ الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيماً . وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون بهِ الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين . وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك أنفساً كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل جداً . وأنا كما علمتم لست ممن يعجبهُ الاصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها اصلاحاً حقيقياً وانما هي طريقة

اذلال واخضاع لا يدوم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوي على ما فيها من البغض والكراهة حتى اذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك

في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ توفي بدير مرّان الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ الى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه اذ توفي ستاً وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر ابناً

٧ ﴿ سليمان ﴾

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة

بويع بالخلافة بعد موت أخيهِ وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لأول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل الى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد . فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند فأخذ محمد ابن القاسم وقيده وحمله الى العراق فقال محمد متمثلاً

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبس بواسط فقال

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذّبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم بذلك انتهت حيـاة هذا القائد ارضاءً لأهواء الخليفة حتى تقرّ نفسه بالانتقام وتناسى ما فعله ذلك القائد من عظيم الأعمال ولا ندري كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم اذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتولية ابنـه عبد العزيز فاضطغنها عليهِ سليمان وهو بعد من صنائع الحجاج فلما ولي سليمان أشفق منهُ قتيبة وخاف أن يولي خراسان يزيد بن المهلب فكتب اليهِ كتاباً يهنئهُ بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمهُ بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليهِ من الطاعة والنصيحة ان لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانياً يعلمهُ فيهِ فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذمّ المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيهِ خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له ادفع اليهِ الكتاب الأول فان كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه اليهِ فادفع اليهِ الثاني فان قرأه ورماه اليهِ فادفع اليهِ الثالث فان قرأ الكتاب الأول ولم يرمهِ اليهِ فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع اليهِ الكتاب الأول فقرأه ورماه الى يزيد فدفع اليهِ الثاني فقرأه ورماه الى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتـاب في يده وحوّل الرسول الى دار الضيافة ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج

حتى اذا كان بحلوان بلغهُ ما كان من أمر قتيبة . كان قتيبة غير مطمئن الى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معهُ الى ذلك فأبى عليهِ الناس وولوا أمرهم وكيعاً سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو واخوته واكثر بنيه . قال رجل من عجم خراسان يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منــا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة الاَّ أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليــهِ أن اختلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب . فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضرّه لو تأنى . قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيهِ

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله وقوف ولم يشهدله الناس عسكرا
دعتهُ المنايا فاستجاب لربه وراح الى الجنات عفاً مطهرا
فما رزئ الاسلام بعد محمد بمثل أبي حفص فبكيهِ عبهرا

وكانت قيس تزعم ان قتيبة لم يخلع وانما تجنى عليهِ وكيع وعلى كل حال فان الذي حصل كان موافقاً لهوى سليمان بن عبد الملك

واما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فان خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيهِ فانه قبل أن يتوفى الوليد استقدمهُ الى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفاً عنهُ فعزله عن جميع الأعمــال وحبسه وأغرمهُ مالاَ عظيماً لم يقدر على وفائهِ فكان يسأل العرب في معونتهِ وعلى الجملة فان فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما اصاب هؤلاء القواد العظام

من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فانهم استبشروا به لانه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن الى الناس

الفتوح في عهده

في عهد امارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحهُ أهلها وخلف فيهم جنداً وسار الى طبرستان فقاتله بها الأصبهبذ قتالاً شديداً ثم صالحهُ أخيراً وبينا هو محاصر طبرستان بلغهُ ان أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معهُ فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً لانها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد الى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فان الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة في نعمهِ عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين ان شاء الله)

في بلاد الروم

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتا بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيْوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز اني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فأخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان

في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه اذ توفي ٤٥ سنة



المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر – يزيد الثاني

٨ ﴿ عمر ﴾

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه اياه

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضَبْعَي عمر فاجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيهِ وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتي أوفق لي وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيهِ عيال أبي أيوب وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد الى الناس سيرة الخلفاء الرشدين الذين كانوا ينظرون الى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم

أهون من أن يهتم بجمعها . كذلك كان عمر بن عبد العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً الى جميع العمال بالأمصار هـذه نسختهُ (أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليهِ ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي ان كان . وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس عليَّ بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقـه وأنا أخاف فيما ابتليت بهِ حساباً شديداً ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) . وهذا الكتاب ينبيء عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقي عليهِ من أمر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان ابن أبي السري ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف فأذن لنا فليفد منـا وفد الى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق أعطيناه فان بنـا الى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً الى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب الى سليمان يقول له ان أهـل سمرقند قد شكوا اليَّ ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فاذا أتاك كتابي فأجلس لهم القـاضي فلينظر في أمرهم فان قضى لهم فأخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة . فقال أهل السغد بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً لأن ذوي رأيهم قالوا

قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فان عدنا الى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا . وهـذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل في العدل اليهِ

ومما يبين رفقهُ بالأمة وميله الى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب الى عامله يأمره أن لا يحركهم الاَّ أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الارض فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه اليهم ووجه معه جنداً وأوصهِ بما أمرتك به فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي . وكتب عمر الى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجهِ فجاء كتاب عمر ومحمد بن جرير. وكان كتاب عمر بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيهِ ولست بأولى بذلك مني فهلم اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيـهِ الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا . فكتب بسطام الى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . ولما وصل هذان الرجلان الى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم . فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضاً من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم . فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد اليَّ رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره عليَّ أحد ولم يكرههُ غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنهُ فلا طاعة لي عليكم . فقال

بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم . فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عزّ وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليهِ وسلم لعاناً وقال ابراهيم فمن تبعني فانهُ مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وقال الله عزّ وجلّ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده وقد سميتُ أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذماً ونقصاً وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فان قلتم انها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنتهُ قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني الا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون — قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم دعا الناس الى الايمان فكان من أقرّ بهِ وبشرائعهِ قبل منهُ فان أحدث حدثاً أقيم عليهِ الحد فقال الخارجي ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنهُ محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء — قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرءون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم

يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم — قال فهل بريء من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرءون أنتم من احدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني الا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا اله الاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الاديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده الى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمهُ لله عزَّ وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر الى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنهُ لا يقوم فيهِ بالحق قال انما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيهِ بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً . وكان هذا السؤال الأخير محرجاً لعمر فطلب النظرة في الاجابة عنهُ

وكانت هذه المناظرة سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء . أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم . فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم انما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طرقها فانه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف

لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق بأمته

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب الى الأمصار بتركه وكان الذي وقر ذلك في قلبهِ أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغهُ عن عمر شيء مما يقوله بنو أمية فقال له عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في علي فقال عمر معذرة الى الله واليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون فأي شر رفع وأي خير وضع وقال في ذلك كثير عزة

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريأً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا انما يكفي الفتى بعد زيغه من الأود البادي ثقاف المقوم

ومن اصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب الى سليمان بن أبي السري أن اعمل خانات فمن مرَّ بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت بهِ علة فاقروه يومين وليلتين وان كان منقطعاً بهِ فأبلغهُ بلده

ومما يذكر بهِ أنهُ أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف فقد كتب الى أمير العراق (أما بعد فان أهل الكوفة

قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وان قوام الدين العدل والاحسان فلا يكون شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منهُ ما أطاق وأصلحهُ حتى يعمر ولا يؤخذنَّ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذنَّ أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع في ذلك أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) . ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع الا بعد أن يراجع فيهِ بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد . ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة الى رأي القاضي الذي حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لأهلها — لما ولي الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم ان فدَك كانت بيد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم انها قد صارت اليَّ ولم تكن من مالي أعود منها عليَّ واني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليهِ في عهد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . وقال لمولاه مزاحم ان أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذ ولا لهم أن يعطونيهِ واني قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعهُ وقال أكلهم الى الله فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له ان أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه

فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال ان مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك قال اني أردت أن أقوم به العشية قال عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ثم قام من ساعتهِ في الناس فردها . وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان فأتتهُ فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثهُ عذاباً الى الناس كافة ثم اختار له ما عندهُ وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقي منهُ يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر اليّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يردا أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فاما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم باولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولي عمر قال للناس في خطبة من صحبنا فليصحبنا بخمس والاَّ فلا يقربنا يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها . ويعيننا على الخير بجهده . ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه . ولا يغتابنَّ أحداً . ولا يعترض فيما لا يعنيه . فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف في ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك

ابن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذي توفي فيه دخل عليه عمر فقال يا بني كيف تجدك قال أجدني في الحق قال يا بني أن تكون في ميزاني أحب الي من أن اكون في ميزانك فقال يا أباه لأن يكون ما تحب أحب الي من أن يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة . قال مرة لأبيه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك اذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه أو باطلاً لم تمته فقال يا بني ان أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور الي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسناً وجميلاً ألا تطلع الشمس علي في يوم الا احييت فيه حقاً وأمت باطلاً حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فان عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذي بعث على رأس المئة الثانيـة ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء في حديث ان الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو في بيئة المترفين والاخلاق انما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الانسان فنقول ان عمر ابن عبد العزيز أرسله أبوه الى المدينـة وهو صغير فربي فيها بين فقهائهـا وصلحائها فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن علي الباقر ان لكل قوم نجيبة وان نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منهُ وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله

لم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة الاّ ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر فسأله عن الاموال التي كتب بها الى سليمان بن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وانما كتبت الى سليمان لأسمع الناس به وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد في أمرك الاّ حبسك فاتق الله وأدِّ ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها . وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين ان الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليهِ فصالحني على ما تسأل فقال عمر لا الاّ ان تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها والاّ فصدق مقالة يزيد واستحلفه فان لم يفعل فصالحهُ فقال عمر ما آخذه الاّ بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليهِ عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنهِ حتى اذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفاً من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد عذب آل أبي عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجاً ببنت أخي الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب الى عمر اني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءًا فألحقهُ به وهضهُ فقد هاضني

ومن الحوادث الخارجية في عهده أنه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطنية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها الى ملطية وطرندة داخلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذٍ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم الى أن ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم فلم يزالوا كذلك الى أن ولي عمر فأمرهم بالعود الى ملطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يوماً بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر سنة ٩٩ و بين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكرناه الاّ أنه ذكر في بعض الروايات ان سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه واذا كان ذلك صح أن تكون الايام أربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ ﴿ يزيد الثاني ﴾

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد اليهِ سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر بويع بها فلما تولى عمد الى كل صالح فعله عمر فأعاده الى ما كان عليهِ وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان

وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فانهُ لما هرب من محبس عمر وبلغهُ موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي ابن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث اليهِ يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيماً يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك . خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنهُ يدعوهم الى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم فسمعهُ الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغي لك ذلك فقام اليهِ أناس فأسكتوه خوفاً أن يسمعهُ ابن المهلب . وروى الطبري أن الحسن مرَّ على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا الى سنة العمرين فقال الحسن انما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خِرَقاً ثم قال اني قد خالفتهم نخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال اني أدعوكم الى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يردّ الى محبس عمر الذي فيهِ حبسه

ثم ان يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياماً ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معهُ من الجنود ولما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية حتى اذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا

عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى قندابيل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم الا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا . وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهى الأمم بهم

ولما تم على يدي مسلمة بن عبد الملك اخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال في ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا ... فارعيْ فزارة لا هناكِ المرتع
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله ... وأخو هراة لمثلها يتوقع
ولقد علمت لئن فزارة أمرت ... أن سوف تطمع في الامارة أشجع
من خلق ربك ما هم ولمثلهم ... في مثل ما نالت فزارة تطمع

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملاً لمسلمة على خراسان

وولى ابن هبيرة سعيداً الحرشي على خراسان وكانت له مع السغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت

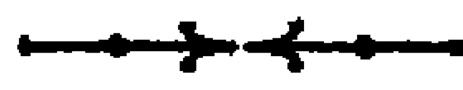
عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد . ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذٍ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء فسار الجراح حتى وصل برذعة وبعد ان استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكر ولما وصل الى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل اليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيماً ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنهُ . ثم سار الى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار ثم ان الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل اليه فحضر ورد اليهِ أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً لهم يخبره بما يفعل العدو . ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبهِ نحو أربعين ألفاً من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثراً وفتحاً في تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له انه صغير فولى أخاه هشاماً ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليالٍ بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفي يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من أرض دمشق وسنه يومئذٍ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ الى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥



المحاضرة الاربعون

هشام — الاحوال الداخلية في عهده — صفته ووفاته — الوليد الثاني — يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ ✻ هشام ✻

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبد الملك اذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات أخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى سادس ربيع الاول سنة ١٢٥ أي تسع عشرة سنةوستة أشهر وأحد عشر يوماً وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بني أمية ولعمري ان من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير بذلك

الاحوال الداخلية في عهده

في العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن

هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى العراق خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني . فاختار لولاية خراسان أخاه أسد ابن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماماً مقداماً غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً . وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان . وكان من عيوب أسد أنهُ تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس . ضرب نصر بن سيار ونفراً معهُ بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبختري بن أبي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم الى أخيهِ خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
اذاً للقيتم عند شد وثاقه بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يوماً فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد أللهمَّ فرق بيني وبينهم وأخرجني الى مهاجري ووطني

فبلغ فعله ذلك هشاماً فكتب الى خالد اعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلاً خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به . ولأول عهده أرسل الى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام

على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الى الاسلام فكتب صاحب الخراج الى أشرس ان الخراج قد انكسر فكتب أشرس الى أمير سمرقند ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة انما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه . كان رسول أشرس الى الصغد بدعوة الاسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة ان عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معهُ فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فأعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازياً في جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فأقبل اليهِ الصغد والترك وكان بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم . ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم الى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان الى مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق واستماتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل الى من بالمدينة يقول لهم أنه

ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم . ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كرجة الى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كرجة الى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفي سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبدالرحمن المري فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل الا مضرياً

وفي سنة ١١٢ خرج غازياً يريد طخارستان فوجه جنداً عدده ثمانية عشر ألفاً الى طخارستان وجنداً عدده عشرة آلاف الى وجه آخر فكتب اليهِ أمير سمرقند ان خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت اليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأي ممن معه ان أمير خرسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك . قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معهُ من المسلمين لو لم أكن الا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فعوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينهُ وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحهُ خاقان في جمع عظيم وزحف اليهِ أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاءً حسناً مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد

القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر اما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر . قال هلاك سورة أهون عليّ . قال فاكتب اليهِ فليأتك في أهل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليهِ فقاتلوه . فكتب الجنيد الى سورة يأمره بالقدوم . فرحل سورة عن سمرقند في اثني عشر ألفاً فلما كان بينهُ و بين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لِهْب فسقطوا فيهِ وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت نخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم الاَّ القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير الى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الوقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد اربعة أشهر ثم بلغه ان خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً على تعبية فلقيتهُ بالطريق جنود خاقان فهزمها . ولم يزل سائراً حتى ورد بخارى . والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي وكان هشام قد غضب على الجنيد لانه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحهُ الله من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم

وفي عهده خرج عليهِ الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً الى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعهُ خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فان الرائد لا يكذب أهله وان خراسان لا تصلح الاَّ أن تضم الى العراق وتكون موادها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطوء غياثه عنها) . فعزل هشام عاصماً عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد . ولما بلغ عاصماً اقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وان يكتبا جميعاً الى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فان أبى اجتمعا عليهِ نختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو واصحابه . ولما قدم أسد حبس عاصماً وحاسبه وطلب منهُ مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع الى بلخ وكانت قاعدة عمله . ثم ان خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه

وأقبلوا يغير بعضهم على بعض . وأرسل أسد مبشراً الى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين . وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملاً على اليمن فسار حتى اتى الكوفة في جمادي الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الاخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمهِ وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأبشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليهِ فان تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة

ولي خرسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف ابن عمر

وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعهُ كثير من أهل

الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ . وبلغت الاخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له . ما قولك في أبي بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما الاَّ خيراً وان أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين فدفعونا عنهُ ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة . قالوا فلم يظلمك هؤلاء اذا كان اولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتالهم . فقال ان هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والى السنن أن تحيا والى البدع أن تطفأ فان أجبتمونا سعدتم وان أبيتم فلست عليكم بوكيل . ففارقوه ونكثوا بيعتهُ وقالوا سبق الامام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة . وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتهِ اكثر من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا بهِ مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنهُ أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجهُ وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه الى هشام فصلب على باب دمشق . والى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات الى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً . ووضع الجزية عمن أسلم من العجم . وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات الى ما وراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فارسل مسلمة نائباً عنهُ وهو الحارث ابن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة الى الترك من باب اللان فلقي ملكهم في جموعهِ فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معهُ من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معهُ بمرج أردبيل . وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي واتبعهُ بالجنود ولما وصل ارزن لقيتهُ فلول الجراح فأخذهم معهُ حتى وصل الى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء الى أن وصل برذعة فنزلها . كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغهُ وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغهُ أن الخزر على قرب منهُ ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار اليهم ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من

المسلمين وأخذهم الى باجروان . ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيهِ الخزر هزيمة منكرة . وعلى الجملة فان الحرشي أذل الخزر اذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليهِ

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره الى هشام فكتب اليهِ هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار الى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليهِ في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والأبواب في آخر رمق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا اليهِ مسلمة وأنهُ لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب اليهِ أن يوليه أرمينية وأن يمده بمئة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فأجابه الى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود اليهِ فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى الى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلاً فأقام مروان في تلك البلاد أياماً ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليهِ مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم . وكان مروان يلح على أهل تلك البلاد باظهار القوة حتى لم يكونوا

يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفاً شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطئ بحر الخزر

في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الاسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينيـة) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيـد بن هشام وسليمان بن هشام وقد افتتحوا في غزواتهم بلداناً كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبـد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبدالله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنـة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمرّ برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل . وفي سنة ١٢٢ قتل عبدالله البطال وكان كثير الغزو الى بلاد الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونهُ خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنهِ مسلمة الى بلاد

الروم وأمره على رءوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعهِ وقال انهُ ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينهُ وبين الروم

وانما أشرنا الى ذكر عبد الوهاب والبطال لانهما بطلا رواية كبيرة ألفت في عصر لا نعلمهُ بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهي أم عبد الوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحداً يقرأ منها شيئاً . وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر انهما ألفا في عصر واحد

في الحجاز

كان والي الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفي سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك . ومما يروى عنهُ في حجهِ هذا أنهُ لقيهُ سعيد بن عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار الى جنبهِ يقول يا أمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فانها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنهُ فيها . فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لشتم أحد ولا للعنهِ قدمنا حجاجاً . ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوي هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظماً له الا رددت عليّ

ظلامتي . قال أي ظلامة . قال داري . قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك . قال ظلمني . قال فالوليد وسليمان . قال ظلماني . قال فعمر . قال رحمه الله ردها عليّ . قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي لها وهي في يدك . فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك . قال فيّ والله ضرب بالسيف والسوط . فانصرف هشام وهو يقول لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذي يقيم للناس حجهم الاَّ في سنة ١١٦ فان الذي أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد وفي سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه ان شاء الله وحده في تاريخ مصر

هذا مجمل حال الأمة العربية في عهد هشام الذي طال ومنهُ يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء الاَّ ان الذي يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الأمم الكبرى ان تكون شُعباً جنسية فان هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلاً لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قوياً فاذا ضعف أثره قليلاً ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد انه لا بقاء للأمة معهُ وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصيـة يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدا لهشام ان يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وان كان قد أجابه بعض القواد الى ما أراد . وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفي هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة اشهر وأحد عشر يوماً (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ الى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة . شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال له الرجل أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الارض . فاستحيا منه هشام وقال اقتص مني . قال اذاً أنا سفيه مثلك . قال نخذ مني عوضاً من المال . قال ما كنت لأفعل . قال فهبها لله . قال هي لله ثم لك . فنكس هشام رأسه واستحيا وقال والله لاأعود لمثلها أبداً

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أرَ ديواناً أصح ولا أصلح للعامـة والسلطان من ديوان هشام . وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض . والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يعرف

ما يرد على الدولة وما يصرف . ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فانه أساء اليهِ كثيراً حتى ساء خلقهُ . ودعا القواد الى خلع الوليد فأجابهُ كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ ﴿ الوليد الثاني ﴾

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان ولياً للعهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرنا

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له . فكان أول ما فعله أن كتب الى العباس بن عبد الملك ابن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه الا مسلمة بن هشام فانهُ كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب بهِ الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الأحول المشـ ـئوم وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله انه زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاماً كان حياً فيرى محلبه الأوفر قد أترعا

ليت هشاماً عاش حتى يرى مكياله الأوفر قد طبّعا
كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه بهِ اصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاماً عليهِ وهم كثيرمن سادة الأمة وافراد البيت الأموي

كان ممن أجاب هشاماً الى خلع الوليد محمد وابراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي والياً عليها ودفع اليهِ محمداً وابراهيم موثوقين في عباءتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا الى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم عن ضرب بسوط الا في حد . قال ففي حد أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنهُ الى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي اياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه ابراهيم ثم أوثقهما حديداً وأمر أن يبعث بهما الى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليهِ عذبهما حتى ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربهُ مئة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرب به الى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك

وكان خالد بن عبد القسري سيداً من سادات اليمن فطلب اليهِ

الوليد أن يبايع لابنيهِ الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليهِ الوليد وكان ذلك سبباً في أن أرسله الى يوسف بن عمر الثقفي والي العراق فنزع ثيابه وألبسهُ عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبهُ عذاباً شديداً وهو لا يكلمهُ كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبهُ عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليهِ قضاعة وهم واليمن أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيهِ يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان الناس الى قوله أميل لأنهُ كان يظهر النسك

بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله الاَّ شهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح واذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع

أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنهُ لم ينتهِ وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا اليهِ الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمهُ يزيد الخبر فصدقه . ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل الى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق . وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن

عبد الملك فذهب اليهِ وهو بالأغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليهِ بابه وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليهِ فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به الى يزيد فنصبهُ على رمح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافتهِ سنة وثلاثة أشهر . وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

١٢ ﴿ يزيد الثالث ﴾

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وفي ذلك يقول

انا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردها الى ما كانت عليه زمن هشام . وكانت ولاية يزيد فاتحة الاضطراب في البيت الأموي ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبدالله بن عبد الملك وكان عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً . فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل اليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هانىء وكتب اليهم أنهُ ليس

يدعو الى نفسهِ وانما يدعو الى الشورى فلم يرضَ بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذٍ جهز لهم جيشاً عليهِ سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين . كان أهل حمص يريدون الذهاب الى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبدالله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفياني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا الى دمشق فسار سليمان مجدًّا في اثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً آخر يقدمهُ عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً ولما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه . وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فانهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير اليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فان يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنهُ يوسف ابن عمر فذهب منصور الى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال الى خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله الى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم . قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الأزدي المعني ويلقب بالكرماني لانه ولد بكرمان وقامت معهُ اليمانية يريدون افساد الأمر على

نصر فقامت النزارية مع نصر عصبيـة له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الأزد حتى أخرجوه من محبسهِ وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنهُ صلح على فساد لأن كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس . ولم يكن عند ولاة الأمر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فانه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيهِ ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك . فلما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه ابراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرضَ ولاية ابراهيم فسار الى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلتهُ جنود أرسلت لحربه من قبل ابراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له . ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليهـا وبايعهُ أهلها وهرب ابراهيم بن الوليد فأمنهُ مروان ولعدم تمام الأمر لابراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

١٣ ﴿ مروان الثاني ﴾

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الأشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة . وكان والياً على الجزيرة وأرمينية كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع الى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً الى نفسه وكان معهُ من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجد في حربه وكانت العامة تميل اليهِ لمحبتهم لأبيه فساعده ذلك على أن غلب عبد الله ابن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليهِ أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليهِ أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليهِ أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم . ثم ثار عليهِ سليمان بن هشام بن عبد الملك فانهُ قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له

أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم الى ذلك وسار باخوته ومواليهِ معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فأقبل اليهِ بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة ان انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيماً فقتلهم ويقال انهُ أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذٍ فبلغت ثلاثين ألفاً ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليهِ الفلول فقصده مروان وفي الطريق قابلتهُ جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار الى تدمر فأقام بها . أما مروان فأتى حمص واستولى عليها . فأنتم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص

لم تقف الاضطرابات عند هذ الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لاظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبدالله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبدالله الى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الأمر الى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان اذ ذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير الى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها في سبعة آلاف فسار

اليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مئة ألف

ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري احد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيهِ مروان ووصل الخيبري الى خيمتهِ وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبري ثار اليهِ العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معهُ وبلغ الخبر مروان وقد جاز العسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف الى عسكره ورد خيوله الى مواقعها وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى ان الناس يتفرقون عنهُ انصرف بمن معهُ الى الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة الى العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جنداً لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جنداً وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فان قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعهُ حتى لاقاه بجيرفت وهزمهُ هزيمة منكرة فمضى شيبان الى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس الى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة

١٢٨ فقال له يا رجل أسمع كلاماً حسناً أراك تدعو الى حق فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعهُ أبو حمزة على الخلافة ودعا الى خلاف مروان وآل مروان

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ اذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمئة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذٍ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيهِ وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال . ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى اذا كانوا بقُديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقينَ من صفر سنة ١٣٠ . ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حرباً فرقي منبرها وقال بعد ان حمد الله وأثنى عليهِ تعلمون يا أهل المدينة انا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أقبلنا من

قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض فآوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعاً بنعمته اخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا الى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي . ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عزّ وجلّ عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منهُ المبطلون وأنتم يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عزّ وجلّ بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم الاّ مشركاً أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو اماماً جائراً يا أهل المدينة من زعم أن الله عزّ وجلّ كلف نفساً فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتها فهو لله عزّ وجلّ عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عزّ وجلّ في كتابه على القوي والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة ويلكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الا شباباً أحداثاً شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عزّ وجلّ أنفساً تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مرّوا بآية شوق شهقوا

شوقاً الى الجنة فلما نظروا الى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت والى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولي هذا واستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي الاّ بالله عليه توكلت واليهِ أنيب

ثم ان أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فاذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيي فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار الى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار الى اليمن وبلغ عبد الله بن يحيي مسيره اليه وهو بصنعاء فأقبل اليهِ بمن معهُ ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه الى الشام

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بني العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم الى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدعوة العباسية)

وفي شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبي العباس السفاح

أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في ارسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الأخير فاختار عمه عبد الله بن علي قائداً لذلك الجند . فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة . صار مروان ينتقل من بلد الى آخر وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلاً في كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شي قدير)

الخاتمة

في مدنية الاسلام في عهد الدولة الأموية وأسباب سقوطها

الخلافة الاسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنهُ باب . وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة . وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومهُ قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه . وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهي ويربي ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيهِ وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الأمير عمر بن عبد العزيز له . وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروي الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك

طاب يومي ولذ شرب السلافة   وأتانا نعي من بالرصافة
وأتانا البريد ينعي هشاماً   وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل ما يجتزئ بهِ الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافاً لا عليهِ ولا له صرنا نرى بعض بني مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد . وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته اما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم . وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر فكأنهُ يعتذر لهم عن قسوتهِ في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

واذا كنا على رأي من يقول ان الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فان مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان ابن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فان أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليهِ الكلمة . ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك . ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله . ومروان بن محمد دعا الى نفسهِ عقب موت يزيد الثالث فبايعهُ قوم وكرههُ آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده

أما من عدا هؤلاء الاربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره أبوه يزيد . وعبد الملك اختاره أبوه مروان . والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك . وعمر ويزيد اختارهما سليمان الأول ابن عمه والثاني أخوه . وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الأول أخوه والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحداً لولاية عهده بل كانوا دائماً يختارون من يلي عهدهم ومنْ بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعوا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فاذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق . وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت امرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد شذوا أحياناً عن نص هذه البيعة اذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الأشعث لا يبايع الا من أقرّ على نفسه بالكفر بخروجه

ادارة البلاد

كانت البلاد الاسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم

وكانت مقسمة الى أمارات كبرى وهي

(١) الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف الى ذلك أحياناً بلاد اليمن واحياناً تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والأمير يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً . وقد يضاف أحياناً الى امارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وينتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين — والأردن — ودمشق — وحمص — وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبجا جنداً برأسه وانما سمي كل منها جنداً لانهُ يجمع كوراً والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والأقرب أن هذا هو أصل التسمية

(٥) مصر وافريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية وكانت أفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الاندلس بعد فتحها وتارة كانت تضم الى أفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود أمارته

كانت الأعمال التي ترجع الى الخلفاء هي (١) اقامة الصلاة (٢) قيادة الجيش (٣) جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه (٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم . وقد كان الأمير يقوم مقام الخليفة أحياناً في جميع ذلك يقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه . ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج فيصرف منهُ حاجات الأمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى الى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس . وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملاً للخراج يرجع اليه رأساً

والأمراء الذين كانت اليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الاداري فكانوا يتصرفون في كل شيءٍ ويعلمون

الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري الاّ أن الحجاج كان اكثرهم استقلالاً للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى في حواضر الامارات الاّ انهُ لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره الى الخليفة وقد ترفع عنهُ ظلامته . وقد ضيّق على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لأن ثقتهُ كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم ان لا ينفذوا حدّاً من الحدود من قتل أو قطع الاّ اذا عرض عليهِ وأمر بتنفيذه . اما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب او يضربهُ الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليهِ لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا الى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق و بين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايتهِ لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلاً وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم اذلال الأمراء ومصادرتهم في أموالهم وأحياناً الاتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فانهُ أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون بهِ بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمرّ الأمر على ذلك من بعد عمر بن العزيز الى أن انتهى أمرهم وقد

كان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الأموي . ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين ألف ألف فدفعهُ اليهِ فنزع يوسف ثيابه وألبسهُ عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمهُ كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبهُ ووضع المضرسة على صدره فقتله من الليل ودفنهُ من وقته بالحيرة في عباءته التي كان فيها وذلك بعد أن ولي خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم من عظمائهم

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة الاسلامية من الجهة الشرقية في السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية في أفريقية والأندلس

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بني علي ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية الاَّ عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي اذاً دولة حربية . لا جرم ان امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود الى حومة الوغى واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير في الحرب وها نحن نورد على أسماعكم جملة من اولئك الأفراد العظام الذين مرَّ ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق (١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان علمه تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعاً مقداماً لا يرده شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فانه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم (٣) يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعاً لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فانه ردّ أهلهما الى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافتهِ وكان ذلك سبباً لهلاكه وهلاك أهل بيتهِ الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية (٤) أسد بن عبد الله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصبية لقومهِ من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سبباً في فساد أهل خراسان واختلافهم (٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل في أول خلافة سليمان بن عبد الملك

واشتهر في أرمينية وأذربجان (٦) محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شجاعاً أيداً ذا عزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده

على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان (٧) مروان ابن محمد بن مروان كان كأبيهِ بطلاً مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن (٨) الجراح بن عبد الله الحكمي وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر

واشتهر في بلاد الروم (٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنو أمية في أول أمرهم يولون الاَّ أولاد الحرائر (١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان رئيساً على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة (١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيراً ما يقود الشواتي والصوائف الى البلاد الرومية

واشتهر في الغرب وأفريقية (١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنهُ قتل في احدى تلك الوقائع (١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق ابن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الاندلس وأدخلا الاسلام فى قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء

ولم تكن همة الدولة الاسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم اسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يحمي البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم . وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلاً عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم .

ولم تكن أمراء البحر في الدولة الأموية تقل مهارة واقداماً عن أمراء البحر الروميين . وعلى الجملة فان الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها . وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نرَ من بين قوادها أعجمياً

القضاء والأحكام .

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين . الا أن تناكر الخصوم أرشدهم الى تسجيل الأحكام قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب القضاة الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم الى سليم بن عتر (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليهِ فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائهِ وأشهد فيهِ شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم اذ لم تدون اذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعاً الى اجتهاد القضاة أنفسهم أو الى ما يشير بهِ المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً الا وهبه ووصل بهِ اخوانه وأفضل بهِ عليهم فلما ولي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع اليهِ غلام من حمير لا نحوى يده شيئا الا

وهبهُ وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بني . قال فمن يحجر عليك أيها القاضي والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد . فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها . وكانوا أحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة اذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاضي مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليهِ يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب اليهِ أن يجعلها للشريك وحده وقال فاذا وقعت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضاً في الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ولم تلتفت الدولة الى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي بهِ قضاتهم أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين . لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه

وكان الى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حُديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فانه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده قال الكندي فجرى الأمر على ذلك

وكانوا يتولون الأحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك وانما كانت الأحباس في أيدي

أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات الاّ الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول انشاء ديوان الأوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً الى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأي في اختيارهم . ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم الى مد الأيدي الى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن حجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصص مئتي دينار ورزقه في بيت المال مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء الى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند (٢) ديوان الخراج (٣) ديوان الرسائل .
فأما ديوان الجند فانهُ مذ وضع كان بالعربية لان عمر انمـا كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش . وكان هذا الديوان يحصر جند كل امارة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون قد مهروا بعـد فيه . فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ . واتفق أن انضم الى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية نخف على قلبه . شعر صالح بذلك نخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت الى الأمير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن ذلك هو أحوج اليَّ مني اليه لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته قال فحول منهُ أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في امضائه فنقله من الفارسية الى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم .

وكان عبد الحميد بن يحيي الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب . وأما ديوان الشام فان الذي نقله من الرومية الى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن منصور الرومي ثم كتب بعده ابنهُ منصور بن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزاري من حمص . هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة الى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة الى الكتاب من الأمم الأخرى

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف. أو هو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل الى الأمراء والعمال في الامارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيي قال الطبري وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحلَ ما ليس بالقافل ... واعقب ما ليس بالزائل
فلهفي على الخلف النازل ... ولهفي على السلف الراحل
أبكي على ذا وأبكي لذا ... بكاء موطهة ثاكل

تبكي من ابن لهـا قاطع　　وتبكي على ابن لهـا واصل
فليست تفتر عن عبرة　　لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي　　ورد التقى عن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانهـا غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضهـا محمد رسول الله وفي بعضها لا اله الاّ الله وحده وفي آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقريزي فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد ابن أبيهِ الكوفـة والبصرة قال يا أمير المؤمنين ان العبـد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليهِ ضريبة أرزاق الجند وترزق عليهِ الذرية طلباً للاحسان الى الرعية فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت الرعية به مرفقاً ومضت لك بهِ السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليهـا فكانت تجري مجرى الدراهم . وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى

الآخر أمر الله بالوفاء والعدل : وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس في العطاء

فلما استوسق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً الاَّ حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف وكتب الى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وبها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيهِ صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئاً . وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي وهي الميالة الوازنة كل مئة دينارين أي ان النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢

ثم قال وكان الذي ضرب الدراهم رجلاً يهودياً من تيماء يقال له سمير نسبت الدراهم اذ ذاك اليه وقيل لها الدراهم السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة الى الحجاج فسيرها الحجاج الى الآفاق لتضرب الدراهم بها وتقدم الى الأمصار كلها أن يكتب اليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وان تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية وتحمل اليهِ اولاً فأولاً وقدر في كل مئة درهم درهماً عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا اله الاّ الله وطوق الدرهم على وجهيهِ بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب

هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذي دعا عبد الملك الى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية العتق تبقى مع الدهر وقد جاء في الزكاة ان في كل مئتين أو في كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق ان جعلتها كلها على مكان السود العظام مئتين عدداً أن يكون قد نقص من الزكاة . وان عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على انها اذا بلغت مئتين عدداً وجبت الزكاة فيها فان فيه حيفاً وشططاً على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا اضرار بالناس مع موافقة ما سنهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك . وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد الى درهم وافٍ فوزنه فاذا هو ثمانية دوانيق والى درهم من الصغار فاذا هو اربعة دوانيق فجمعهما وكمل زيادة الاكبر على نقص الأصغر وجعلهما درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى . واعتبر المثقال أيضاً فاذا هو لم يبرح في آباد الدهر موفي محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فانها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والأمر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر الى أن استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق . فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعاً للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٦

أن يعيد العيار الى وزن سبعة وان يبطل السكك من كل بلد الاّ واسطاً فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها . فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران الى أن قتل

وقد نقل المرحوم علي مبارك باشا في الجزء الأخير من الخطط توضيحات نافعة في أمر الدرهم والدينـار في الدول الاسلامية واتبعها بجدول يعرف منهُ وزن الدراهم والدنانير في الأزمنة المختلفة . وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يغلب على الظن أن العرب اعتبرتهـا قدرها ٢٨،٣٢ جراماً فسدسها الذي هو المثقال ٤،٧٢ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هـذا شيئاً يسيراً اذ أن وزنه ٤،٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤،٢٥٠

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة ذات القرشين تقريباً لأن وزنها ٣،٥٠ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٢،٩٤ ج وبين ٢،٧٠ ج وأن وزن الدينار كان يساوي في الوزن نصف الجنيه الانكليزي لأن وزنه ٤،٢٥ وقد كان وزن الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين ٤،٦٤ ج وبين ٤،٢٢٥

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقوداً اسلامية لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المـالي وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس في الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضاً ومشورة فان معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفهُ من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضي الناس عنهُ والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايتهِ . كان في الأمة العربية فريقان عظيمان لا يرضون عنهُ وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والأولون ذوو اقدام وبسالة ولدد لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيء الاّ أن يكون الفناء . والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . وبيت هذا شأنهُ لا يصفو له الملك الاّ اذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعهُ والتي سلت سيوفها لنصرته . فاذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكامنها فان صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وان صادفت شمل خصمها متفرقاً قهرتهُ وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسية مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن نورتهم فكان يغضي عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه اليهِ فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحاً ومن العداء تقرباً ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة الا أنهُ فيما نرى زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي

ابن أبي طالب على منابر الأمصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضاً وربما رد الجريء منهم على الأمير وجهاً لوجه فيكون من وراء ذلك اسراف في العقوبة يزيد الأمر شراً كما حصل من زياد في أمر حجر الكندي

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم الى ما لا يحتاج اليهِ غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم وهي

(أولاً) ولاية العهد

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموي وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر . وأول من فعل ذلك مروان فانهُ ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده الى ابنه الوليد وعزل أخيهِ عبد العزيز لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة . ولكنهُ وهو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان . خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر الى حين . لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ولم يكن عمر يميل الى يزيد فخيف منهُ فعوجل حتى قيل انه سم . أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد . وكان كثير

من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بمالأة هشام على رأيه ولكنهُ مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في اشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فان البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين .

(ثانياً) احياء العصبية الجاهلية التي جاء الاسلام معفياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لأنه رأى ان حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فان وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكيين رجالاً غلبا ... وطيئاً نأباه الاَّ ضربا
والقين تمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخراً صعبا
لا يأخذون الملك الاَّ غصبا ... وان دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجه ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن أبي عبيد الثقفي كاد يستأصل فان عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت

رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يا لثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام. في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام كان ما هو أشد منهُ في خراسان فان مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة. فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم الى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا الى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير الى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار اليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم الى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة اليمن وربيعة وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر

كانت الأمراء تساعد على انماء هذه الروح الخبيثة فاذا ولي يمان

رفع رءوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الأمصار فاذا تلاه مضري عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن الا اذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فاذا عادوا عاد الفساد . وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموي الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فان أبا مسلم الخراساني اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم . ولا ننسى أن لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يداً كبرى في انماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك . لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف تنتمي الى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فاذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فان الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء فان الجهل يجعل روح العصبية موجهة الى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها . لم ينتج من انماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتي تفصيله ان شاء الله

(ثالثاً) تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوي الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثاني فان سليمان بن عبد الملك لما ولي بعد أن كان الوليد يريد اخراجه من ولاية العهد عمد الى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم

وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة ابن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما الا أنهما من صنائع الحجاج الذي كان هواه مع الوليد ولا يميل الى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لأنهُ صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وخلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بني أمية والأمة الاسلامية . وكان بعد من هذا شيء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ومن يؤازرهم

الأمة التي ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معهُ تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأي ولا ينضج فيها عمل تمرّ عليها الأمم سائرة الى الأمام وهي في موقفها أو لها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة الا صادقتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر أو تساق الى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه — لما كان اكثر الذين دونوا في عهد بني أمية قد عاشوا في الدولة العباسية استحسنا ان نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

فهرس

صفحة		صفحة	
٥٨٣	وفاة الحجاج	٦١٥	في الحجاز
٥٨٥	وفاة الوليد بن عبد الملك	٦١٧	ولاية العهد
٥٨٥	سليمان	٦١٧	وفاة هشام
٥٨٨	الفتوح في عهده	٦١٧	صفته
٥٨٩	ولاية العهد	٦١٨	الوليد الثاني
٥٨٩	وفاة سليمان	٧٢١	يزيد الثالث
٥٩٠	المحاضرة التاسعة والثلاثون	٦٢٤	مروان الثاني
٥٩٠	عمر بن عبد العزيز	٦٣٠	الخاتمة
٦٠٠	وفاة عمر	٦٣٠	مدنيه الاسلام في عهد الدولة الاموية
٦٠٠	يزيد الثاني		
٦٠٣	ولاية العهد	٦٣٠	الخلافة الاسلامية
٦٠٤	وفاة يزيد	٦٣٣	الانتخاب والبيعه
٦٠٤	المحاضرة الاربعون	٦٣٤	ادارة البلاد
٦٠٤	هشام	٦٣٧	قيادة الجنود
٦٠٤	الأحوال الداخلية في عهده	٦٤٠	القضاء والأحكام
٦٠٤	في العراق والشرق	٦٤٢	الدواوين
٦١٢	في أرمينية وأذربيجان	٦٤٥	السكه الاسلاميه
٦١٢	في الشمال	٦٤٨	اسباب السقوط

تنبيه — ضع كلمتي مبعث و بعث بدل ميلاد وولد في السطر ين الخامس والسادس من صفحة ٤٦

وضع كلمة بالمعمود بدل بالمهود في السطر الثاني من صفحه ١٣٨